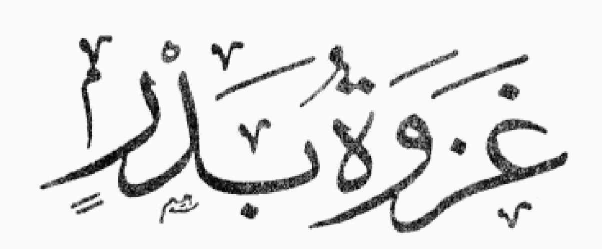
السيرة النبوية





عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون • إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين • بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين • وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم • ﴾

(قرآن كريم)

١

مدينة الرسول تنبض بالحياة . المهاجرون والأنصار فى عدة القتال فقد سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا فى عير قريش من الشام ، فندب المسلمين إليهم وقال :

ــ هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .

فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا . حتى إن كان الرجل ليساهم أباه فى الخروج ، فكان ممن ساهم أباه سعد بن خيثمة فقال سعد لأبيه :

ــ إنه لو كان غير الجنة آثرتك به ، إنلأ لأرجو الشهادة فى وجهى هذا .

فقال خيثمة :

ــ آثرنى وقر مع نسائك .

فأبى سعد فقال أبوه :

ــ أنه لا بد لأحدنا من أن يقيم .

فاستهما فخرج سهم سعد .

وأبطأ عن النبى ﷺ وآله بشر كثير من أصحابه وكرهوا خروجه ، وتخلف بعضهم من أهل النيات والبصائر لم يظنوا أنه يكون قتال إنما هو خروج للغنيمة ، ولو ظنوا أنه يكون قتال لما تخلفوا منهم أسيد بن

حضير .

وبقي عثمان بن عفان إلى جوار زوجة رقية بنت محمد عليه السلام فقد اشتد بها المرض وطاف بها شبح الموت .

وراح عثمان يرنو إلى وجه رقية الذابل فيغص حلقه بالدموع وتنثال على رأسه الذكريات ، فغدا يرى نفسه وهو يحنو على بنت رسول الله ﷺ يوم أن هاجرا إلى الحبشة فرارا بدينهما وهما على قرب عهدهما بالزواج . وسرعان ما احتل أقطار رأسه وجه رقية المشرق الصبوح وقد زاده الانفعال جمالا لما كانت تصغى إلى جعفر بن أبى طالب وهو يحاور النجاشي وأصحابه يوم أن جاء عمرو بن العاص يدبر لغدره . ورن فى أغواره صوت رقية الرصين وهي تحدث المهاجرات حديثا يريح النفوس ويبعث في الصدور الآمال ، فحرك أشجانه وزاد فى مخاوفه فهو يحب زوجه حبا ملك عليه كل حواسه . ولكن كان أخشى ما يخشاه أن تموت رقية فينقطع نسبه لرسول الله عليه السلام .

وتذكر عثمان يوم أن جاء الناعي ينعى الطاهرة أم المؤمنين . إنه حزن لموت خديجة حاضنة الإسلام حزنا كادت أن تنفطر له كبده ، ولكن حزن رقية على أمها كان ثقيلا هزه من الأعماق ، إنه ما انفك يواسيها وإن كانت نياط قلبه تتمزق ، وإن كان على بينة من فداحة المصاب ، كان يكفكف دموعها بينا العبرات تبلل روحه وتسيل في قلبه على سيدة نساء قريش ، وعلى رقية التى كانت تضطرب من الأسى كريشة فى مهب الرياح .

ورأى عثمان بعين خياله يوم أن ركب البحر مع رقية والزبير بن العوام وعبد الله بن جحش وأبو سلمة وامرأته هند بنت أبى أمية زاد

الركب ، إنها كانت مستبشرة تهلل وجهها الجميل بالفرح دون أن تكترث بالموج ، فقد كانت فى طريقها إلى مكة ، إلى أبيها الحبيب رسول الله ﷺ الذى طال إليه الشوق وهوى إليه الفؤاد .

إن عثمان لا يستطيع أن ينسى تلك اللحظة النابضة بأنبل مشاعر البشرية ، ساعة أن ارتمت رقية فى أحضان أبيها وهو يغمرها بقبلات الحنان . إنه استشعر أن الكون كله يخفق بالرقة حتى إنه لم يستطع أن يحبس دموعه التى جرت من شدة الانفعال .

ورنا عثمان إلى وجه زوجه الذابل الذى علاه الاصفرار ففرت سكينته ولفه حزن شديد امتزج بخوف قاتل ، فالأنفاس المضطربة التى كانت تلتقطها رقية فى جهد كانت على الرغم من خفوتها تعلن بأعلى صوت فناء صاحبتها ، وأنها تسرى فى نفس الطريق الذى سرت فيه أم المؤمنين من قبل ، سبيل الخلود فى ملكوت الله .

إنه حملها إلى يثرب بعد أن أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة وهو يمنى النفس بحياة مستقرة سعيدة يعمل فيها لآخرته ودنياه . وقد كانت أول أيامه بالمدينة مشرقة بالآمال فقد وضعت رقية طفلهما عبد الله بن عثمان فكاد يطير من الفرح أن صار له ولد جده رسول الله عليه السلام ، وإنها لهناءة الدنيا وسعادة الأبد أن يكون له ذرية من نسل خير البشر عليه صلوات الله .

وغمر الدار استبشار وجاء رسول الله ﷺ يغمر حفيده بفيض من حنانه ورقته ، وتوجت الشفاه بسمات فسروره عليه السلام كان يسر المهاجرين والأنصار ، ولكن هذه البهجة سرعان ما غاضت فقد نقر ديك عبد الله بن عثمان فمات ، فذاقت رقية مرارة الثكل ، ولما كانت

مرهفة الحس فقد سقطت صريعة الحمى .

وغدا رسول الله ﷺ يزور ابنته التي تحملت في سبيل دينها كل الآلام وصنوف العذاب ، وكان يرى الفناء يدب فيها فيتلوى ألما ، وود أن يبقى إلى جوارها يخفف عنها بعض ما تقاسي فهو يحبها بكل عواطفه ، ولكن ما إن سمع بأبي سفيان مقبلا من الشام بعير قريش حتى ندب المسلمين للخروج ، فحبه الله كان يفوق كل حب .

كان رسول الله قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسسان خبر العير ، فنزلا على كشد الجهني بالموضع المعروف بالنخيار من وراء ذي المرة على الساحل ، فاجارهما وأنزلهما فلم يزالا مقيمين في خباء وبر حتى مرت العير فرفعهما على نشر من الأرض ، فنظر إلى القوم وإلى ما تحمل العير وجعل أهل العير يقولون لكشد :

ـــ يا كشد هل رأيت أحدا من عيون محمد ؟

ـــ أعوذ بالله ! وأني لمحمد عيون بالنخيار ؟

فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا وخرج معهما كشد خفيرا حتى أوردهما ذا المروة ، وساحلت العير فأسرعت وسار بها أصحابها ليلا ونهارا فرقا من الطلب .

وجاء إلى رسول الله عبد الله بن عمرو بن حزام فقال :

ـــ يا رسول الله لقد سرني منزلك هذا وعرضك فيه أصحابك وتفاءلت به ، إن هذا منزلنا بني سلمة حيث كان بيننا وبين أهل حسيكة ما كان ، فعرضنا يا رسول الله ها هنا أصحابنا فأجزنا من كان يطيق السلاح ورددنا من صغر عن حمل السلاح ، ثم سرنا إلى يهود حسيكة

وهم أعز يهود كانوا يومئذ فقتلناهم كيف شئنا فذلت لنا سائر يهود إلى اليوم . وأنا أرجو يا رسول الله أن نلتقي نحن وقريش فيقر الله عينك منهم .

وكان خلاد بن عمرو بن الجموح لما كان من النهار رجع إلى أهله بخرباء فقال له أبوه عمرو بن الجموح :

— ماظننت إلا أنكم قد سرتم :

— إن رسول الله ﷺ يعرض الناس بالبقع .

— نعم الفال ! والله إني لأرجو أن تغنموا وأن تظفروا بمشركي قريش . إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى الحسيكة .

وانطلق رسول الله عليه السلام وأمامه رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب وهي العقاب وكانت من مرط لعائشة ، وكان علي ابن عشرين سنة تتألق الشجاعة في عينيه ويشع التقى من وجهه ولا غرو فهو ربيب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، والثانية مع سعد بن معاذ . وسلم عليه السلام اللواء إلى مصعب بن عمير . وسار جيش المسلمين حتى انتهى إلى المكان المعروف بالبقع ، وهي بيوت السقيا وهي متصلة ببيوت المدينة ، فكان عبده رباح يستقي له من بئر غرس مرة ومن بيوت السقيا مرة .

وتأهب المسلمون للسير وقد لبس رسول الله درعه ذات الفضول وتقلد سيفه العضب ، وأمر ﷺ حين فصل من بيوت السقيا أن تعد المسلمون ، فوقف لهم عند بئر أبي عتبة وهي على ميل من المدينة فعدوا ، فعرض أصحابه ورد من استصغر ، وكان ممن رده عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير

وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت .

ورأى سعد بن أبي وقاص أخاه عمير بن أبي وقاص يتوارى فقال له :

ــ مالك يا أخي ؟

ــ إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وآله فيستصغرني فيردني ، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة .

فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره فقال :

ــ ارجع .

فبكى عمير فرق له فأجازه .

وحين فصل ﷺ من بيوت السقيا قال :

ــ اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك .

ودعا لأهل المدينة فقال :

ــ اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة ، وإني محمد عبدك ونبيك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثمارهم ، اللهم حبب إلينا المدينة واجعل ما بها من الوباء بخم(١) . اللهم إني حرمت ما بين لابتيها كما حرم إبراهيم خليلك مكة .

ثم خرج عليه السلام في خمسة وثلاثمائة رجل : من المهاجرين أربعة وستون وباقيهم من الأنصار ، بعد أن رد أبا لبابة واستعمله على المدينة ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس في المدينة ،

---

(١) خم : على ميلين من الجحفة .

وخلف عاصم بن عدى على أهل قباء وأهل العالية بعد أن أصبحت تلك البقاع مسرحا للمنافقين وأعداء الإسلام .

وخرج حبيب بن يساف نجدة لقومه من الخزرج طالبا للغنيمة ، وكان ذا بأس ونجدة ولم يكن أسلم ، ففرح المسلمون بخروجه معهم ولكن رسول الله ﷺ لم يستبشر بخروجه فقال له :

— لا يصحبنا إلا من كان على ديننا . ارجع فإنا لا نستعين بمشرك .

وراح حبيب يزين لرسول الله ﷺ خروجه معهم والنبى عليه السلام يؤكد أن المسلمين لا ينتصرون بأهل الشرك على أهل الشرك ، فلما رأى حبيب صدق رسول الله عليه السلام مع مبادئه قال :

— نؤمن بالله ورسوله .

— نعم .

فأسلم وسار مع المهاجرين والأنصار بعد أن أشرق قلبه بنور اليقين ، وقد وطد النفس على الجهاد فى سبيل الله .

وكان رسول الله ﷺ صائما ، فلما رأى ما يتحمل المسلمون من جهد في السير أفطر ونادى مناديه :

— أفطروا .

فلم يفطروا ، فعاد مناديه ينادى :

— يا معشر العصاة إني مفطر فأفطروا .

وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ سبعين بعيرا فاعتقبوها كل ثلاثة يعتقبون بعيرا ، فكان رسول الله عليه السلام وعلى بن أبى طالب ومرثد يعتقبون بعيرا ، فكان إذا كانت عقبة النبى ﷺ قال له رفيقاه :

— اركب حتى نمشى معك .

فيقول عليه السلام :

— ما أنتما أقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، ورفاعة وخلاد ابنا رافع وعبيد بن يزيد الأنصارى يحتقبون بعيرا ، وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبى كبشة يعتقبون بعيرا ، وكان سعد بن أبى وقاص من أعظم أصحاب النبى عليه السلام عنه غناء وأكثرهم قوة على المشى وأرماهم لسهم ، لم يركب خطوة ذاهبا ولا راجعا ، وكان يعقد لأخيه عمير بن أبى وقاص حمائل سيفه من صغره .

وغدت الأجراس المعلقة فى أعناق الإبل تصلصل فأمر رسول الله عليه السلام بالأجراس أن تقطع حتى لا ترشد أصواتها أعداءه إلى مطلعه .

ولم يكن فى الجيش إلا فرسان : فرس المقداد بن الأسود ويقال له سبحة ، وفرس الزبير بن العوام ويقال له اليعسوب ، ولكن كانت بين الجوانح قلوب عامرة باليقين نابضة بحب الله .

وخرج رسول الله ﷺ من بيوت السقيا حتى سلك بطن العقيق ثم سلك طريق المكيمن حتى خرج على بطحاء ابن أزهر فنزل تحت شجرة هناك ، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك فبنى منها مسجدا فصلى فيه رسول الله ﷺ ، وأصبح يوم الأثنين وهو هناك ، ثم صار إلى بطن ملل وتربان بين الحفيرة وملل .

فلما كانوا بتربان قال رسول الله عليه السلام لسعد بن أبى وقاص :

— انظر إلى الظبى .

فصوب سعد سهمه إلى الظبى وقد وضع رسول الله عليه السلام رأسه بين منكب سعد وأذنه ، ثم قال :

— اللهم سدد رميته .

فمال أخطا سهم سعد عن نحر الظبى .

فتبسم رسول الله عليه وآله ، وخرج سعد يعدو فأخذ الظبى وبه رمق فذبحه ، فحملوه حتى نزلوا قريبا ، فأمر به رسول الله عليه السلام فقسم بين أصحابه .

وفى أثناء الطريق بعرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرا ، فقال له أصحاب الرسول عليه السلام :

— سلم على رسول الله ﷺ .

قال :

— أفيكم رسول الله ؟

— نعم :

فسلم عليه ثم قال :

— إن كنت رسول الله فأخبرنى بما فى بطن ناقتى هذه .

فقال له سلامة بن سلامة بن وقش :

— لا تسل رسول الله ﷺ ، أقبل على أنا أخبرك عن ذلك : نزوت عليها ففى بطنها منك سخلة ..

فقال له رسول الله ﷺ :

— مه ! أفحشت على الرجل .

ثم أعرض عن سلامه فقد كان عليه السلام يكره فحش القول .

وراح رسول الله ﷺ يرقب عودة طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد فقد بعثهما يتحسسان خبر عير أبى سفيان ، حتى إذا ما نزل المسلمون

بواد يقال له ذفران أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فقال لأصحابه :

— إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فما تقولون ؟ ألـعير أحب إليكم من النفير ؟

إنه يخيرهم بين الغنيمة والحرب فقالت طائفة منهم :

— بلى . العير أحب إلينا من لقاء العدو .

وارتفعت أصوات تقول :

— هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ؟ إنا خرجنا للعير .

— يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو .

فتغير وجه النبي ﷺ وأوحى الله إليه: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ .

وقام أبو بكر فقال وأحسن ، ثم عمر فقال وأحسن ، ثم قام المقداد فقال :

— يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد(١) لجالدنا معك من دونه حتى

---

(١) موضع بناحية اليمن .

تبلغه .

فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له به ، ثم قال رسول الله ﷺ :

— أشيروا على أيها الناس .

وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ :

— والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

— أجل .

— فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

وأشرق وجه رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال عليه السلام :

— سيروا وأبشروا فإن الله تعالى وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

٢

لحقت قريش بالشام فى عيرها ، وكانت العير ألف بعير وكان فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكة قرشى ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به فى العير حتى إن المرأة لتبعث بالشيء التافه ، وإن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبى أحيحة إما مال لهم أو مال مع قوم قراض على النصف . وكان لبنى مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة آلاف مثقال ذهبا ، وللحارث بن عامر بن نوفل فيها ألفا مثقال ، وإن فى القافلة لخمسين ألف دينار .

ولما لحقت قريش بالشام أدركهم رجل من جذام فأخبرهم أن محمدا عليه السلام قد كان عرض لعيرهم فى بدأتهم وأنه تركه مقيما ينتظر رجعتهم قد حالف عليهم أهل الطريق ووادعهم .

ولما كانوا بالزرقاء وهم منحدرون إلى مكة لقوا رجلا فقال لهم :

ــ قد كان عرض محمد لكم فى بدأتكم فى أصحابه .

ــ ما شعرنا .

ــ بلى ، فأقام شهرا ثم رجع إلى يثرب وأنتم يوم عرض محمد لكم مخفون فهو الآن أحرى أن يعرض لكم ، إنما يعد لكم الأيام عدا فاحذروا على عيركم وارتئوا آراءكم ، فوالله ما أرى عدد ولا كراع ولا حلقة (سلاح) .

فأجمع القوم أمرهم فبعثوا ضمضم بن عمرو وكان فى العير ، وقد

كانت قريش مرت به وهو بالساحل معه بكران فاستأجروه بعشرين مثقالا ، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشا أن محمدا قد عرض لعيرهم .

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال قد رأت رؤيا أفزعتها فقصتها على أخيها العباس والتمست منه أن يكتمها ، ولكن العباس قصها على صديقه الوليد بن عتبة بن ربيعة واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش في أنديتها .

وسخر أبو جهل بالعباس وبنى عبد المطلب وهزىء برؤيا عاتكة ، فلم يملك العباس إلا أن ينكر أن تكون عاتكة رأت شيئا . فلما جاء المساء غدت نساء عبد المطلب يلمن العباس للينه مع أبي جهل ، فغدا في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وهو حديد فغضب فدخل المسجد فرأى أبا جهل ، وفيما هو يشتد إليه إذا بصوت ضمضم بن عمرو الغفارى يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول :

— يا معشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث !

واقشعرت جلود أهل مكة ، نزلت بأفئدتهم رهبة ، كانوا يسخرون من رؤيا عاتكة لما قالت إنها رأت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا لغدر لمصاركم في ثلاث ، وأن الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينا هم حوله قام به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها ؛ ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم في ثلاث . ثم قام به بعيره على رأس أبي قبيس

فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفتتت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة . فإذا بالرؤيا التي جعلت من رجال بني عبد المطلب ونسائهم هدفا للسخرية تبدو لكأنما كانت نبوءة ، فقد جاء ضمضم مكة بعد ثلاث ليال من تلك الرؤيا ، وكادت الهزيمة أن تشيع فى نفوس الرجال فيقعدوا عن الخروج لولا ذلك الحقد الذى يملأ قلوب أبى جهل وعقبة ابن أبى معيط والنضر بن الحارث على محمد بن عبد الله ، فراحوا يحثون القوم على الخروج لاستئصال شأفة ابن أبى كبشة الذى فر من القتل يوم أن حاصروه فى داره فى مكة ليفتكوا به ، ويؤكدون أن الفرصة مواتية للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره فى المدينة ويقطع عليهم تجارتهم مع الشام .

وقام سهيل بن عمرو فى رجال من قريش فقال :

— يا معشر قريش ، هذا محمد والصباة من شبانكم وأهل يثرب قد عرضوا لعيركم ولطيمتكم[1] ، فمن أراد ظهرا فهذا ظهر ، ومن أراد قوة فهذه قوة .

وقام زمعة بن الأسود فقال :

— إنه واللات والعزى ما نزل بكم من أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرضوا لعيركم فيها خزائنكم ، فأوعبوا (فاستعدوا) ولا يتخلف منكم أحد ، ومن كان لا قوة له فهذ قوة ، والله لئن أصابها محمد وأصحابه لا يروعكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم .

---

(١) التجارة : وقيل العطر خاصة .

وقال طعيمة بن عدى :

ــ يا معشر قريش والله ما نزل بكم أمر أجل من هذه ! أن يستباح عيركم ولطيمة قريش فيها أموالكم وخزائنكم والله لا أعرف رجلا ولا امرأة من بنى عبد مناف له نشى (وزن نواة من ذهب.) فصاعدا إلا وهو فى هذه العير ، فمن كان لا قوة به فعندنا قوة نحمله ونقويه .

وقام حنظلة بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان فحضا الناس على الخروج ولم يدعوا إلى قوة ولا حملان ، فقيل لهما :

ــ ألا تدعوان إلى ما دعا إليه قومكما من الحملان ؟

ــ والله مالنا مال ، وما المال إلا لأبى سفيان .

ومشت قريش إلى أبى لهب فقالوا له :

ــ إنك سيد من سادت قريش وإنك إن أنت تخلفت عن النفير يعتبر بك غيرك من قومك ، فاخرج أو ابعث رجلا .

ــ واللات والعزى لا أخرج .

فقال له أبو جهل :

ــ أقم يا أبا عتبة ، فوالله ما خرجنا إلا غضبا لدينك ودين آبائك .

كان أبو لهب يشفق من رؤيا عاتكة فبعث مكانه العاص بن هشام وكان قد استرقه لدين فى الميسر .

كان أناس قد أجمعوا على القعود فكان أبو جهل وعقبة والنضر يسخرون منهم ، يقولون لبعضهم : اقعد فإنما أنت من النساء . ويثيرون فى البعض النخوة والأحقاد فخرج كثير من الناس وهم كارهون ، وقد خرج العباس بن عبد المطلب وبعض بنى المطلب وهاشم وهم يمنون النفس بالأ يكون قتال بين الفريقين ، فقد أخرجوا

كرها ولولا خشيتهم من الناس ما تجهزوا وما أجمعوا المسير .

وتأهبوا للخروج إلى النبى ﷺ فأخذوا بأستار الكعبة وقالوا :

— اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين . اللهم لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق .

وساروا : أبو جهل ينهش صدره الحقد ويأكل قلبه الحسد ، وعقبة ابن أبى معيط يتلهف على اللقاء ليسفك دم ابن عبد الله الذى توعده بالقتل إن التقى به خارج مكة ، والنضر بن الحارث يتلمظ تلمظ الحيات قد استولى على ذهنه رسول الله عليه السلام وكان طيفه هدفا لسيفه وكل ما فى جعبته من سهام . فهو لا يستطيع أن ينسى الآيات التى نزلت فيه تسخر منه وتتوعده بعذاب النار .

وكان عتبة بن ربيعة على جمل أحمر ، إنه قد ألقى سمعه كثيرا إلى محمد عليه السلام وكان رأيه أن يخلى بينه وبين القبائل فإن قتلوه كفوهم دمه وثأر بنى هاشم ، وإن ظهر كان ذلك لقريش . ولولا عناد أبى جهل وحقده على رسول الله ﷺ لكان عتبة من أتباع رسول الإسلام .

إنه خارج للقتال وهو كاره ، فإن كان حليفه ابن الحضرمى قد قتله واقد بن عبد الله التميمى فى الشهر الحرام لما بعث محمد بن عبد الله ابن عمته عبد الله بن جحش على رأس سرية فى شهر رجب . فهو على استعداد لأن يدفع دية حليفه وأن يحقن الدماء لولا إصرار ابن الحنظلية أبى جهل بن هشام على قطع دابر محمد وأصحابه ليخلو له وجه قريش .

وكان حكيم بن حزام على بعيره شارد اللب يستشعر عدم راحة

لذلك الخروج الذى دفعهم إليه ابن الحنظلية دفعا . إنه صاحب دار الندوة وله رأى نافذ فى شئون مكة ، ولكن الأحداث قد جعلته ينقاد إلى أبى جهل دون تدبر ويخرج لقتال المسلمين الذين انطلقوا ليستولوا على أموالهم التى مع أبى سفيان .

إنه لا يستطيع أن ينسى أيام أن حصروا بنى هاشم فى الشعب ، كانت عمته خديجة فيهم وكان قلبه يكاد يتمزق لما يفكر أنه يأكل بينا عمته الحبيبة تتلوى من الجوع ، فكان يسوق العير التى تأتيه من الشام تحمل الحنطة إلى الشعب ثم يضرب أعجازها فتدخل عليهم فيأخذون ما عليها من الحنطة ، وهو لا يستطيع أن ينسى أن الطاهرة سيدة نساء قريش قد ماتت وهى على الدين الذى جاء به زوجها محمد بن عبد الله . إنه لو أطاع مشاعره للوى عنق بعيره وانقلب إلى أهله لولا خشيته من الناس !

إنه ما توجه وجها قط كان أكره إليه من مسيره إلى بدر ، وما بان له فى وجه قط ما بان له قبل أن يخرج ، إنه استقسم بالأزلام فكان فى كل مرة يخرج ما يكره ، ولولا ابن الحنظلية ما مضى لوجهه .

وأطلق أبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد لخياله العنان فإذا به يذكر قيامه فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش وتعاهدت فيها أن لا تبيع لبنى هاشم ولا تبتاع منهم وأن لا تزوجهم وألا تتزوج فيهم ، إنه قال لأبى جهل فى المسجد : لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به . وما زال مع أصحابه حتى أخرج بنى هاشم من الشعب وحطم ما ضرب حولهم من حصار ، فإن كان القضاء على محمد بن عبد الله وصحبه هو الهدف ففيم كان قيامه فى نقض الصحيفة ؟!

وما كان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث بن عامر فإنه قال :

ـــ ليت قريشا تعزم على القعود وأن مالى فى العير تلف ومال بنى عبد مناف أيضا .

ـــ إنك سيد من ساداتها أفلا تردعها عن الخروج ؟

ـــ إنى أرى قريشا قد أزمعت على الخروج ولا أرى أحدا به طوق (قوة) تخلف إلا عن علة ، وأنا أكره خلافها وما أحب أن تعلم قريش ما أقول ، على أن ابن الحنظلية رجل مشئوم على قومه ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب .

وجاء ضمضم بن عمرو وكانت للحارث عنده أياد فقال :

ـــ أبا عامر إنى رأيت رؤيا كرهتها وإنى لكاليقظان على راحلتى ، وأراكم أن واديكم يسيل دما من أسفله إلى أعلاه .

فقال الحارث :

ـــ ما خرج أحد وجها من الوجوه أكره له من وجهى هذا .

ـــ والله إنى لأرى لك أن تجلس .

ـــ لو سمعت هذا منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة ، فاطو هذا الخبر عن قريش فإنها تتهم كل من عوقها عن المسير .

وكان الأخنس بن شريق مع بني زهرة أخوال محمد بن عبد الله ، إنهم خرجوا كارهين كما خرج العباس وبنو المطلب وبنو هاشم ، ولولا الملامة لقعدوا مع القاعدين ، ولولا عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام ما خرج منهم أحد لقتال ابن آمنة زهرة بنى زهرة ، ولو وجدوا سببا للنكوص لقفلوا راجعين .

وكان أمية بن خلف يرتجف من الخوف . إنه رأى رؤيا أفزعته فكان قلبه كقلب الطير كلما خفقت الريح خفق معها ، وجعل يرمق عقبة بن أبى معيط فى غيظ فهو الذى قال له لما أراد أن يقعد : يا أبا على استجمر ، فإنما أنت من النساء .

فأحنقه ذلك القول حتى قال : قبحك الله وقبح ما جئت به . ثم تجهز ليخرج مع الناس .

دفع شياطين قريش : أبو جهل بن هشام وعقبة بن أبى معيط والنضر ابن الحارث الناس للخروج ليشفوا مرض قلوبهم ، وكان كثير من الخارجين كارهين للقتال يتمنون أن تفلت العير من أيدى المسلمين حتى يجدوا عذرا للعودة بسلام ، فرؤيا عاتكة وإن سخروا منها كانت تزلزل الأرض تحت أقدامهم .

ونزلوا بمر الظهران فنحر لهم أبو جهل بن هشام عشر جزائر ، وراحت القيان يضربن بالدفوف وعكفوا على الشراب ثم نهضوا يستأنفون الرحلة ، حتى إذا بلغوا عسفان حطوا الرحال ونحر لهم سفيان بن أمية تسع جزائر ، ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديد بعد أن طافوا باللات عشر جزائر ، وساروا من قديد فصلوا بها ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم عتبة بن ربيعة عشر جزائر .

وجلس عند الثنية البيضاء عداس غلام عتبة وشيبة الذى قبل رأس رسول الله ﷺ يوم أن لقى من سفهاء الطائف أشد ألوان الاضطهاد ، وراح الناس يمرون ، إذ مر عليه عتبة وشيبة ابنا ربيعة فوثب إليهما فأخذ بأرجلهما فى غرزهما وهو يقول :

ـــ بأبى أنتما وأمى ! والله إنه لرسول الله ﷺ وما تساقان إلا إلى

مصارعكما !

وإن عينيه لتسيلان دمعا على خديه ، ومر به العاص بن منبه بن الحجاج فوقف عليه حين ولى عتبة وشيبة فقال :

ـ ما يبكيك ؟

ـ يبكيني سيدا أهل الوادى يخرجان إلى مصارعهما ويقاتلان رسول الله ﷺ .

ـ وإن محمدا لرسول الله !

فانتفض عداس انتفاضة واقشعر جلده ثم بكى وقال :

ـ إى والله ، إنه لرسول الله إلى الناس كافة .

وكان مع قريش رجل من بنى المطلب بن عبد مناف يقال له جهم ابن الصلت ، فوضع رأسه فأغفى ثم قام فزعا فقال لأصحابه :

ـ هل رأيتم الفارس الذى وقف على ؟

ـ لا .

فقال وهو مبهور الأنفاس :

ـ قد وقف على فارس فقال : قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأبو البخترى وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو . ثم رأيت ذلك الفارس ضرب فى لبة بعيره ثم أرسله فى العسكر فما من خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمه .

فقال له أصحابه :

ـ إنما لعب بك الشيطان .

وشاعت هذه الرؤيا فى المعسكر فإذا بالخوف ينزل بالقلوب . وإذا برؤيا عاتكة تستولى على النفوس فتقشعر الجلود ، وإذا برهبة من

المجهول تجثم على الأفئدة ، وبلغت الرؤيا أبا جهل ففجرت غضبه ورأى أن خير ما يفعله أن يسفه صاحبها ليعيد الطمأنينة إلى القلوب الواجفة وإلى النفوس التى ذهبت شعاعا فقال :

— قد جئتم بكذب بنى عبد المطلب مع كذب بنى هاشم . هذا نبى آخر من بنى عبد المطلب سيعلم غدا من المقتول نحن أو محمد وأصحابه .

٣

ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران حتى نزل قريبا من بدر ، فركب عليه السلام هو وأبو بكر رضى الله عنه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ :

ـ لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما .

فقال له رسول الله ﷺ :

ـ إذا أخبرتنا أخبرناك .

فقال الشيخ :

ـ ذاك بذاك ؟

ـ نعم .

ـ فإنه قد بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

وذكر المكان الذى نزل به رسول الله ﷺ وأصحابه وقال :

ـ وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى به صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

المكان الذى نزلت به قريش ، فلما فرغ من خبره قال :

ـ من أنتما ؟

فقال رسول الله ﷺ :

ـــ نحن من ماء .

ثم انصرفا عنه فقال الشيخ :

ـــ من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

ثم رجع رسول الله عليه السلام إلى أصحابه وهو يفكر فى قريش ، ورجع صوت عمر يتردد فى نفسه : « يا رسول الله إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت ـــ والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبته وأعدد لذلك عدته » . وراح صدى صوت سعد بن معاذ يسرى فى ذاكرته عليه السلام : « إنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا فنحن تبع لأمرك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك » .

فرفت ابتسامة رضا على شفتى رسول الله ﷺ ، فلما أمسى عليه السلام بعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى بدر يلتمسون الخبر فأصابوا إبلا لقريش تحمل الماء معها غلام لبنى الحجاج وغلام لبنى العاص ، فأتوا بهما ورسول الله ﷺ قائم يصلى فقالوا :

ـــ لمن أنتما ؟

وظنوا أنهما لأبى سفيان فقالا :

ـــ نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء .

فضربوهما فلما أوجعوهما ضربا قالا :

ـــ نحن لأبى سفيان .

فتركوهما ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته قال :

ـــ إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما . صدقا والله إنهما لقريش .

والتفت عليه السلام إلى الغلامين وقال :

ـــ أخبراني عن قريش .

ـــ هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى (جانب الوادى المرتفع) .

ـــ كم القوم ؟

ـــ هم والله كثير عددهم شديد بأسهم .

ـــ ما عدتهم ؟

ـــ لا ندرى .

وجهد النبى عليه السلام أن يخبراه كم فأبيا ، قال ﷺ :

ـــ كم تنحرون كل يوم ؟

ـــ يوما تسعا ويوما عشرا .

فقال ﷺ :

ـــ القوم ما بين التسعمائة والألف .

ثم قال للغلامين :

ـــ فمن فيهم من أشراف قريش ؟

ـــ عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البخترى بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحرث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدى بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال :

ـــ هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها .

وأفلت من الأسر عجير فكان أول من جاء قريشا بخبر النبي ﷺ ، فنادى :

ـــ يا آل غالب ! هذا ابن أبي كبشة وأصحابه وقد أخذوا سقاءكم .

فماج العسكر ، وكان حكيم بن حزام وصحبه في خباءلهم على جزور يشوون من لحمها ، فما هو إلا أن سمعوا الخبر فامتنعوا عن الطعام ، ولقى بعضهم بعضا ولقى حكيم عتبة فقال عتبة :

ـــ يا أبا خالد ما أعلم أحدا يسير أعجب من مسيرنا ، إن عيرنا قد نجت وإنا جئنا إلى قوم في بلادهم بغيا عليهم .

ـــ أراه لأمر حُمَّ ولا رأى لمن لا يطاع ! هذا شؤم ابن الحنظلية .

ـــ يا أبا خالد أتخاف أن تبيتنا القوم ؟

ـــ لأنت آمن من ذلك .

ـــ فما الرأى يا أبا خالد ؟

ـــ نتحارس حتى نصبح وترون رأيكم .

ـــ هذا الرأى .

فتحارسوا حتى أصبحوا ، فقال أبو جهل في سخرية :

ـــ هذا عن أمر عتبة كره قتال محمد وأصحابه ، إن هذا لهو العجب . أتظنون أن محمدا وأصحابه يعترضون لجمعكم ! والله لأنتحين ناحية بقومي فلا يحرسنا أحد .

فتنحى أبو جهل ناحية وإن السماء لتمطر عليه ، فقال عتبة :

— إن هذا لهو النكد .

ثم مضى رجلان من الصحابة إلى ماء بدر فنزلا قريبا منه عند تل هناك ، ثم أخذا شنا لهما (قربة) يستقيان فيه ، وإذا بشخص على الماء ، وإذا جاريتان تتخاصمان وتمسك إحداهما الأخرى على الماء تطلب منها ما عليها من دين ، فتقول المدينة لصاحبتها :

— إنما يأتي العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك الذى لك .

وإذا بالشخص الذى كان على الماء يقول :

— صدقت .

ثم خلص بينهما والرجلان من الصحابة يصغيان إلى ذلك الحوار الدائر بين الجاريتين وذلك الرجل الذى على الماء ، فجلسا على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا .

وتقدم أبو سفيان العير حذرا حتى ورد الماء فلقى ذلك الرجل فقال له :

— هل أحسست أحدا ؟

— ما رأيت أحدا أنكره ، إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا فى شن لهما ثم انطلقا .

فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعار بعيرهما ففته فإذا فيه النوى ، فقال :

— والله علائف يثرب .

فرجع إلى أصحابه سريعا فصوب عيره عن الطريق وترك بدرا بيسار وانطلق حتى أسرع ، فلما علم أنه قد أحرز عيره وفر من أيدى المسلمين المتربصين به أرسل إلى قريش ، وكانوا بالجحفة :

إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله ، فارجعوا . وغاظ ذلك القول أبا جهل وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث الذين كانوا يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأن يقتلوا رسوله ، وإن صادف ذلك القول هوى في نفوس بني زهرة وبنى المطلب وهاشم وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف الذى كان يرتجف فرقا من الرؤيا التى أرقت مضجعه . وخاف أبو جهل أن يصيخ القوم إلى قول أبي سفيان فقال :

— والله لا نرجع حتى نحضر بدرا فنقيم عليه ثلاثة أيام ، فلا بد أن ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان بالمعازف وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها .

وخرست الألسن إلا ما كان من بني زهرة فإن قائدهم الأخنس بن شريق قال :

— يا بنى زهرة ، قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله واجعلوا بى حميتها وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير منفعة لا ما يقول هذا .

أصر على العودة فلم يعد هناك ما يقاتل من أجله بعد أن نجح أبو سفيان فى أن يفلت بالقافلة من المسلمين الذين خرجوا لاقتناص أموال قريش ، فرجع بمن كانوا معه من بنى زهرة وكانوا نحو المائة .

وخلا عتبة بأخيه شيبة فقال له :

— هل لك فى الرجوع ؟ لعمرى إن كان محمد كاذبا إن فى العرب لمن يكفيناه ، ولئن كان صادقا إنا لأسعد العرب به للحمته .

— هو على ما تقول ، أفنرجع من بين أهل العسكر ؟

فجاء أبو جهل بن الحنظلية فقال :

— ما تريدان ؟

— الرجوع . ألا ترى إلى رؤيا عاتكة وإلى رؤيا جهم بن الصلت مع قول عداس لنا ؟

— تخذلان والله قومكما وتقطعان بهم .

— هلكت والله وأهلكت قومك !

وبلغ أبا سفيان إصرار أبي جهل على أن يقيم ببدر ثلاثة أيام ينحر الجذور ويطعم الطعام ويسقى الخمر ، فلم يستصوب رأيه وقال :

— هذا بغي والبغي منقصة وشؤم . والله لئن أصاب محمد النفير ذللنا إلى أن يدخل مكة علينا .

وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال :

— لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

وانطلق أبو جهل وكفار قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى قريبا من الماء ، ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون بعيدا من الماء بينهم وبين الماء رحلة . فظمىء المسلمون وأصابهم ضيق شديد وراح الشيطان يوسوس في صدورهم : « تزعمون أنكم أولياء الله وأنكم على الحق وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عطاش ، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة » .. فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا ، وكان الوادى لينا كثير التراب تسيخ فيه الأقدام فإذا بالمطر ينهمر من السماء ، فانطلق المسلمون تحت الشجر والجحف يستظلون تحتها من المطر وما كان فيهم قائم

إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة ويكثر فى سجوده أن يقول :

— يا حى . يا قيوم .

وأصاب المسلمين نعاس شديد أمنة من الله ، واستمر عليه السلام فى قيام وسجود وابتهال طوال الليل حتى أصبح ، فإذا المطر أطفأ الغبار ولبد الأرض وطهر المسلمين وشربوا منه وملئوا الأسقية وسقوا الركائب . وأصاب قريشا منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا منه ويصلوا إلى الماء فكان المطر نعمة للمؤمنين ونقمة على المشركين .

وطلع الفجر فنادى رسول الله ﷺ :

— الصلاة عباد الله .

فجاء الناس من تحت الشجر والجحف فصلى بهم رسول الله ﷺ وحرض على القتال فى خطبة خطبها ، ثم خرج عليه السلام يسابق قريشا إلى الماء فسبقهم عليه حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به ﷺ فقال له الحباب بن المنذر :

— يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله تعالى ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله عليه السلام فى بساطة :

— بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

لو كان وحيا للزم المنذر الصمت ، وما دام رسول الله عليه السلام قد قال إنه الرأى فإن للمنذر رأيا أفضل ، وإن الدين النصيحة ، ويا طالما نزل رسول الله ﷺ على رأى أصحابه إذا ما ظهرت فيه مصلحة أو خير ، فقال المنذر :

— يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى

أدنى ماء من القوم فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته بحيث لا ينزح فتنزله ، ثم تغور ما عداه من القلب ثم تبنى عليه حوضا فتملأه ماء فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ فى رضا :

— لقد أشرت بالرأى .

كان رأيا صائبا فقبله عليه السلام وإن كان معارضا لرأيه ، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى ﷺ حوضا على القليب الذى نزل به فملأه ماء ثم قذفوا فيه الآنية .

وخطب رسول الله ﷺ المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده ، به يذكرون وبه يتفاضلون ، وإنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر فى البأس مما يفرج الله به الهم وينجى به من الغم ، تدركون به النجاة فى الآخرة فيكم بنى الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شىء من أمركم يمقتكم عليه فإنه تعالى يقول : « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم » انظروا إلى الذى أمركم به من كتابه وأراكم من آياته وماأعزكم به بعد الذلة فاستمسكوا به يرض ربكم عنكم ، وابلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق وقوله صدق وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم إليه ألجأنا ظهورنا وبه اعتصمنا

وعليه توكلنا وإليه المصير ، ويغفر الله لي وللمسلمين » .

كان الليل قد انتصف وكان الجهد قد نال من المسلمين فأسلموا جنوبهم للرقاد ، حتى إذا ما تنفس الصبح جاء سعيد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ وقال :

— يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة في الجهاد ونية . ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير . يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير وقال :

— أو يقضي الله خيرا من ذلك يا سعد .

كان رسول الله عليه السلام على ثقة من نصر الله فقد وعده إحدى الطائفتين ، فإذا كانت العير قد أفلتت فلن تفلت قريش فقد رأى مصارع القوم .

وبني العريش لرسول الله ﷺ فوق تل مشرف على المعركة ، وقال المسلمون :

— من مع رسول الله ﷺ ؟

كانوا يخشون أن يهوى إليه عليه السلام أحد من المشركين ، فلم يدن منهم أحد إلا أبو بكر شاهرا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ قائلا :

ـــ لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه .

ووقف أبو بكر وسعد بن معاذ على باب العريش فى نفر من الأنصار ، فلما كان الصباح أقبلت قريش من الكثيب . ولما رأى رسول الله ﷺ قريشا وقد أقبلت بالدروع الساترة والجموع الوافرة والأسلحة الشاكية قال :

ـــ اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وعجبها وفخرها تحادك وتخالف أمرك وتكذب رسولك ، فنصرك الذى وعدتنى .

اللهم إنك أنزلت على الكتاب وأمرتنى بالثبات ووعدتنى إحدى الطائفتين وإنك لا تخلف الميعاد . اللهم احنهم الغداة .

واطمأنت قريش فأرسلوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا :

ـــ احرز لنا أصحاب محمد .

فخرج عمير لينظر عدة جيش المسلمين فاستجال بفرسه حول عسكر النبى ﷺ ، ثم رحل إليهم فقال :

ـــ ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، ولكن أمهلونى حتى أنظر للقوم كمينا أو مددا .

فذهب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا ثم رجع إليهم وقال :

ـــ ما رأيت شيئا ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا[١] تحمل المنايا ، ألا ترونهم خرسا لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعى لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهليهم ، والله ما نرى أن نقتل منهم رجلا حتى

---

(١) النوق تبرك على قبر صاحبها فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت ويقصد الإبل تحمل الموت .

يقتل رجل منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟

وصادف ذلك القول هوى في نفس حكيم بن حزام فهو يكره قتال زوج عمته الطاهرة سيدة نساء قريش ، وإن خرج كارها لينقذ نفسه من تقريع ابن الحنظلية أبي جهل بن هشام ، فمشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال :

— يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها إلى آخر الدهر ؟

— وما ذاك يا حكيم ؟

— ترجع بالناس .

فقام عتبة خطيبا على جمل أحمر ، فقال رسول الله عليه السلام :

— إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر .

وقال عتبة :

— يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن لا يزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله ورجلا من عشيرته ، ارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك أكفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

يا قوم اعصبوها اليوم برأسي (أى اجعلوا عارها متعلقا بى) وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم .

وولدت على الشفاه همسات :

— ودم ابن الحضرمى ؟

فخف حكيم بن حزام إلى عتبة وقال له :

ـــ تجير بين الناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمى وتحمل ما أصاب محمد من تلك العير .

فقال عتبة :

ـــ نعم قد فعلت ، ونعم ما قلت ونعم ما دعوت إليه .

وصار عتبة يجيل جمله فى صفوف قريش يقول :

ـــ يا قوم ! أطيعونى فإنكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمى وما أخذ من العير وقد تحملت ذلك . يا معشر قريش أنشدكم الله فى هذه الوجوه التى تضىء ضياء المصابيح أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التى كأنها عيون الحياة .

كان عتبة بن ربيعة الرجل الذى حنكته السنون يضيق بقريش أن تلقى أقواما ليس لهم ملجأ إلا سيوفهم فجعل يزين لهم الرجوع ، فلما رأى رسول الله عليه السلام راكب الجمل الأحمر يجيله فى صفوف قريش قال :

ـــ يا على ، ناد حمزة .

وكان حمزة أقربهم للمشركين ، فلما سمع نداء على اتجه إلى ابن أخيه رسول الله عليه السلام وفي وجهه إجلال وتوقير ، فقال له ﷺ :

ـــ من صاحب الجمل الأحمر ؟ وماذا يقول لهم ؟

ـــ هو عتبة بن ربيعة ينهى عن القتال .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام :

ـــ انطلق لابن الحنظلية فقل له هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك ؟

فجاءه حكيم فإذا هو فى جماعة من بين يديه ومن ورائه ، وإذا بعامر ابن الحضرمى واقف على رأسه. إنه أخو عمرو بن الحضرمى الذى قتله واقد بن عبد الله فى سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة ، وهو لا يرى إلا الحرب ليشفى غليل نفسه وهو يقول :

— قد فسخت عقدى من عبد شمس وعقدى إلى بنى مخزوم .

كان يهدد بفسخ ما بينه وبين عتبة بن ربيعة وأبى جهل بن هشام إذا لم تثأر قريش من قتلة أخيه ، فلم يعره حكيم التفاتا بل قال لأبى جهل :

— يقول لك عتبة بن ربيعة هل لك أن ترجع بالناس عن ابن عمك بمن معك ؟

فقال أبو جهل فى غضب :

— أما وجد رسولا غيرك ؟

— لا ، ولم أكن لأكون رسولا لغيره .

ثم قفل حكيم بن حزام بن خويلد راجعا إلى عتبة لئلا يفوته من الخير شىء ، وعتبة متكىء على إيماء بن رحضة الغفارى وقد أهدى إلى المشركين عشر جزائر ، فطالع أبو جهل الشر فى وجهه فقال لعتبة :

— انتفخ سَحْرك(١) ؟

قال له عتبة : ستعلم .

فسل أبو جهل سيفه فضرب به متن فرسه ، فقال إيماء بن رحضة :

— بئس الفأل هذا .

---

(١) السحر : الرئة فيقال للجبان « انتفخ سحره » لأن انتفاخه يرفع القلب إلى الحلقوم وهو مثل لشدة الخوف .

٤

دب الشقاق فى معسكر قريش قبل أن ينشب القتال ، فقد تبادل عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام وأبو جهل بن هشام أفحش السباب ، قال أبو جهل لعتبة :

ــ أنت تقول ارجع بالناس عن ابن عمك بمن معك ؟ والله لو غيرك يقول هذا لأعضضته (أى قلت له : اعضض على بظر أمك) ، أن قد ملأت رئتك خوفك رهبا . كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

والتفت إلى حكيم بن حزام وقال :

ــ ما بعتبة ما قال . ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه أبو حذيفة فقد تخوفكم عليه .

وأعجبت الفكرة قائلها فقام أبو جهل فى الناس فقال :

ــ يا معشر قريش إنما يشير عليكم عتبة بهذا لأن ابنه مع محمد ، ومحمد ابن عمه فهو كره أن تقتلوا ابنه وابن عمه .

فغضب عتبة وسب أبا جهل وقال :

ــ سيعلم أينا أفسد لقومه .

وحسب أبو جهل أنه يقلب القوم على رأى عتبة لما ذكر أن ابنه فى صفوف المسلمين ، وما دار بخلده أنه أيقظ الذكريات الرقيقة من مضاجعها وحرك أنبل ما فى الإنسان من مشاعر ، وشائج القربى

والصداقات ، فإذا بكل من فى عسكر قريش يذكر الأقارب والخلان فى عسكر رسول الله ﷺ ، فاحتلت رأس عبد الرحمن بن أبى بكر صورة أبيه الشيخ الجليل ، وإذا بالعباس بن عبد المطلب يفكر فى ابن أخيه نبى الله الذى خرج معه ليلا إلى العقبة ليستوثق له من الخزرج أن يمنعوه ما دام قد أبى إلا الانحياز إليهم . إنه كان يبغى سلامته فى تلك الليلة الفاصلة أفيحاربه اليوم ليسفك دمه ؟!

وتذكر أخاه حمزة وابن أخيه على بن أبى طالب وكل من فى صفوف المسلمين من بنى المطلب وبنى هاشم ، فإذا به يتمنى من كل قلبه ألا يكون قتال ، ولولا خشيته من نشوب حرب بين أبى جهل ورهطه وبين بنى هاشم لقفل راجعا كما رجع الأخنس ببنى زهرة .

وتذكر أمية بن خلف رفيق العمر عبد الرحمن بن عوف ، إنه صديقه العزيز الذى فرق بينهما الإسلام . ترى لو اختلط الجمعان والتقى هو والصديق الحبيب وجها لوجه أيستطيع أحدهما أن يهوى بسيفه ليقضى على حبيبه ؟!.

وتذكر رجال بنى تيم الأحبة من بنى تيم الذين يقفون مع رسول الله عند ماء بدر ، وفكر بنو مخزوم فى إخوانهم المسلمين من بنى مخزوم ، وإذا بكل قبيلة من قريش تشفق على أبنائها الذين أبوا إلا الإسلام ، فوقعت الهزيمة فى قلوبهم قبل أن يشهروا السيوف ويدور القتال .

كان العقل يقضى بأن يعود أبو جهل بمن معه بعد أن أفلت أبو سفيان بالعير ، ولكن الله قد بدد ذلك الصوت لأن الله أراد أمرا ليوطد لدينه فى الأرض ، فجعل أبا جهل يركب رأسه وينقاد لغروره ويصر

على خوض غمار القتال ويقول دون وعي منه : كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد !

والتفت المشركون إلى عسكر المسلمين فجعلهم الله فى أعينهم قليلا ليستدرجهم إلى مصارعهم ، وجعل الله المشركين فى أعين المسلمين قليلا ليقوى جأشهم على مقاتلتهم حتى إن عبد الله بن مسعود التفت إلى رجل بجواره وقال :

ـــ أتراهم سبعين ؟

ـــ أراهم مائة .

وأنزل الله تعالى :﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾.

وكان قباث بن أشيم فى صفوف المشركين ، فلما ألقى نظرة على عسكر المسلمين هجس فى قلبه : « لو خرجت نساء قريش بأُكَمتها لردت محمدا وأصحابه » .

وأراد رسول الله ﷺ أن يستنفد كل وسائل الصلح قبل أن يخوض القتال ، فما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فبعث إليهم عمر بن الخطاب سفيرهم فى الجاهلية ليقول لهم :

ـــ ارجعوا فإنه أن يلى هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه

مني .

فتلقفها حكيم بن حزام فقال :

ـــ قد عرض نصفا فاقبلوه ، فوالله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف .

وصوبت العيون إلى أبي جهل الطاغية الذى فرض إرادته على الجميع ، فإذا به يقول :

ـــ والله لا نرجع بعد أن مكننا الله منهم .

وخشى أبو جهل أن تنتصر رغبة السلام على القتال فبعث إلى عامر ابن الحضرمى أخى المقتول وقال :

ـــ هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ويخذل عن القتال وقد تحمل دية أخيك من ماله ويزعم أنك قبلتها . ألا تستحى أن تقبل الدية من مال عتبة وقد رأيت ثأرك بعينيك ؟ فقم فأذكر مقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف إسته وحثا عليه التراب ثم صرخ :

ـــ واعمراه ! واعمراه !

فثارت نفوس قريش بينا كان أخوه العلاء بن الحضرمى فى صفوف المسلمين ينظر وقد مليء أسى على ما يفعل أخوه من إثارة الأحقاد ، ورأى الأسود بن أبى سلمة المخزومى وكان رجلا سيىء الخلق شديد العداوة لرسول الله ﷺ أن يشعل نار الحرب قبل أن تلعب بالرءوس دعوة السلام فقال :

ـــ أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه .

وخرج الرجل الشرس ليقتحم عسكر المسلمين فخرج إليه حمزة

بن عبد المطلب يلعب بسيفه ، فلما التقيا ضربه حمزة فقطع قدمه بنصف ساقه ، فطارت وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشجب رجله دما . ولم يجزع لما أصابه بل غدا يحبو إلى الحوض حتى اقتحمه وهدمه برجله الصحيحة يريد أن تبر يمينه ، فأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض .

وقضى مقتل الأسود بن أبى سلمة المخزومى على آخر أمل فى السلام ، فراح عتبة بن ربيعة يلتمس خوذة ليدخلها في رأسه فما وجد فى الجيش بيضة تسع رأسه لعظمه فتعمم ببرد له . ولم يجعل تحت لحيته من العمامة شيئا .

ورأى حكيم بن حزام عتبة يعمد إلى القتال فقال له حكيم :

— مهلا مهلا يا أبا الوليد ! لا تنه عن شيء وتكون أوله .

كان عتبة يحاول أن يقنع ابن الحنظلية بالرجوع ، وأما وقد أخفق ونشب القتال فلا بد أن يكون أول من يخوض غماره ، فخرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى فصل من الصف ودعا للمبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة إخوة أشقاء هم : معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء ، فقال عتبة :

— من أنتم ؟

— رهط من الأنصار .

— ما لنا بكم من حاجة .

فأمرهم عليه السلام بالرجوع فرجعوا إلى مصافهم وقال لهم خيرا ، ونادى منادى عتبة وشيبة والوليد :

— يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فقال النبي ﷺ :

ـــ قوموا يا بنى هاشم فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاءوا ببطلانهم ليطفئوا نور الله .

قم يا عبيدة بن الحرث ، قم يا حمزة ، قم يا على .

فلما قاموا ودنوا قالوا لهم :

ـــ من أنتم ؟

كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح ، قال عبيدة :

ـــ عبيدة بن الحرث .

وقال حمزة :

ـــ أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله .

وقال على :

ـــ أنا على بن أبى طالب .

ـــ نعم . أكفاء كرام .

ومشى عبيدة وكان أسن الثلاثة إلى عتبة ، واتجه حمزة إلى شيبة ، وبارز على الوليد ، ومد الجيشان الأبصار وقد حبست الأنفاس ، فالجولة الأولى كانت بين أبناء العم سادات عبد شمس وصناديد بنى هاشم . وغدت الدعوات ترف على شفاه المهاجرين والأنصار بعد أن ابتهلت بها الأفئدة التى عمرت بأنوار اليقين ، فلو قتل عبيدة وحمزة وعلى فى أول لقاء لكانت فاجعة رسول الله ﷺ فيهم تعز عن العزاء .

وكان أبو بكر ينظر خافق القلب وقد لفته رهبة ، بينا كان عمر يختلس النظرات إلى وجه رسول الله ﷺ وهو يرصد القتال فيستشعر ثقل مرور اللحظات ويتمنى من كل وجدانه أن ينتصر رجال بني هاشم

ليسعد عليه السلام بنصر المسلمين ونجاة الأحباب .

وكان في عسكر المشركين رجال يرجون أن يظهر عبيدة وحمزة وعلى وإن كانوا على غير دينهم ، فوشائج القربى كانت أقوى مما يربط بينهم وبين السماء .

ولم يمهل حمزة أن قتل شيبة فأشرقت وجوه المسلمين بالأمل وبسرت وجوه الكافرين ، وسرعان ما قتل على الوليد فندت من شفاه المسلمين صيحات فرح بينا غامت وجوه المشركين بالأسى ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وقعت الضربة في ركبة عبيدة فأصاحت رجله وصار مخ ساقه يسيل ، ثم مال حمزة وعلى على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فجراه إلى أصحابه فأضجعوه إلى جانب موقفه فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه ، فوضع خده عليها وقال لرسول الله عليه السلام :

ــ ألست شهيدا يا رسول الله ؟

ــ أشهد أنك شهيد .

وعدل رسول الله ــ ﷺ ــ صفوف أصحابه بسهم في يده ، فمر بسواد بن غزية حليف بني النجار وهو خارج من الصف ، فطعنه في بطنه بالسهم الذى لا نصل له ولا ريش وقال :

ــ استو يا سواد .

ــ يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدني من نفسك .

كان سواد يطلب القصاص من رسول الله عليه السلام ، فلم يغضب عليه السلام بل كشف عن بطنه وقال :

— استقد .

فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال ﷺ :

— ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال سواد فى انفعال :

— حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك .

ولما عدل عليه السلام الصفوف قال لهم :

— إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل ، واستبقوا نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم .

إنه نصحهم بأن يدفعوا عنهم أعداءهم بالنبل ثم يستبقوا نبلهم ولا يرموه على بعد ، فالرمى على البعد يخطىء فيضيع النبل بلا فائدة ، ثم رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع نفر من الأنصار فى خوف على رسول الله — ﷺ — كرّة العدو ، والركائب مهيأة لرسول الله عليه السلام إن احتاج إليها ركبها .

ولما اصطف الناس للقتال رمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفين وقال :

— لا أفر إلا إن فر هذا الحجر .

وكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب فقتله عامر بن الحضرمى بسهم أرسله إليه ، وأصاب حارثة بن سراقة سهم غرب وهو يشرب من الحوض ، فإذا برسول الله — ﷺ — يتذكر ما كان بينه وبين حارثة . إنه عليه السلام قال لحارثة يوما وقد

استقبله :

— كيف أصبحت يا حارثة ؟

— أصبحت مؤمنا بالله حقا .

— انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة .

— يا رسول الله ، عزلت نفسي من الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، فكأني بعرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها .

— أبصرت فالزم ، أنت عبد بذر الله الإيمان في قلبه .

— ادع الله لي بالشهادة .

فدعا له رسول الله — ﷺ — بذلك .

كان رسول الله عليه السلام وأبو بكر الصديق في العريش ، وطفق — ﷺ — يناشد ربه ويقول :

— اللهم لا تودع مني ولا تخذلني ، أنشدك ما وعدتني ، اللهم أنشدك عهدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد .

وما زال يدعو ربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه ، وشق على أبي بكر تعب النبي — ﷺ — في إلحاحه بالدعاء فأخذ أبو بكر رداءه عليه السلام وألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه وقال :

— كفاك تناشد ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

كان الصديق في مقام الرجاء والنبي — ﷺ — في مقام الخوف ، فإذا به يخفق خفقة وهو في العريش ثم ينتبه ويقول :

— أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس

يقوده على ثناياه النقع .

ثم خرج رسول الله — ﷺ — إلى الناس فحرضهم وقال :

— والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن :

— بخ بخ ! أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء !

ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وانطلق ليحارب حتى يقتل فى سبيل الله .

ورأى المسلمون القتال قد نشب فعجوا بالدعاء إلى الله تعالى ، فأنزل الله تعالى عند ذلك : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدُّكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ .(١)

---

(١) الأنفال ٩

٥

راح المؤمنون والمشركون يقتتلون ، ونظر سراقة بن مالك إلى المسلمين فإذا به يرى الموت يطل من أسيافهم وهم يتلمظون تلمظ الحيات ، فانخلع قلبه وتذكر يوم أن خرج فى أثر الرسول عليه السلام وهو فى هجرته إلى المدينة فرارا من قريش وما كان من سقوطه عن ظهر جواده كلما دنا من نبى الله ، فوقع فى نفسه أنه يقاتل فى سبيل الضلال فنكص على عقبيه ، فقال رجل لسراقة :

ـــ يا سراقة ، أتزعم أنك لنا جار !

ـــ إنى برىء منكم ، إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله والله شديد العقاب .

فتشبث به الحرث بن هشام أخو أبى جهل وقال له :

ـــ والله لا أرى إلا خفافيش يثرب .

وإذا بضربة تصوب إلى صدره فيسقط وينفلت سراقة وبعض من معه خارجين من المعركة .

وخشى أبو جهل أن يفت ذلك فى عضد المشركين فقال :

ـــ يا معشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقة فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهمنكم قتل عقبة وشيبة والوليد فإنهم قد عجلوا ، واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه بالحبال .

لا تقتلوهم ، خذوهم باليد .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه :

ـ إنكم قد عرفتم أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا إكراها لا حاجة لهم بقتالنا . فمن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله . ومن لقي أبا البختري فلا يقتله .

كان أبو البختري ممن نهض في تمزيق الصحيفة الظالمة ورفع الحصار الذي ضربته قريش على بني المطلب وبني هاشم لمناصرتهم رسول الله عليه السلام ، فلماذا ذكر العباس دون غيره من بني هاشم ؟ أكان العباس قد أسلم وكتم إسلامه ليكون عينا له على قريش ، أكان قلم مخابراته عليه السلام !؟

فقال أبو حذيفة :

ـ أيقتل آباؤنا وأبناؤنا وإخواننا وعشيرتنا ويترك العباس ؟ لئن لقيته لألجمنة السيف .

رأى أبو حذيفة مقتل أبيه عتبة بن ربيعة وعمه شيبة وأخيه الوليد فهزته المأساة على الرغم من صدق إيمانه فقال مقالته : فلما بلغت رسول الله عليه السلام قال لعمر :

ـ يا أبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟

كان ذلك أول يوم كناه فيه رسول الله ـ ﷺ ـ بأبي حفص . فقال عمر في تأثر وانفعال :

ـ يا رسول الله ، دعني أضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق .

ولم يدعه رسول الله ـ ﷺ ـ يضرب عنق أبي حذيفة ، فقد بلغ الرسول أربه بإعلان أنه لن يرضى عن قاتل العباس ، ولو كان العباس كافرا ما اهتم به رسول الله ﷺ الذي بعث بالحق والعدل كل هذا

الاهتمام ، ولكنه كان عليه السلام يخشى أن يقتل مظلوما وأن يفقد قلم مخابراته في مكة .

ودنا عوف بن الحرث بن عفراء من رسول الله عليه السلام وقال :

ـــ يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟

كان عوف يريد أن يرضى ربه غاية الرضا ، فقال له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ غمسه يده في العدو حاسرا .

فنزع درعا كانت عليه فقذفها . ثم أخذ سيفه ليقاتل حتى يقتل .

وقاتل معبد بن وهب زوج هريرة بنت زمعة أخت أم المؤمنين سودة بنت زمعة بسيفين ، ثم أخذ رسول الله ـــ عليه صلوات الله وسلامه ـــ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ثم قال :

ـــ شاهت الوجوه ! اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم .

وكان على ميمنة رسول الله ـــ ﷺ ـــ أبو بكر ، وكان على ميسرته علي بن أبي طالب ، وكان على ميمنة قريش الحارث بن عامر بن نوفل ، وعلى ميسرتهم زمعة بن الأسود . وعلى خيل المشركين الحارث بن هاشم .

وتصاف المسلمون وتزاحفوا وهم لا يسلون السيوف ولكنهم قد انتضوا القسي ، فقد أمرهم رسول الله عليه السلام ألا يسلوا السيوف حتى يغشوهم ، وغدا المسلمون يهتفون بشعارهم : يا منصور أمت .. يا منصور أمت . فإذا بالأرض تزلزل تحت أقدام أعدائهم .

ولقي الزبير بن العوام عبيدة بن سعيد بن العاص على فرس عليه

لأمة[1] كاملة لا يرى منه إلا عيناه ، وهو يقول :

ــ أنا أبو ذات الكرش .

فقد كانت له صبية صغيرة ، وكان لها بطين وكانت فى يد الزبير عنزة (شبيه العكاز ، أطول من العصا وأقصر من الرمح لها زج فى أسفلها) ، فطعن بها فى عينه فوقع وراح الزبير يطأه برجله على خده حتى أخرج العنزة متعقفة[2] وأخرج حدقته .

وأقبل عاصم بن أبى عوف السهمى لما جال الناس واختلطوا وكأنه ذئب وهو يقول :

ــ يا معشر قريش عليكم بالقاطع مفرق الجماعة الآتى بما لا يعرف محمد . لا نجوت إن نجا !

فاعترضه أبو دجانة فاختلفا ضربتين ، فضربه أبو دجانة فقتله ووقف على سلبه يسلبه ، فمر به عمر بن الخطاب فقال :

ــ دع سلبه حتى يجهض العدو وأنا أشهد لك به .

وأقبل معبد بن وهب أحد بنى عامر بن لؤى فضرب أبا دجانة ضربة برك منها أبو دجانة كما يبرك الجمل ، ثم انتهض وأقبل على معبد فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئا حتى يقع معبد فى حفرة أمامه لا يراها ، ونزل أبو دجانة عليه فذبحه ذبحا وأخذ سلبه .

وراح عقبة بن أبى معيط يتقدم ليس له هدف إلا أن يصل إلى رسول الله عليه السلام ، فقد بدت العداوة من فمه لما قال يوم أن هاجر رسول الله ﷺ :

---

(١) الدرع .   (٢) عليها الدم .

ما راكب الناقة القصواء هاجِرَنا
عما قليل تراني راكب الفرس
أعِلُّ رمحي فيكم ثم أنهله
والسيف يأخذ منكم كل ملتبس

إنه قال ذلك وقد بلغ رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحارب ليحقق ما قاله في شعره ، فغاية أمانيه أن يسدد رمحه إلى قلب رسول الله عليه السلام .

ورأت بنو مخزوم مقتل من قتل فقالت :

ـ أبو الحكم لا يخلص إليه ، فإن ابني ربيعة عجلا وبطرا ولم تحام عنهما عشيرتهما .

فاجتمعت بنو مخزوم فأحدقوا به فجعلوه في مثل الحرجة ، وأجمعوا أن يلبسوا لأمة أبي جهل رجلا منهم فألبسوها عبد الله بن المنذر ، فصمد له علي فقتله وهو يراه أبا جهل ، ومضى عنه وهو يقول :

ـ أنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة فكر عليه حمزة وقد لبس ريشة معلمة وهو يراه أبا جهل ، فضربه فقتله وهو يقول :

ـ خذها وأنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها حرملة بن عمرو فصمد له علي عليه السلام فقتله ، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم فأبى أن يلبسها .

وراح عبد الرحمن بن عوف يخوض في صفوف الكافرين فإذا بغلامين ليس منهما واحد إلا وقد ربطت حمائل سيفه في عنقه

لصغره ، فالتفت إليه أحدهما فقال :

— يا عم ، أيهم أبو جهل ؟

— وما تصنع به يابن أخي ؟

— بلغني أنه يسب رسول الله — ﷺ — وآله فحلفت لئن رأيته لأقتلنه أو لأموتن دونه .

فأشار عبد الرحمن بن عوف إليه وقال :

— من أنتما ؟

— ابنا عفراء .

فخرج يعدو إليه كأنه سبع ولحقه أخوه ، وغدوا يضطربون بالسيوف فإذا بأبي جهل يسقط وهو يتخبط في دمه .

وتقدم عمر بن الخطاب فإذا به أمام خاله العاص بن هاشم بن المغيرة ، فرفع عمر سيفه وهوى به على خاله فإذا به كأمس الدابر ، ثم تركه وتقدم يخوض المعركة لإعلاء كلمة الله .

وراح نوفل بن خويلد الأسدى ابن العدوية يصيح بصوت له زجل ، رافعا عقيرته :

— يا معشر قريش ، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفعة .

وقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم اكفني نوفل بن العدوية .

ورأى نوفل قتل أصحابه ، فأقبل يصيح وهو مرعوب :

— ما حاجتكم إلى دمائنا ؟ أما ترون من تقتلون ؟ أما لكم في اللبن من حاجة !

كان يرمز إلى الفداء ، إلى النوق الحلوب ، فأسره جبار بن صخر

فهو يسوقه أمامه ، فجعل نوفل يقول لجبار ورأى عليا عليه السلام مقبلا نحوه :

— يا أخا الأنصار ، من هذا واللات والعزى ؟ إني لأرى رجلا ، إنه ليريدني !

— هذا علي بن أبي طالب .

— تالله ما رأيت كاليوم رجلا أسرع في قومه !

فصمد له علي عليه السلام فضربه فنشب سيف علي في ترسه ساعة ، ثم نزعه فضرب به ساقيه ودرعه مشتمرة فقطعهما ، ثم أجهز عليه فقتله .

وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث عن القتال فالتقى هو وعلي عليه السلام ، وقتله علي .

وخرج علي في أثر المشركين ، فإذا برجل منهم على كثيب رمل يقاتل سعد بن خيثمة ، فقتل المشرك سعد بن خيثمة والمشرك مقنع في الحديد وكان فارسا ، فاقتحم عن فرسه فنادى :

— هلم يا بن أبي طالب إلى البراز .

فعطف علي عليه السلام عليه ، فانحط الرجل مقبلا وكان علي رجلا قصيرا ، فانحط راجعا لكي ينزل إليه ، كره أن يعلوه فقال :

— يا بن أبي طالب فررت !

— قريبا مفر ابن الشتراء .

فلما استقرت قدما علي وثبت ، أقبل ابن الشتراء فلما دنا من علي ضربه ، فالتقى علي الضربة بالدرقة فوقع سيف ابن الشتراء ، فضربه علي عليه السلام على عاتقه وهو دارع فارتعش ، ولقد قط سيف علي

درعه فظن على أن سيفه سيقتله ، فإذا بريق سيف من ورائه فطأطأ على رأسه ويقع السيف فيطن قِحف رأس ابن الشتراء بالبيضة ، وإذ بصوت يقول :

— خذها وأنا ابن عبد المطلب .

والتفت على من ورائه فإذا هو حمزة عمه ، والمقتول طعيمة بن عدى .

فالتفت على إلى طعيمة وقال :

— والله لا تخاصمنا فى الله بعد اليوم أبدا .

وكان فتية من قريش خمسة قد أسلموا فاحتبسهم آباؤهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة . والحارث بن زمعة بن الأسود ، وعلى بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه بن الحجاج . فلما قدموا بدرا ورأوا قلة أصحاب النبى ﷺ وآله قالوا :

— غر هؤلاء دينهم .

وراح عمير بن أبى وقاص الفتى الذى كان أخوه سعد بن أبى وقاص يربط له حمائل سيفه من صغر سنه يمشى بين صفوف المشركين وهو يلعب بسيفه . وإذا به أمام عمرو بن عبد ود فارس قريش الذى لا يشق له غبار ، فاختلفا ضربتين وإذا بعمرو يضرب عمير ضربة يسقط بعدها شهيدا فى سبيل الله .

وطفق عكرمة بن أبى جهل يصول ويجول فقتل رافع بن المعلى من بنى زريق وأنسة مولى النبى ﷺ ، وهجم على بن أبى طالب على عامر ابن‌عبد الله حليف لعبد شمس من أنمار فلم يتركه إلا جثة هامدة على أرض المعركة التى انتثرت فيها جثث أعداء الله ورسوله .

وراح حمزة بن عبد المطلب يبارز عقيل بن الأسود بن المطلب ، وفي مثل لمح البصر نزل على عقيل سيف علي وعلي يقول :

ـــ خذها وأنا ابن عبد المطلب .

وقصد الجراح ابنه أبا عبيدة بن الجراح ليقتله فولى عنه أبو عبيدة ، بيد أن أباه أصر على طلبه فرجع أبو عبيدة إلى أبيه وقتله ، فأنزل الله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون[١] » .

ولقي المجذر بن زياد البلوي حليف الأنصار أبا البختري فقال له :

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ وآله نهانا عن قتلك .

وكان مع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة يقال له جنادة بن مليحة فقال أبو البختري :

ـــ وزميلي ؟

ـــ والله ما نحن بتاركي زميلك . وما نهانا رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلا عنك وحدك .

ـــ إذا والله لأموتن أنا وهو جميعا ، لا تتحدث عني نساء أهل مكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة .

فنازله المجذّر وارتجز أبو البختري فقال :

---

(١) المجادلة .

لـن يسلـم ابـن حـرة زميلـه حتـى يمـوت أو يـرى سبيلـه

ثم اقتتلا فقتله المجدر .

كان أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ـــ ﷺ ـــ في جيش قريش . إنه خرج كارها القتال ، فلما دفع أبو جهل بقريش دفعا إلى خوض غمار المعركة امتشق أبو العاص سيفه وهو يرجو ألا يلقى محمدا عليه السلام ، فيا طالما زاره في بيت خالته خديجة قبل أن يتزوج زينب وألقى إليه سمعه وأعجب بمنطقه وحسن خلقه . وما أكثر ما اجتمع به بعد زواج ابنته وكان له خير أسوة لولا ذلك الدين الذى جاء به ابن عبد الله .

وراح على بن أبى طالب يفعل بقريش الأفاعيل ، فما من رهط من بيوت شرف قريش إلا وقد قتل منه رئيسا . إنه ترك حنظلة بن أبى سفيان مجدلا بسيفه فأوغر عليه صدور الأمويين ، وقتل الوليد بن عتبة بن ربيعة فقلب عليه بنى عبد شمس ، واشترك مع عمه في القضاء على طعيمة بن عدى ، وترك الحارث بن زمعة بن الأسود كأمس الدابر فأصبح هدف أحقاد بنى أسد ، وزاد في حقدهم أنه ثنى بنوفل بن خويلد بن أسد ، وأضاف إلى الأحقاد أحقاد بنى تيم لما صرع عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بضربة من حسامه .

وقطع عليه السلام رأس أبى قيس بن الوليد أخى خالد بن الوليد فاكتسب عداوة بنى المغيرة وبنى مخزوم ، وأضاف إليه مسعود بن أبى أمية بن المغيرة وحاجز بن السائب المخزومي ، فكانت قلوب بنى المغيرة وبنى مخزوم كلها عليه .

وقتل من بنى سهم خيرة رجالهم : جدل منبه بن الحجاج ونبيه بن

الحجاج والعاص بن منبه بن الحجاج وأبا العاص بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، فكان عليه السلام فتى بدر أطاح برعوس أبناء الشرف في قريش في سبيل الله ، فبذر الغل في الصدور وراح يقاسي مرارة الأحقاد على مر الأيام وإن جاء الإسلام ، حتى آخر الأنفاس !

وكان حمزة أسد الله ورسوله يمشي إلى الكفار وقد أطل من سيفه المنون ، فما إن يرى صناديدهم ريشة النعام التى فى صدره حتى تنخلع قلوبهم ، فقد قتل سيدهم عتبة بن ربيعة وفارسهم عقيل بن الأسود بن المطلب وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . إن صوته يجلجل بعد كل ضربة : « خذها وأنا ابن عبد المطلب » ، فتنخلع لها القلوب .

وارتفعت أصوات المسلمين من كل جانب .

— يا منصور أمت .

فإذا من بقى على قيد الحياة من المشركين لا يدرون أين المفر .

وراح حكيم بن حزام يسعى ويقول :

— قاتل الله ابن الحنظلية ! يزعم أن النهار قد ذهب ، والله إن النهار لكما هو .

كان حكيم متلهفا على أن يأتى الليل فيقصر عنه طلب القوم . وفيما هو يهرول وقد ولى الأدبار قد أدرك عبيد الله وعبد الرحمن ابنى العوام على جمل لهما ، فقال عبد الرحمن لأخيه :

— انزل فاحمل أبا خالد .

وكان عبيد الله رجلا أعرج لا قوة له على المشى ، فقال عبيد الله .

— إنه لأرجلة (قوة) بى كما ترى .

وقال عبد الرحمن :

ــ والله أن لا بد منه . ألا نحمل رجلا إن متنا كفانا ما خلفنا من عيالنا وإن عشنا حملنا كلنا ؟

فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج فحملاه فكانوا يتعاقبون الجمل .

وانهزم قباث بن أشيم الكنانى فيمن انهزم وغدا ينظر فإذا المشركون في كل وجه ، فجعل يقول فى نفسه :

ــ ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه النساء !

وصاحبه رجل فبينا هو يسير معه إذ لحقهما من خلفهما ، فقال لصاحبه :

ــ أبك نهوض ؟

ــ لا والله ما بى .

ولحق بصاحبه المسلمون فقتلوه ، وراح يشتد ويجرى فى الدروب ولم يسلك المحاج خوفا من الطلب .

وأسر من بنى هاشم العباس بن عبد المطلب أسره أبو اليسر كعب بن عمرو ، وعقيل بن أبى طالب أسره عبيد بن أوس الظفرى ، ونوفل بن الحارث ، ومن بني عبد شمس عقبة بن أبى معيط ، ومن بنى أمية عمرو بن أبى سفيان أسره على بن أبى طالب .

وأسر خراش بن الصمة أبا العاص بن الربيع . وراح المسلمون يضعون أيديهم على من غرهم أبو جهل وزين لهم القتال ليطفئوا نور الله .

وألقى الذين ولوا الأدبار دروعهم ليتخففوا منها فراح المسلمون يجمعونها ، فبينا عبد الرحمن بن عوف يجمع أدرعا فإذا أمية بن خلف

صديقه في الجاهلية يساق كأنه جمل ومعه ابنه علي ، فوقعت عينا أمية عليه فنادى :

ـ يا عبد الإله .

فأجابه عبد الرحمن فقال له أمية :

ـ أما لكم حاجة فى اللين ؟ نحن خير لك من أدرعك هذه ؟

ـ امضيا .

فجعل يسوقهما أمامه ، وقد رأى أمية أنه قد أمن بعض الأمن فقال له :

ـ رأيت رجلا فيكم اليوم معلما فى صدره بريشة نعام ، من هو ؟

ـ حمزة بن عبد المطلب .

ـ ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل !

ثم قال :

ـ فمن رجل دحداح قصير معلم بعصابة حمراء ؟

ـ ذاك رجل من الأنصار يقال له سماك بن خرشة .

فبينا هو مع عبد الرحمن يسوقه أمامه ومعه ابنه إذ بصر به بلال وهو يعجن عجينا له ، فترك العجين وجعل يفتل يديه منه فتلا ذريعا . قد تذكر في لحظة تلك الأيام التى كان أمية يعذبه فيها فى رمضاء مكة فنادى :

ـ يا معشر الأنصار ، أمية بن خلف رأس الكفر ! لا نجوت إن نجا .

فأقبل الأنصار حتى طرحوا أمية على ظهره واضطجع عبد الرحمن بن عوف على صديقه يحميه منهم ، فأقبل الخباب بن المنذر فأدخل

سيفه فاقتطع أرنبة أنفه ، فلما فقد أمية أنفه قال لعبد الرحمن :

— خل بيني وبينهم .

وأقبل خبيب بن يساف فضربه فوق العاتق فقطع عاتقه حتى بلغ مؤتزره وعليه الدرع وهو يقول :

— خذها وأنا ابن يساف !

وأخذ سلاحه ودرعه ، وتعرض الحباب بن المنذر لعلى بن أمية من خرج من مكة مسلما ثم نافق فقطع رجله فصاح صيحة عظيمة ، ولقيه عمار فقتله ، فنظر عبد الرحمن إلى أمية وإلى بلال ثم قال :

— رحم الله بلالا ! أذهب أدرعى وفجعنى فى أسيرى .

وأسر المقداد النضر بن الحارث عدو رسول الله عليه السلام اللدود ، وأسر سهيل بن عمرو، فربط الشريفان بالحبال وساقهما المسلمون أمامهم كما تساق الإبل ، وجىء بالأسرى فكره ذلك سعد ابن معاذ فقال له رسول الله ﷺ :

— كأنه شق عليك أن يؤسروا !

— نعم يا رسول الله ، كانت أول وقعة التقينا فيها بالمشركين فأحببت أن يذلهم الله وأن يثخن فيهم القتل .

٦

ووضعت الحرب أوزارها فإذا الناس ثلاث فرق : فرقة قامت عند خيمة رسول الله ﷺ ، وفرقة أغارت على النهب تنتهب ، وفرقة طلبت العدو فأسروا وغنموا . وأقبل على رسول الله حمزة وكان معلما بريشة نعام ، وعلى بن أبى طالب وكان معلما بصوفة بيضاء وقد أشرقت الوجوه بالفرح ، فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ من له علم بنوفل بن خويلد ؟

قال على عليه السلام :

ـ أنا قتلته .

فكبر رسول الله ـ ﷺ ـ وقال :

ـ الحمد لله الذى أجاب دعوتى فيه .

وأمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يلتمس أبو جهل ، فانطلق عبد الله بن مسعود بين القتلى يبحث عنه فوجده فى آخر رمق ، فوضع رجله على عنقه فقال :

ـ الحمد لله الذى أخزاك .

فقال أبو جهل وهو يلتقط أنفاسه فى جهد :

ـ إنما أخزى الله العبد ابن أم عبد ! لقد ارتقيت يا رويعى الغنم مرتقى صعبا ! لمن الدبرة ؟

ـ لله ولرسوله .

فأقلع بيضته عن قفاه وقال ابن مسعود :

— إنى قاتلك .

— لست بأول عبد قتل سيده ، أما إن أشد ما لقيته اليوم لقتلك إياى ، ألا يكون ولّى قتلى رجل من الأحلاف أو من المطيبين !

فضربه عبد الله ضربة وقع رأسه بين يديه ، ثم قفل عائدا إلى رسول الله عليه السلام وعنده عقيل بن أبى طالب أسيرا ، فقال وهو يتهلل بالفرح :

— قتلت أبا جهل .

فقال له عقيل :

— كذبت ما قتلته .

فقال ابن مسعود :

— بل أنت الكذاب الآثم يا عدو الله ، قد والله قتلته .

وقال ابن مسعود إنه قطع رقبته ، فبعث عليه السلام رجالا يلتمسونه فى القتلى وقال :

— إن خفى عليكم انظروا إلى أثر جرح فى ركبته ، فإنى ازدحمت يوما أنا وهو على مائدة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان وكنت أسن منه يسيرا ، فدفعته فوقع على ركبته فجحش على إحديهما جحشا لم يزل أثره به .

فغدوا يطلبونه فوجدوا ذلك الأثر فعادوا إلى رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— أبشر يا نبى الله بقتل عدو الله أبى جهل .

فقال — ﷺ — وقد ترقرقت فى عينيه الدموع :

ــ الحمد لله الذى أعز الإسلام . الحمد لله الذى أعز الإسلام . الحمد لله الذى أعز الإسلام .

وخر ساجدا شكرا لله .

وراح علي يقول :

ــ اختلفت أنا والوليد بن عتبة ضربتين فأخطأتني ضربته ، وأضربه فاتقاني بيده اليسرى فأبانها السيف فكأني أنظر إلى وميض خاتم فى شماله ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته فرأيت به الردع (الزعفران) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .

وجاء المجذر إلى رسول الله ــ ﷺ ــ يعتذر عن قتل أبي البخترى بعد أن نهى عليه السلام عن قتله لأنه لبس السلاح يوم أن نقض صحيفة قريش الجائرة وقال : « لا يعرض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح ، فجعل يقص على النبى عليه السلام ما كان بينه وبين أبي البخترى ثم قال :

ــ والذى بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا القتال ، فقاتلته فقتلته .

وبان الأسى في وجه رسول الله ــ ﷺ ــ فقد كان من صفاته الوفاء لكل من قدم إليه حسنة وإن كان على غير دينه .

وغدا رسول الله ــ ﷺ ــ يتفقد القتلى فوقف على مصرع ابنى عفراء فقال :

ــ يرحم الله ابنى عفراء فإنهما قد شركا في قتل فرعون هذه الأمة .

ورأى عليه السلام الحارث بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وعلى بن أمية بن خلف ، وأبا

قيس بن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن منبه بن الحجاج وقد هبرتهم أسياف المسلمين وتركتهم كأمس الدابر . إنهم كانوا أسلموا ورسول الله — ﷺ — بمكة ، فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة حبسهم آباؤهم وعشائرهم بمكة وفتنوهم فافتتنوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فلما رأوا المسلمين قلة قالوا هازئين :

— غر هؤلاء دينهم .

فأنزل الله فيهم : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا »(١) .

وأمر رسول الله — ﷺ — بالقتلى أن يطرحوا فى القليب (البئر) فطرحوا فيه ، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه فملأها ، فذهبوا ليحركوه فتفرق لحمه فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة .

وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، فنظر — ﷺ — فى وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال :

— يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟

فقال أبو حذيفة فى صوت خافت فيه رنة أسى :

---

(١) النساء ٩٧ — ٩٩

— لا والله يا رسول الله ماشككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكني كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك .

فدعا له رسول الله — ﷺ — بخير وقال له خيرا .

وجاء رجل من المدينة يسعى ، إنه يحمل أنباء ستدخل السرور على قلوب المسلمين ، أنباء انتصار الروم على فارس وقد كانت آيات الله البينات تدوى بين جنبيه دويا فتجعله يود لو أن راحلته تطير ليزف البشرى إلى رسول الله — ﷺ — وكانت كل خوالجه ترتل : « ألم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون[١] » .

وكان الرجل يحسب أن فرح المؤمنين بنصر الله إنما سيكون لغلبة الروم على الفرس وحسب . فما كان يدرى أن المؤمنين قد انتصروا نصرهم الكبير على الكافرين في بدر وأن الفرح قد ملأ أفئدتهم وأن نبأ انتصار الروم على فارس تحقيقا لوعد الله إنما سيزيد في استبشارهم ويثبت إيمانهم .

إن كسرى الثاني قد اضطهد أشراف قومه وسامهم سوء العذاب وساعد على تدهور الدين حتى فسدت الأخلاق والعقيدة وعبادات

---

(١) الروم ١ — ٦

المجوس والموابذة ، فكثر ارتداد الناس عن دينهم واشتد حرصهم على الدنيا ، واشتغل رجال الدين بالتجارة وتعلقوا بحكام الدنيا تعلقا شديدا فكانوا أسوأ مثل للشعب ، فنخر سوس الفساد في النفوس .

واضطهد كسرى النصارى جميعا نساطرة ويعاقبة ، وكثرت أوامره التي تقضي بقتل قواده ورجال دولته ، فطعن قلب فارس بخنجر مسموم قبل أن يسدد إليها هرقل الضربة القاضية . كانت فارس قد انتحرت قبل أن يدهمها الغزو الروماني .

وبلغ الرجل معسكر المؤمنين في بدر فنزل عن راحلته وانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال :

— انتصرت الروم على الفرس .

فإذا بأصوات المؤمنين تتردد في بدر بالتكبير :

— الله أكبر .. الله أكبر .

وامتلأت النفوس بالنشوة واتجهت الأعين إلى أبي بكر الصديق ، وإذا بالذكريات تعود إلى أيام مكة أيام أن نزلت آيات الروم بعد أن انتصرت الفرس عليها ، فقد سخر الكافرون من وعد الله فنشبت مشادة بين الصديق وأمية بن خلف حول آيات الله البينات انتهت بأن تراهن الرجلان على إبل يسوقها أبو بكر إلى أمية إذا ما انقضت ست سنين دون أن يظهر الروم على الفرس ، وها هو ذا وعد الله قد تحقق ، ولكن أين أمية بن خلف ليسوق إلى أبي بكر الرهان ؟ إنه غارق في خزيه تحت التراب والحجارة . وأين أبو جهل والمكذبون ؟ إنهم في القليب نهاية كل الطغاة المتعجرفين ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وبقى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة أيام ببدر ، وفى الليل أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة القليب وجعل يقول :

— يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام ، بئس عشيرة النبى كنتم . كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس . هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا .

فقال عمر :

— يا رسول الله كيف تكلم أجسادا قد جيَّفوا ؟

— ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وسار المؤمنون يحملون الغنائم ويسوقون الأسرى ، وراح حسان ابن ثابت شاعر الرسول يقول :

عرفت ديار زينب بالكثيب
كخط الوحى(١) فى الورق القشيب
تداولها الرياح وكل جَون(٢)
من الوسمىِّ(٣) منهمر سكوب
فأمسى رسمها خلقا وأمست
يبابا بعد ساكنها الحبيب

---

(١) الوحى : الكتابة . (٢) الجون : الأبيض والأسود

(٣) الوسمى : مطر الخريف .

فدع عنك التذكر كل يوم
ورد حرارة الصدر الكئيب
وخبر بالذى لا عيب فيه
بصدق غير أخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة بدر
لنا فى المشركين من النصيب
غداة كأن جمعهم حراء[١]
بدت أركانه جنح الغروب
فلاقيناهم منا بجمع
كأسد الغاب مُرْدان وشيب
أمام محمد قد وازروه
على الأعداء فى لفح الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات
وكل مخرب خاظى[٢] الكعوب[٣]
بنو الأوس الغطارف وازرتها
بنو النجار فى الدين الصليب[٤]

---

(١) حراء : جبل بمكة .
(٢) الخاظى : المكتنز .
(٣) الكعوب : عقد القناة .
(٤) الصليب : الشديد .

فغادرنـــا أبـــا جهـــل صريعـــا

وعتبـــة قـــد تركنـــا بالجبـــوب

وشيبـــة قـــد تركنـــا فـــى رجـــال

ذوى حسب إذا نسبـــــوا حسيب

يناديهـــــم رسول الله لمـــــا

قذفناهـــم كبـــاكب[1] فـــى القلـــيب

ألـــم تجـــدوا كلامـــى كـــان حقـــا

وأمـــر الله يأخـــذ بالقلـــوب ؟

فمـــا نطقـــوا ولـــو نطقـــوا لقالـــوا :

صدقت وكـــنت ذا رأى مصيب

---

(١) كباكب : جماعات .

٧

نزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأثيل فعرض عليه الأسرى ، فالتق بصره ببصر عمه العباس فإذا بمشاعر رقيقة تكتنفه وقد التمعت عيناه سرورا أن أطاعه المسلمون فى العباس فلم يقتلوه . وقد اكتفى بأسره أبو اليسر كعب بن عمرو وكان موقفه عليه السلام من العباس يثير كثيرا من التساؤل ، فلماذا أعلن على الملأ الأمان لعمه ؟ ألوشائج القربى التى بينهما ؟ إذا كان ذلك هو السبب فلماذا لم يعلن الأمان لعقيل بن أبى طالب وسادات بنى هاشم وبني المطلب ؟ أولو كان أبو لهب فى صفوف قريش أكان محمد عليه السلام يؤمن حياته ؟ إن أبا لهب قد بعث عوضا عنه العاص بن هشام بن المغيرة وكان قد قامره فى عشر من الإبل فغلبه ثم فى عشر فقمره ثم فى عشر فقمره إلى أن خلعه من ماله فلم يبق له شيء ، ثم قامره على أن من غلب يصبح عبدا لصاحبه ، وقد غلب العاص وصار لأبى لهب عبدا . فلما خرج المشركون إلى بدر كان من لم يخرج أخرج بديلا . وكان أبو لهب عليلا فأخرجه وقعد على أنه إن عاد إليه أعتقه ، فقتله على بن أبى طالب . لو كان أبو لهب أسيرا لأمر عليه السلام بضرب عنقه ، فلماذا أحيا العباس ؟ أكان العباس مسلما وقد كتم إسلامه ليكون عينا لرسول الله عليه السلام فى مكة ؟ ليكون قلم مخابراته ؟! أكتم عليه السلام سر عمه وتحمل فى صبر ما رفرف على بعض الشفاه من إنكار لذلك التحيز الظاهر فى سبيل

نصرة قضية الإسلام ؟ إن سر العباس بن عبد المطلب كان فى صدرين لا ثالث لهما : صدر رسول الله عليه السلام ، وصدر عمه الذى خرج معه ليقف إلى جواره في بيعة العقبة وليأخذ على الأنصار المواثيق لحماية رسول الله — ﷺ .

ورأى عقيل بن أبى طالب أحب أبناء عمه إلى قلب الشيخ فى الأسر ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وقد أسره جبار بن صخر ، فتجاوزهما ثم نظر إلى النضر بن الحارث وقد أسره المقداد فإذا فى مثل لمح البصر يتذكر رسول الله عليه السلام كل ما كان يفعل النضر من هزء به وبآيات الله . فيا طالما قال : ﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾[1] . ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾[2] ، وارتجف النضر واقشعر جلده من نظرته عليه السلام فقال لرجل إلى جنبه :

— محمد والله قاتلى ! لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت !

فقال الذى إلى جانبه :

— والله ما هذا منك إلا رعب .

فقال النضر لمصعب بن عمير :

— يا مصعب أنت أقرب من ها هنا بى رحما ، كلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابى ، هو والله قاتلى إن لم تفعل .

قال مصعب :

— إنك كنت تقول فى كتاب الله كذا وكذا وتقول فى نبيه

---

(١) الأنفال ٣١ (٢) الأنفال ٣٢

كذا وكذا .

— يا مصعب فليجعلني كأحد أصحابي ، إن قتلوا قتلت وإن منّ عليهم منّ علي .

— إنك كنت تعذب أصحابه .

— أما والله لو أسرتك قريش ما قتلت أبدا وأنا حي .

قال مصعب :

— والله إني لأراك صادقا ولكن لست مثلك ، قطع الإسلام العهود .

وقال عليه السلام :

— اضربوا عنقه .

فقال المقداد :

— أسيري يا رسول الله !

— اللهم أغن المقداد من فضلك ، قم يا علي فاضرب عنقه .

فقام علي فضرب عنقه ، وإذا بخوف قاتل يدثر الأسرى جميعا ، وكان سهيل بن عمرو يرتجف من الرأس إلى المقدم فقد رماه سعد بن أبي وقاص بسهم فقطع نساءه ، فاتبع أثر الدم حتى وجده قد أخذه مالك ابن الدخشم وهو ممسك بناصيته فقال سعد :

— أسيري رميته .

فقال مالك :

— أسيري أخذته .

فأتيا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فأخذه منهما جميعا ، ورآه عمر فقال لرسول الله ﷺ :

ـ انزع ثنيتيه يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، ولعله يقوم مقاما لا تكرهه .

كان ذلك قبل أن يسوق المسلمون الأسرى . أما وقد أمر رسول الله عليه السلام بقتل النضر بن الحارث صبرا ، فلم يعد سهيل بن عمرو يأمن على حياته فراح يتحين الفرص للهرب .

ونظر عليه السلام إلى عقبة بن أبى معيط نظرة ارتجفت لها فرائصه . إن عقبة قد داس على رقبة رسول الله وهو ساجد فى الحرم حتى كادت عيناه الشريفتان أن تخرجا من محاجرهما ، وقد قال له عليه السلام وقتئذ : لأقتلنك إن التقيت بك خارج مكة . وها هو ذا عليه السلام ينظر إليه وهما فى الأثيل نظرة كاد من هولها أن ينهار ، ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ قد شغل عنه بالنظر إلى أبى العاص بن الربيع زوج ابنته الحبيبة زينب .

مر رسول الله ـ ﷺ ـ بالأثيل قبل الغروب فنزل به ، وبات به وبأصحابه جراح ليست بالكثيرة ، فلما انتهى من إلقاء نظرة على الأسرى قال :

ـ من رجل يحفظنا الليلة ؟

فسكت القوم ، فقام رجل فقال :

ـ من أنت ؟

ـ ذكوان بن عبد قيس .

ـ اجلس .

ثم سكت ساعة وأعاد القول ، فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— ابن عبد قيس .

— اجلس .

ثم مكث ساعة وأعاد القول فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— أبو سبع .

فسكت ثم مكث ساعة وقال :

— قوموا ثلاثتكم .

فقام ذكوان بن عبد قيس وحده ، فقال له عليه السلام :

— وأين صاحباك ؟

— يا رسول الله أنا الذى كنت أجيبك الليلة .

— فحفظك الله !

فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة وأمسى القوم والأسارى محبوسون فى الوثاق ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له أصحابه :

— مالك لا تنام يا رسول الله ؟

— سمعت أنين العباس(١) من وثاقه .

---

(١) روى عكرمة مولى ابن عباس عن أبى رافع قال : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد فشا فينا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل زوجه . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم إسلامه .

فقاموا إليه فأطلقوه ، فنام رسول الله — ﷺ — حتى كان آخر الليل فارتحل ذكوان . وأقبل رسول الله — ﷺ — بالأسرى حتى إذا كان بعرق الظبية أمر عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح أن يضرب عنق عقبة ابن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس . فجعل عقبة يقول :

— يا ويلى علام أقتل يا معشر قريش من بين من ها هنا ؟

فقال رسول الله ﷺ :

— لعداوتك لله ولرسوله .

— يا محمد منك أفضل ، فاجعلنى كرجل من قومى إن قتلتهم قتلتنى وإن مننت عليهم مننت على . وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم ، يا محمد من للصبية ؟

— النار ، قدمه يا عاصم فاضرب عنقه .

فقدمه عاصم فضرب عنقه ، فقال النبى — ﷺ — :

— بئس الرجل كنت ، والله ما علمت كافرا بالله وبرسوله وبكتابه مؤذيا لنبيه ، فأحمد الله الذى قتلك وأقر عينى منك .

وكان منادى رسول الله — ﷺ — قد نادى :

— من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له .

وكانت الإبل التى أصابوها يوم بدر مائة وخمسين بعيرا ، وكان مع قريش أدم كثير حملوه للتجارة وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفراس ، وكان جمل أبى جهل فيما غنموه فأخذه النبى — ﷺ — .

ولم يرض بعض الناس عن ذلك القرار ، فتكلم سعد بن معاذ وكان ممن أقام على خيمة رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ما منعنا أن نطلب العدو زهادة فى الأجر ولا جبن

عن العدو ، ولكنا خفنا أن نعرى موضعك فيميل عليك خيل من خيل المشركين ورجال من رجالهم وقد أقام عند خيمتك وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، والناس كثير ومتى تعط هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء ، والقتلى والأسرى كثير والغنيمة قليلة .

واختلف الناس في الغنائم فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن ترد فى المقسم فلم يبق منها شيء إلا رد ، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء فقال بعضهم :

ـ ما لنا لا نرى القطيفة ! ما نرى رسول الله ـ ﷺ ـ إلا أخذها .

فأنزل الله تعالى : « وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال :

ـ يا رسول الله إن فلانا غل قطيفة .

فسأله رسول الله ـ ﷺ ـ فقال :

ـ لم أفعل .

ـ يا رسول الله احفروا ها هنا .

فحفروا فاستخرجت القطيفة فقال قائل :

ـ يا رسول الله استغفر لفلان مرتين أو مرارا .

فقال عليه السلام :

ـ دعونا من أبى حرّ .

وكان أبو أسيد الساعدى قد غنم سيف أبى عائذ المخزومى لما أمر رسول الله عليه السلام المسلمين أن يردوا ما فى أيديهم من المغنم ،

وكان اسم السيف المرزبان وكان له قيمة وقدر ، وأبو أسيد الساعدى يطمع أن يرد إليه ، ولكن الأرقم بن أبى الأرقم كلم رسول الله — ﷺ — فيه ، وكان رسول الله — ﷺ — لا يمنع شيئا يسأله فأعطاه السيف ، فأحس أبو أسيد ضيقا لضياع السيف منه .

واستعمل ﷺ شقران غلامه على الأسرى ، فأخذوا من كل أسير ما لو كان حرا ما أصابه فى المقسم .

واختلف المسلمون فى النَّفل وساءت فيه أخلاقهم ، فأنزل الله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين(١) » . « واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير(٢) » .

فكانت القسمة على ثلاثمائة وسبعة عشر سهما ، لأن الرجال كانت ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وكان معهم فرسان لهما أربعة أسهم ، وقسم أيضا فوق ذلك لثمانية أسهم لم يحضروا ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ، ثلاثة من المهاجرين وهم : عثمان بن عفان خلفه عليه السلام على ابنته رقية ، وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن نفيل بعثهما رسول الله — ﷺ — يتحسسان خبر العدو ، وخمسة من الأنصار هم : أبو لبابة بن عبد المنذر خلفه على المدينة ، وعاصم بن عدى خلفه على قباء وأهل العالية ، والحارث بن حاطب أمره بأمر فى

---

(١) الأنفال ١ (٢) الأنفال ٤١

بنى عمرو بن عوف ، وخوات بن جبير كسر بالروحاء ، والحارث بن الصمة مثله ، وضرب عليه السلام بسهم فى الغنيمة لشهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلا .

وظن أهل الشجاعة أنه — ﷺ — يخصهم بالغنيمة دون غيرهم من أهل الضعف ، فلما أمر عليه السلام أن تقسم بينهم على سواء قال سعد ابن أبى وقاص :

— يا رسول الله تعطى فارس القوم الذى يحميهم مثل ما تعطى الضعيف ؟

فقال — صلى الله عليه وآله وسلم :

— ثكلتك أمك ! وهل تنصرون إلا بضعفائكم .

٨

كانت رقية تجود بأنفاسها وزوجها عثمان يرنو إليها من خلال دموعه والحزن يعتصر قلبه ، وكانت الشمس تملأ أرجاء الغرفة إلا أن عثمان كان يحس كأن نورا ينطفيء في حياته ، فما أوجع لفؤاده أن يخطر على ذهنه أن صلته الوثيقة برسول الله ـ ﷺ ـ توشك أن تنقطع .

إنه الآن ختن محمد عليه السلام وسيظل زوج ابنته ما دامت رقية على قيد الحياة ، ولكن الموت يكاد يختطف الروح الطاهرة ويدع عثمان وحده حليف الأحزان ، ففجيعته في رقية فجيعتان فقد الزوجة الوفية الحبيبة وانقطاع نسبه برسول الله عليه السلام .

أتموت رقية قبل أن يعود أبوها من غزوته ودون أن يلقى عليها نظرة وداع ؟ أتموت دون أن يكون آخر من تراه وجه رسول الله عليه السلام ؟ إنها تحبه بكل وجدانها وهو عليه السلام يحبها بكل خلجة من خلجات نفسه ، أفتمضى أجمل بناته دون أن يلتقيا ودون أن ينفث عليه السلام فى صدر ابنته التى تودع الدنيا الاطمئنان !

إن عثمان يتلوى من الألم ويكاد أن ينهار لولا أنه يتجلد لكيلا يزيد عذاب رقية الحبيبة التى تعانى سكرات الموت ، ولو طاوع مشاعره لندت منه صرخات ممزوجة يذوب الفؤاد ، فبين الضلوع نار تتلظى وفى الحلق جفاف وفى القلب سهام .

ورفرفت على شفاهها الذابلة آخر ما يرفرف على شفاه المؤمنين ، راحت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فأحست أم كلثوم أن قلبها قد بلغ حنجرتها وأن دموعها التى جرت على خديها إنما هى نزيف كبدها ، وإن روحها ستفر منها قبل أن تشهد نهاية رقية .

واضطربت فاطمة الزهراء من الرأس إلى المقدم وزاغت نظراتها وقد اعتصر الحزن قلبها ، وإذا بفاجعتها فى أمها الطاهرة وسيدة نساء قريش تتجدد ، فهى تحس أن خديجة قد عادت لتموت مرة أخرى مع رقية الحبيبة ، فاحتلت صفحة رأسها صورة خديجة وهى مسجاة فى فراشها جثة هامدة ، وملأت عينيها من أختها الممدودة فى فراشها وقد علتها صفرة الموت وحشرجت روحها فى صدرها . وجعلت فاطمة تتلفت دون أن تدرى إلى من تفزع من تلك الآلام الهائلة التى تلهب وجدانها بسياطها ، إنها فوق طاقتها وتعجز عن احتمالها ، فغدت تنادى فى همس :

ــ أبتاه ! أبتاه !

ومن غير رسول الله عليه السلام يمسح آلام بناته ؟ ولكن رسول الله ــ ﷺ ــ قد خرج فى سبيل الله ليعلى كلمة الله ، وقد ترك ابنته مريضة فما أقعده مرضها عن الخروج ، فما بعث إلا ليعلم الناس أن للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين .

ولم يرقأ لأم أيمن دمع وراحت ذكريات أيام مكة تنثال على رأسها ، فرأت يوم ولدت رقية كأنما كان ذلك بالأمس القريب . أحقا قد مرت الأيام سريعا وحان وقت الفراق ؟ إنها لا تريد أن تصدق أنه

الموت وإن كانت الأنفاس قد اضطربت وشخص البصر والتفت الساق بالساق .

أتكون رقية أول من تلحق بأم المؤمنين من بناتها ؟ واستشعرت أم أيمن كأن روح خديجة ترفرف فى المكان فسرت فى جسمها قشعريرة ولفها خوف وشرقت بدموعها ثم أجهشت بالبكاء . فإذا بالعيون التى فاضت بالعبرات تلتفت إليها كأنما تسألها أن تكف عن العويل حتى لا تؤذى الحبيبة التى كانت تلفظ آخر الأنفاس .

وجاء أسامة بن زيد إلى أمه عابس الوجه فقد فطن إلى ما يقاسيه الذين التفوا حول فراش رقية من أحزان ، وإذا بدموعه تنهمر فيخفى وجهه فى صدر أمه ليكتم فى جوفه ما يتردد فيه من عويل وصراخ .

وذاقت رقية الموت فارتمى عثمان عليها يبكى وينتحب ، وصرخت أم كلثوم صرخة مفزوعة مزقت السكون الذى ران طويلا على المكان ، وأطلقت فاطمة صيحات انخلع لها قلوب الجيران فهرعوا يسألون فقيل لهم :

ــ ماتت رقية بنت رسول الله .

وجاء رجال الأنصار وقد لاح فى وجوههم الأسى ، وزاد فى حزنهم أن رقية تموت دون أن يراها رسول الله عليه السلام . وخفت النسوة إلى حيث كانت الجثة الطاهرة ليشاركن أم كلثوم وفاطمة الزهراء فى المصاب .

وجهزت جثة رقية ثم حملت على الأعناق ، وقد سار خلف النعش عثمان بن عفان وهو واله حزين ومن حوله الرجال محزونين وأسامة بن زيد يجهش بالبكاء . حتى إذا بلغت الجنازة البقيع ، قبرت رقية بنت

رسول الله عليه السلام وقد انهمرت الدموع من عيون الرجال .

وسووا على رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — التراب ، وفيما هم عائدون إذا بزيد بن حارثة قد أقبل على ناقة رسول الله — ﷺ — وانطلق إلى المسجد ، فهرعوا إليه يلقون إليه أسماعهم .

كان رسول الله — ﷺ — قدّم من الأثيل زيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة يبشران الناس بالمدينة فجاءا يوم الأحد فى الضحى ، وفارق عبد الله زيدا بالعقيق فجعل عبد الله ينادى عوالى المدينة .

— يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وزمعة بن الأسود وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير .

فقام إليه عاصم بن عدى فقال له :

— أحقا ما تقول يا بن رواحة ؟

— إى والله وغدا يقدم رسول الله إن شاء الله ومعه الأسرى مقرنين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارا دارا والصبيان يشتدون معه ويقولون :

— قتل أبو جهل الفاسق .

حتى انتهوا إلى دور بنى أمية بن زيد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — القصواء يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البخترى وزمعة بن

الأسود وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير .

فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ويقولون :

ـــ ما جاء زيد إلا فلاً .

حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا ، فقال رجل من المنافقين لأسامة ابن زيد :

ـــ قتل صاحبكم ومن معه .

وقال رجل من المنافقين لأبى لبانة بن عبد المنذر :

ـــ قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا ، وقد قتل عِلية أصحابكِم وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا يدرى ما يقول من الرعب وقد جاء فلاً .

فقال أبو لبانة :

ـــ كذّب الله قولك .

وقالت يهود :

ـــ ما جاء زيد إلا فلا .

فجاء أسامة بن زيد حتى خلا بأبيه فقال :

ـــ يا أبت ! أحق ما تقول ؟

ـــ إى والله حقا يابنى .

فقويت نفس أسامة فرجع إلى ذلك المنافق فقال :

ـــ أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ؟ لنقدمنك إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا قدم فليضربن عنقك .

ـــ إنما هو شىء سمعت الناس يقولونه .

وسار رسول الله ــ ﷺ ــ والذين معه ليدخلوا المدينة ومعهم الأسرى ، حتى إذا ما بلغوا تنوكة بين السقيا وملل وسهيل بن عمرو مع مالك بن الدخشم الذى أسره ، قال سهيل لمالك :

ــ خلِّ سبيلى للغائط .

فقام معه ، فقال سهيل :

ــ إنى أحتشم فاستأخر عنى .

فاستأخر عنه فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يده من القران ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح فى الناس فخرجوا فى طلبه ، وخرج النبى ــ ﷺ ــ فى طلبه بنفسه وقال :

ــ من وجده فليقتله .

وراحوا ينقبون عنه على ظهور الجياد والإبل ، وانطلق ﷺ فى أثره فوجده أخفى نفسه بين شجرات فتقدم إليه ، فإذا بسهيل لا يتحرك من مكانه بل ظل ثابتا وهو مأخوذ ، فقبض عليه ﷺ ثم عاد به فأمر به فربطت يداه إلى عنقه ثم قرنه إلى راحلته .

وكان أبو العاص بن الربيع مستأسرا مع رهط من الأنصار فكانوا إذا تعشوا أو تغدوا آثروه بالخبز وأكلوا التمر ، حتى إن الرجل لتقع فى يده الكسرة فيدفعها إليه . وإذا ما ساروا كانوا يحملونه ويمشون ، فجعل أبو العاص يفكر فى ذلك الدين الذى جاء به ختنه رسول الله ﷺ ، فهو

يعرف الأوس والخزرج قبل الإسلام فما كانوا على مثل ذلك الخلق المتين ، فما لقنهم محمد عليه السلام كان معجزة أتت ثمارها فى بضعة شهور ، واستمر أبو العاص ينقاد إلى عقله السليم المبرأ عن الأهواء فإذا بفؤاده يهوى إلى الدين القيم الذى يدعو إلى مكارم الأخلاق .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله — ﷺ — بمكة يزعم أنه رسول الله ، فرأى سادات قريش يمشون إليه ويقولون :

— فارق صاحبتك بنت محمد ونحن نزوجك أى امرأة شئت من قريش .

— لاها الله ! إذن لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى امرأة من قريش .

إنه أبى أن يطلق ابنه محمد وإن كان على غير دينه ، وهو سعيد حتى وهو أسير بن يدى ختنه أنه لم يطلقها . فهو يحب زينب ويجل أباها ، وإن رسول الله — ﷺ — إذا ذكره يثنى عليه خيرا ، وإن حقيقة ما يدعو إليه محمد رسول الله بدأت تتجلى لبصيرته . ولولا خشيته من أن يقال إنه ما أسلم إلا خوفا من الأسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن لا إله إلا الله .

وتذكر ما كان من أمر عتبة بن أبى لهب فى ذلك الوقت ، فقد مشوا إليه فقالوا :

— طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة شئت من قريش .

— إن أنتم زوجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص أو ابنة سعيد بن العاص فارقتها ، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص ففارق رقية أجمل النساء

خَلقا وخُلقا ، ولم يقف في عداوته عند هذا بل تطوع ليبصق في وجه ختنه ، وكانت ثمرة ذلك البغى أن أكل السبع ذلك السفيه ابن حمالة الحطب .

وقفز به خياله إلى مكة إلى حيث غادر زينب ليحارب أباها مع سفهاء قومه ، إنه وهو في غمرة حماسه لم يفكر في مشاعر زوجه ، أما الآن وهو أسير منطلق مع الأسرى إلى مدينة الرسول فهو يحس حقيقة عواطفها ، إنها ممزقة بينه وبين أبيها قد استولى عليها خوف قاتل أن تفجع في أحدهما ، فهو على ثقة من أنها تحبه ، ولا شك في عظم حبها لأبيها ، وعما قليل سيفد الناعي إلى مكة لينعي ساداتها وستتلقف زوجه الأنباء في قلق ولهفة ، لا تدرى أتفرح أم تحزن !

لك الله يا زينب ، ليت أحدا يحمل إليك أن أبا العاص بن الربيع زوجك الحبيب بين يدى أب رفيق ورسول كريم ليسكن قلق نفسك وينقشع خوف قلبك وينزل بك أمن وسكينة إلى حين .

ولقى الناس رسول الله — ﷺ — بالروحاء يهنئونه بفتح الله عليه ، فلقيه وجوه الخزرج ، فقال سلمة بن سلامة بن وقش :

— ما الذى تهنئونه ؟ فوالله ما قتلنا إلا عجائز صلعا !

فتبسم النبى — صلى الله عليه وآله — فقال :

— يا بن أخى أولئك الملأ ، لو رأيتهم لهبتهم ولو أمروك لأطعتهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتها ! وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم !

فقال سلمة :

— أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، إنك يا سول الله لم تزل

عني معرضا فقد كنا بالروحاء في بدأتنا .

فقال — ﷺ :

— أما ما قلت للأعرابي : وقعت على ناقتك فهي حبلى منك ففحشت وقلت ما لا علم لك به . وأما ما قلت في القوم فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهدها .

فاعتذر سلمة فقبل رسول الله — ﷺ — معذرته ، ليصبح سلمة من علية أصحابه .

ولقي رسول الله عليه السلام أسيد بن حُضير فقال :

— يا رسول الله الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك . والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن بك أنك تلقى عدوا ولكني ظننت أنها العير ، ولو ظننت أنه عدو لما تخلفت .

— صدقت .

وراح رسول الله — ﷺ — يتقدم على ناقته القصواء وقد ربطت يدا سهيل بن عمرو إلى عنقه وقرن إلى الناقة ، وكان سهيل أعلم مشقوق الشفة العليا فكانت أنيابه بادية فلذلك قالوا : ذو الأنياب . ورأى أسامة بن زيد رسول الله عليه السلام فهرع إليه وهو فرحان قد نسي ما أحس من ألم لموت رقية ، ولقيه رسول الله وهو متهلل الأسارير فأجلسه بين يديه .

ونظر الناس إلى سُهيل بن عمرو وقالوا :

— يا رسول الله أبو يزيد !

— نعم ، هذا الذي كان يطعم الخبز بمكة .

وجعل أسامة ينظر إلى سهيل ثم قال :

— يا رسول الله هذا الذى كان يطعم الثريد بمكة .

— هذا أبو يزيد الذى يطعم الطعام ، ولكنه سعى فى إطفاء نور الله فأمكن الله منه .

وراح مالك بن الدخشم الذى أسره يقول :

أسرت سُهيلا فلا أبتغى
به غيره من جميع الأمم

وخندف تعلم أن الفتى
سهيلا فتاها إذا تظَّلم

ضربت بذى الشفر(١) حتى انثنى
وأكرهت نفسى على ذى العلم

وبين الوجوه المستبشرة بنصر الله تقدم وجه باسر لا يستطيع أن يخفى آلام نفسه وإن جاهد ليطوى أحزانه بين ضلوعه حتى يهنىء رسول الله ﷺ بنصر الله . إنه عثمان بن عفان صاحب الفجيعتين : فجيعته فى رقية الزوجة الوفية وفجيعته فى نسبه من رسول الله عليه السلام ، إنه يحاول أن يبعد عينيه المحمرتين من أثر البكاء عن عينى رسول الله عليه السلام ، ولكن محمدا عليه السلام قرأ فى وجهه الجميل قصة المأساة . فطن فى لمحة أن رقية الحبيبة قد مضت ولن تذوق الموت بعدها أبدا ، فخفق قلبه حزنا وفاضت رقته بالدموع تطفر من عينيه ، وإذا به يفتح ذراعيه ليضم عثمان إلى صدره ، وإذا بقلبى الرجلين ينزان حزنا وأسى على الغالية .

---

(١) ذو الشفر : كناية عن السيف

ونظر أبو بكر وعمر وعلى والرجال العائدون من المعركة مزهوين بالنصر إلى نبيهم الكريم وقد تحركت إنسانيته لوفاة ابنته فبللت العبرات أرواحهم قبل أن تترقرق في مآقيهم ، وزاد في أساهم إشفاقهم على رسول الله عليه السلام فقد كانوا يعلمون مقدار إرهاف حسه ورقة مشاعره .

وسار عليه السلام مطأطىء الرأس إلى الدار يحس ألم الثكل ، فلما دخل على أم كلثوم وفاطمة الزهراء ألفى نسوة من الأنصار عندهما ، فما إن وقعت عينا فاطمة على أبيها حتى انخرطت فى البكاء فمشى إليها والحزن يعتصره وغدا يمسح دموعها بطرف ثوبه ، وأجهشت أم كلثوم بالعويل ، ولم يستطع عثمان أن يكبح جماح عواطفه فـراح يسح الدموع فى صمت ويحاول أن ينأى بوجهه عن رسول الله عليـه السلام .

وأحس النسوة بالدموع تجرى إلى العيون فانسحبن من الغرفة وأجهشن بالبكاء ، فلما صك العويل أذنى عمر بن الخطاب أشفق على حبيبه رسول الله عليه السلام فراح يزجرهن فى عنف ، فخرج الأب الثاكل إليه وقال :

ـــ مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان .

وخرج رسول الله عليه السلام إلى البقيع ومن حوله أصحابه الذين شاركوه فرحة النصر ليشاركوه أحزان الفراق ، ووقف حليف الأحزان على قبر ابنته مطرق الرأس يدعو لها بالغفران .

إنه يحس بالألم من أعماق وجوده وهو يستشعر فى نفس الوقت

بقدرة الله . إنه مهما انتصر فهذه هي نهاية الحياة الدنيا فلا ينبغى أن يدير أى نصر دنيوى رأس رسول الله عليه السلام . إنه بعث رحمة للعالمين فكتب عليه أن يذوق ألم الأحزان ليتدفق قلبه بالحنان على البشر ، فما من نصر أحرزه إلا قد قرن بالألم ، فطريق الرسالة ليس بالطريق الذى تحفه الورود والرياحين ، وإنما هو طريق شائك وعر تكتنفه المشاق والآلام والأحزان . وما أكثر الآلام والأحزان فى حياة رسول الله — ﷺ .

١٠

كانت سودة بنت زمعة زوج النبى ــ ﷺ ــ عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ اللذين كانا أول من أصابا أبا جهل ، وكانت أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة زاد الركب هناك ، وكانت زوجة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ابن عمة الرسول عليه السلام : برة بنت عبد المطلب . وبينا النساء فى المناحة جاء من قال :

ــ هؤلاء الأسرى قد أتى بهم .

فخرجت سودة بنت زمعة إلى بيتها ورسول الله عليه السلام فيه ، وإذا سهيل بن عمرو مجموعة يداه إلى عنقه فى ناحية البيت ، فما ملكت نفسها حين رأته مجموعة يداه إلى عنقه أن قالت :

ــ أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ! ألا متم كراما ؟

فما راعها إلا قول رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ من البيت :

ــ يا سودة ، أعلى الله وعلى رسوله ؟

ــ يا نبى الله والذى بعثك بالحق إنى ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت .

ودخل خالد بن هشام بن المغيرة وأمية بن أبى حذيفة منزل أم سلمة وأم سلمة فى المناحة ، فلما قيل : « أتى بالأسرى » خرجت فدخلت عليهم فلم تكلمهم فهم أسرى رسول الله عليه السلام ، وجعلوا

يتحدثون إليها وهى صامتة ، ثم رأت أن تخرج تستشير رسول الله — ﷺ — فيهم ، فانطلقت حتى وجدته فى بيت عائشة فقالت :

— يا رسول الله إن بنى عمى طلبوا أن يدخل بهم على فأضيفهم وأدهن رءوسهم وألم من شعثهم ، ولم أحب أن أفعل شيئا من ذلك حتى أستأمرك .

— لست أكره شيئا من ذلك ، فافعلى من هذا ما بدا لك .

وجاء زوجها أبو سلمة المخزومى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يستغفر الله من كلامه فى أبى جهل ، فإنه كان عند النبى — ﷺ — ساعة أن جاءه عبد الله بن مسعود يقول إنه قتل أبا جهل ، فقد وجد أبو سلمة فى نفسه فهو مخزومى وأبو جهل سيد بنى مخزوم وأقبل على ابن مسعود يقول :

— أنت قتلته ؟

— نعم ، الله قتله !

— أنت وُلّيت قتله ؟

— نعم .

— لو شاء لجعلك فى كمه !

— فقد والله قتلته وجردته .

— فما علامته ؟

— شامة سوداء ببطن فخذه اليمنى .

فعرف أبو سلمة النعت فقال :

— أجردته ولم يجرد قرشى غيره !

— إنه والله لم يكن فى قريش ولا فى حلفائها أحد أعدى لله ولا

لرسوله منه ، وما أعتذر من شيء صنعته به .

إن أبا سلمة يحس وهو بين يدى رسول الله أنه وجد فى نفسه لكافر ناصب رسول الله عليه السلام العداء ، فندم على ما كان منه فقال :

— اللهم إنى قد أنجزت ما وعدتنى فتمم على نعمتك .

وشرد رسول الله — ﷺ — يفكر فى المعركة فإذا به يرى عمه حمزة وهو معلم بريشة نعام فى صدره يصول ويجول فى صفوف قريش ويفعل بهم الأفاعيل ، وابن عمه وربيبه وحبيبه على بن أبى طالب ينقض على أعداء الله انقضاض الليوث . لقد كان حمزة قبل بدر أسد الله وأسد رسوله وكانت قريش ترتجف منه فرقا ، أما بعد بدر فقد اشتهر أمر على بعد أن أطاح برءوس سادات بيوت الشرف فى قريش . لقد بذر على بشجاعته بذور الحقد فى نفوس القرشيين وباتت بينه وبين أشراف مكة ثارات لن يقوى الدين على إخماد نارها أو نزع أنيابها .

ورأى حارثة بن سراقة عند الحوض وقد أصابه سهم غَرب (لا يدرى راميه) ، ورأى نفسه عليه السلام وهو قادم إلى المدينة بعد أن أيده الله بنصره ، فجاءت أم حارثة إليه فقالت :

— يا رسول الله قد عرفت موضع حارثة فى قلبى فأردت أن أبكى عليه ، ثم قالت : لا أفعل حتى أسأل رسول الله — ﷺ — عنه ، فإن كان فى الجنة لم أبكه ، وإن كان فى النار بكيته فأعولته !

— هبلت : أجنة واحدة ! إنها جنان كثيرة . والذى نفسى بيده إنه لفى الفردوس الأعلى :

— فلا أبكى عليه أبدا .

وحبس الأسرى وجعل عليهم شقران مولى رسول الله — ﷺ ،

فطمعوا فى الحياة فقالوا :

ـــ لو بعثنا إلى أبى بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا .

فبعثوا إلى أبى بكر فأتاهم فقالوا :

ـــ يا أبا بكر إن فينا الآباء والأبناء والإخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب ، كلم صاحبك فليمن علينا ويفادنا .

ـــ نعم إن شاء الله ، لا آلوكم خيرا .

ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ .

قالوا :

ـــ وابعثوا إلى عمر بن الخطاب فإنه من قد علمتم ولا يؤمن أن يفسد عليكم لعله يكف عنكم !

فأرسلوا إليه فجاءهم ، فقالوا له مثل ما قالوا لأبى بكر فقال :

ـــ لا آلوكم شرا .

ثم انصرف إلى النبى ـــ ﷺ ـــ فوجد أبا بكر عنده والناس حوله وأبو بكر يليِّنه ويغشاه ويقول :

ـــ يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، وقومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب ، فامنن عليهم من الله عليك أو فادهم قوة للمسلمين فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك .

ثم قام فتنحى ناحية ، وسكت رسول الله ـــ ﷺ ـــ فلم يجبه ، فجاء عمر فجلس مجلس أبى بكر فقال :

ـــ يا رسول الله هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك وأخرجوك . اضرب رقابهم فهم رءوس الكفر وأئمة الضلال يوطىء الله بهم الإسلام ويذل بهم الشرك .

يا رسول الله أطعني فيما أشير به عليك فإني لا آلوك نصحا ، قدم عمك العباس فاضرب عنقه بيدك ، وقدم عقيلا إلى أخيه يضرب عنقه ، وقدم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله .

فكست رسول الله — ﷺ — ولم يجبه . وعاد أبو بكر إلى مقعده الأول فقال :

— بأبي أنت وأمي ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب ! فامنن عليهم أو فادهم ، هم عشيرتك وقومك لا تكن أول من يستأصلهم وأن يهديهم الله خير من أن يهلكهم .

فسكت رسول الله عنه فلم يرد عليه شيئا وقام ناحية ، فقام عمر فجلس مجلسه فقال :

— يا رسول الله ما تنتظر بهم ! اضرب أعناقهم يوطيء الله بهم الإسلام ويذل أهل الشرك . هم أعداء الله كذبوك وأخرجوك ، يا رسول الله اشف صدور المؤمنين ، لو قدروا منا على مثل هذا ما أقالونا أبدا .

وقام سعد بن معاذ يقول :

— اقتل ولا تأخذ الفداء .

ثم قام رسول الله — ﷺ — فدخل داره فمكث فيها ساعة ، ثم خرج والناس يخوضون في شأنهم يقول بعضهم :

— القول ما قال أبو بكر .

وآخرون يقولون :

— القول ما قال عمر .

فلما خرج عليه السلام قال للناس :

ـــ ما تقولون فى صاحبيكم هذين ؟ دعوهما فإن لهما مثلا ، مثل أبى بكر فى الملائكة كمثل ميكائيل ينزل برضا الله وعفوه على عباده ، ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألين على قومه من العسل ، أو قد له قومه النار فطرحوه فيها فما زاد على أن قال : ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾(١) وقال : ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾(٢) ، وكعيسى إذ يقول : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾(٣) .

ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله ، ومثله فى الأنبياء كمثل نوح كان أشد على قومه من الحجارة ، إذ يقول : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾(٤) . فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعا ، ومثل موسى إذ يقول : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾(٥) . وإن بكم عيلة ، فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق .

وانطلق رسول الله ﷺ إلى حيث حبس الأسرى فألقى نظرة عليهم ثم قال :

ـــ لو كان مطعم بن عدى حيا لوهبت له هؤلاء النّتنى(٦)

---

(١) الأنبياء ٦٧ (٢) ابراهيم ٣٦ (٣) المائدة ١١٨

(٤) نوح ٢٦ (٥) يونس ٨٨

(٦) يعنى أسارى بدر وواحدهم نتن ، وسماهم نتنى لكفرهم .

إنه عليه السلام لا ينسى أن قومه أخرجوه وقد خيروه بين القتل والخروج ، فخرج إلى الطائف ولقى من ثقيف أذى كبيرا فعاد هو وزيد بن حارثة إلى غار حراء ، وبعث إلى أشراف مكة ليدخلوه فى جوارهم فأبوا جميعا إلا مطعم بن عدى فقد أجاره وبسط حمايته عليه ومنع عنه أذى قريش وإن لم يدخل فى دينه . إنه عليه السلام لا ينسى هذه اليد وإنه فى هذه اللحظة التى يملك فيها رقاب من أبوا أن يجيروه يتذكر فضل المطعم ويقول لو كان حيا لجازاه بأن يهب له أسارى بدر . خلق عظيم لا ينسى فى لحظات النصر أصحاب الفضل .

وسار رسول الله عليه السلام إلى عمه العباس وقال له :

— افد نفسك يا عباس وابنى أخويك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عقبة بن عمرو فإنه ذو مال .

فقال العباس :

— يا رسول الله إنى كنت مسلما ولكن القوم استكرهونى .

إن العباس ليقر بإسلامه ولكن ذلك سيفسد أهمية دوره فى بقائه بمكة — أن يظل رئيس قلم مخابرات المسلمين ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— الله أعلم بإسلامك إن يكن ما قلت حقا فإن الله يجزيك به ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافتد نفسك .

وقد كان رسول الله — ﷺ — أخذ منه عشرين أوقية من ذهب أصابها معه حين أسر ، فقال العباس :

— يا رسول الله احبسها لى فى فدائى .

— ذاك شىء أعطانا الله منك .

ووقف رسول الله — ﷺ — على أبى عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي وكان شاعرا ، فقال له أبو عزة :

— إن لى خمس بنات ليس لهن شيء ، فتصدق بى عليهن يا محمد أعطيك موثقا ألا أقاتلك ولا أكثر عليك أبدا .

فأرسله رسول الله — ﷺ ، فانطلق أبو عزة إلى مكة مسرورا وهو لا يصدق أنه قد نجا من الأسر دون فداء !

ورأى رسول الله — ﷺ — أبا وداعة السهمي أسيرا فقال لأصحابه :

— إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال ، وكأنكم به قد جاء في طلب فداء أبيه .

وأنزل الله على رسوله : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ـ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾[1] .

---

(١) الأنفال ٦٧ — ٦٨

١١

كانت قريش قد أرسلت الفرات بن حيان العِجلى حين فصلت من مكة إلى أبى سفيان بن حرب يخبره بمسيرها وفصولها وما قد حشدت ، فخالف أبا سفيان فى الطريق ، وذلك أن أبا سفيان لصق بالبحر ولزم الفرات بن حيان المحجة فوافى المشركين بالجُحفة ، فسمع كلام أبى جهل وهو يقول :

ــ لا نرجع .

فقال :

ــ ما بأنفسهم عن نفسه رغبة ! وإن الذى يرجع بعد أن رأى ثأره من كثب لضعيف .

فمضى مع قريش فترك أبا سفيان ، وجرح يوم بدر جراحات كثيرة وهرب على قدميه وهو يقول :

ــ ما رأيت كاليوم أمرا أنكد ! إن ابن الحنظلية لغير مبارك الأمر .

وخرج بنو عدى من النفير حتى كانوا بثنية لفْت ، فلما كان فى السَّحر عدلوا فى الساحل منصرفين إلى قلة ، فصادفهم أبو سفيان فقال :

ــ كيف رجعتم يا بنى عدى ! ولا فى العير ولا النفير !

ــ أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع فرجع من رجع ومضى من مضى .

وقال الأخنس بن شريق وكان حليفا لبني زهرة لما أرسل أبو سفيان أن ترجع :

— يا بني زهرة قد نجى الله عيركم وخلص أموالكم ونجى صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما خرجتم لتمنعوه ماله ، وإنما محمد رجل منكم ابن أختكم، فإن يك نبيا فأنتم أسعد به، وإن يك كاذبا يلي قتله غيركم خير من أن تلوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا واجعلوا خبثها لى ، فلا حاجة لكم أن تخرجوا في غير ما يهمكم ودعوا ما يقوله هذا الرجل — يعنى أبا جهل — فإنه مهلك قومه ، سريع فى فسادهم .

فأطاعته بنو زهرة وكان فيهم مطاعا ، وكانوا يتيمنون به فقالوا :

— فكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع ؟

— نسير مع القوم فإذا أمسيت سقطت عن بعيرى فيقولون نحل الأخنس . فإذا أصبحوا فقالوا سيروا فقولوا لا نفارق صاحبنا حتى نعلم أحى هو أم ميت فندفنه ، فإذا مضوا رجعنا إلى مكة .

ورجع بنو زهرة وسار الآخرون إلى مصارعهم أو ليقعوا أسرى في أيدى المسلمين أو ليولوا الأدبار فزعين ، وقد هام قباث بن أشيم الكنانى على وجهه فلم يسلك المحاج خوفا من الطلب حتى لقيه رجل من قومه فقال :

— ما وراءك ؟

فقال قباث :

— لا شيء ، قتلنا وأسرنا وانهزمنا ، فهل عندك من حملان ؟

فحمله على بعير وزوده زادا حتى لقى الطريق بالجحفة ، ثم مضى وهو ينظر إلى الحيسمان بن حابس الخزاعى فعرف أنه تقدم ينعى قريشا

بمكة ، فلو أراد أن يسبقه لسبقه ، فتنكب عنه حتى يسبقه ببعض النهار فقد كان يكره أن يحمل إلى قريش أنباء قتلاها .

وراح حكيم بن حزام يعدو على ظهر الجمل وعبيد الله وعبد الرحمن ابنا العوام يعدوان خلفه وهو يخشى طلب القوم ، حتى إذا كان بحر الظهران تذكر ما كان من قريش في خروجها وما قال أبو جهل من افتراء فقال :

ـ والله لقد رأيت ها هنا أمرا ما كان يخرج على مثله أحد له رأى ، ولكنه شؤم ابن الحنظلية .

ما كانت قريش لتنتصر يوم بدر فقد دب فيها التخاذل وكراهية الحرب وحب الرجوع وخوف اللقاء وخفوق الهمم وفتور العزائم ورجوع بني زهرة وبني عدى من الطريق واختلاف آرائهم في القتال ، فقد مشت إليهم الهزيمة قبل أن يلقوا رسول الله ـ ﷺ ـ وصحبه الأبرار ، وحق عليهم الانكسار لو كانوا قد لقوا قوما جبناء ، فكيف وإنما لقوا رسول الله عليه السلام المؤيد من السماء والأوس والخزرج وهم أشجع العرب ، وحمزة أسد الله وعلى بن أبى طالب ربيب رسول الله ، وجماعة من المهاجرين أمجاد ، صفوة قال الله فيهم : ﴿ يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ۝ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[1] .

---

(١) الأنفال ٦٥ ـ ٦٦

وقدم الحيسمان الخزاعى فانطلق كالعاصفة إلى الحرم فإذا بصفوان ابن أمية وسادات قريش فى الحجر ، فقام الحسيمان فقال :

ــ قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وقتل ابنا الحجاج وأبو البخترى وزمعة بن الأسود .

فقال صفوان بن أمية بن خلف :

ــ لا يعقل هذا شيئا مما يتكلم به ! سلوه عنى .

فقالوا له :

ــ صفوان بن أمية لك به علم ؟

ــ نعم هو ذاك فى الحجر ، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولين ، ورأيت سهيل بن عمرو والنضر بن الحارث أسيرين ، رأيتهما مقرونين فى الحبال .

وقدم قباث بن أشيم وقد انتهى إلى مكة خبر قتلاهم وهم يلعنون الخزاعى ويقولون :

ــ ما جاءنا بخير .

ونزلت أنباء بدر على الكافرين نزول الصاعقة ، وتهللت بالفرح وجوه المسلمين . وكان ممن سرهم ما جاءهم من الخبر أم الفضل وأبا رافع غلام العباس وكان رجلا ضعيفا وكان يعمل القداح ينحتها فى حجرة زمزم وعنده أم الفضل جالسة ، فأقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس إلى طرف الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهر أبى رافع ، فبينا هو جالس إذ قال للناس :

ــ هذا أبو سفيان بن الحارث ين عبد المطلب قد قدم .

كان أبو سفيان بن الحارث أكثر بنى هاشم شبها بابن عمه رسول

الله عليه السلام ، وكانا لا يفترقان قبل أن يفرق بينهما الإسلام ، وكان أبو سفيان شاعر بنى هاشم وقد هجا ابن عمه ولم يكتف بذلك بل خرج مع قريش إلى بدر ليقاتل رفيق الصبا والشباب وقرين الروح وشرف عدنان ، فلما انهزمت قريش ولى الأدبار وانقلب إلى أهله يحمل العار .

وقال أبو لهب لأبى سفيان بن الحارث :

— هلم يا بن أخى فعندك والله الخبر .

فجلس إليه والناس قيام حوله فقال :

— يا بن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟

— لا شيء ، والله إن هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا فقتلونا كيف شاءوا وأسرونا كيف شاءوا . وايم الله مع ذلك ما لمت الناس . لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض لا والله ما تبقى شيئا ولا يقوم لها شيء .

فقال أبو رافع فى فرح :

— تلك والله الملائكة .

فرفع أبو لهب يده فضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته على رأسه فشجته شجة منكرة وقالت :

— استضعفته إذ غاب سيده .

فقام موليا ذليلا .

ورجعت قريش إلى مكة فهمّ الرجال والنساء ببكاء قتلاهم فقام فيهم أبو سفيان بن حرب فقال :

— يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة ولا

يندبهم شاعر وأظهروا الجلد والعزاء ، فإنكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فأكلكم ذلك من عداوة محمد وأصحابه ، مع أن محمدا إن بلغه وأصحابه ذلك شمتوا بكم فتكون أعظم المصيبتين ، ولعلكم تدركون ثأركم فالدهن والنساء على حرام حتى أغزو محمدا .

ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة فقلن :

— ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟

فقال والنار تشوى كبدها :

— خلاني (منعنى) أن أبكيهم فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بنا وبنساء بنى الخزرج ، لا والله حتى أثأر محمدا وأصحابه ، والدهن علّى حرام إن دخل رأسى حتى نغزو محمدا ! والله لو أعلم أن الحزن يذهب على قلبى لبكيت ، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتله الأحبة .

وانقضت سبع ليال على ضرب أم الفضل أبا لهب بعمود على رأسه فرماه الله بالعدسة وهى قرحة قاتلة كالطاعون فقتلته . ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثا وما يدفنانه حتى أنتن فى بيته ، فقد كانت قريش تتقى العدسة وعدواها كما يتقى الناس الطاعون حتى قال لهما رجل من قريش :

— ويحكما ! ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لا تغيبانه !

— إنا نخشى هذه القرحة .

— فانطلقا وأنا معكما .

فما غسلوه بل قذفوا عليه الماء من بعيد خشية أن يمسوه ،

وأخرجوه فألقوه بأعلى مكة إلى كنان هناك وقذفوا عليه بالحجارة حتى واروه .

وأنهت أم الفضل حياة طاغية ليصلى نارا ذات لهب ، ولكأنما كان قتل أبى لهب نهاية مظفرة لغزوة بدر فى قلب الحرم .

١٢

راح المطلب بن أبى وداعة السهمى يتجهز للخروج إلى المدينة ليفدى أباه ، فجاءته قريش فقالت :

ـــ لا تعجل فإنا نخاف أن تفسد علينا فى أسارانا ويرى محمد تهالكنا فيغلى علينا الفدية ، فإن كنت تجد فإن كل قومك لا يجدون من السعة ما تجد .

ـــ لا أخرج حتى تخرجوا .

وكان أناس غيره يرون الخروج لفداء الأعزة لولا الحياء ، فزينب بنت محمد عليه السلام تحب أن تبعث إلى أبيها من يفتدى منه الزوج العزيز أبا العاص بن الربيع ، فهى وإن كانت قد تهللت بالفرح لما جاءت الأخبار بنصر الله لرسوله والمسلمين فقد كدر سرورها وقوع أبى العاص أسيرا ذليلا فى أيدى الأنصار ، وما كان يخفف من لوعتها إلا معرفتها بتقدير أبيها لزوج ابنته الأمين .

لقد انحدرت الدموع من مآقيها مرتين ، مرة لما جاءها الخبر بوقوع زوجها أسيرا ومرة أخرى لما جاءها الناعى ينعى إليها موت أختها رقية . كانت عبراتها الأولى مشوبة بأمل اللقاء ، أما عبراتها الثانية فقد امتزجت بحرقة الفراق ونكأت جروح أحزانها وذكرتها بأيام الاضطهاد وفرار أختها بدينها إلى الحبشة ثم هجرتها مع زوجها عثمان إلى المدينة ، وأعادت إلى سطح ذهنها أيام أن ماتت أمها خديجة أم

المؤمنين وهى تشتهى أن ترى رقية قبل أن تموت ، ولكن روحها الطاهرة قد لحقت بربها دون أن ترى رقية الحبيبة ، فغمر رسول الله ﷺ الأسى ونزل بقلبه أفدح ما يتحمله بشر من الأحزان .

وودت زينب لو تستطيع أن تخرج لتفدى زوجها وتعزى أباها الثاكل الذى فجع فى ابنته وهو فى قمة انتصاره ، ولكنها كانت عاجزة عن الخروج وحدها فهى بين كفار قد ملئت قلوبهم حقدا على أبيها ، فلو همت بالخروج لكانت هدفا لسهام متعطشة إلى دماء محمد عليه السلام وإلى أهل بيته وكل من معه من المهاجرين والأنصار .

ولم يستطع المطلب بن أبى وداعة أن يصبر على فداء أبيه فخادع قريش حتى إذا غفلوا خرج من الليل على راحلته ، فسار أربعة ليال إلى المدينة ليفتدى أباه . وصدق رسول الله — ﷺ — حينما قال لأصحابه : « إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال ، وكأنكم به قد جاء فى طلب فداء أبيه » .

وافتدى المطلب أباه بأربعة آلاف درهم وكان أول أسير افتدى ، ثم عاد به إلى مكة وهو يكاد يطير من الفرح فلامته قريش فى ذلك فقال :

— ما كنت لأترك أبى أسيرا فى أيدى القوم وأنتم مضجعون .

فقال أبو سفيان بن حرب :

— إن هذا غلام حدث يعجب بنفسه وبرأيه وهو مفسد عليكم ، إنى والله غير مفتد عمرو بن أبى سفيان ولو مكث سنة أو يرسله محمد ، والله ما أنا بأعوزكم ولكنى أكره أن أدخل عليكم ما يشق عليكم ولكن يكون عمرو كأسوتكم .

وسكت الناس وإن كانت قلوبهم تهفو إلى الأسرى ، ثم انتشر فى

مكة همس يقول ما يمنع أبا سفيان من فداء ابنه غير بخله فقد اشتهر عنه ذلك البخل بين قومه . وعجز الناس عن احتمال بقاء الآباء والأبناء والأعمام والأخوال والأحبة أذلاء في الأسر ، فشد الرحال إلى المدينة في فداء الأسرى أربعة عشر رجلا : من بنى عبد شمس الوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، وعمرو بن الربيع أخو أبى العاص بن الربيع ، ومن بنى نوفل بن عبد مناف جُبير بن مطعم ، ومن بنى عبد الدار ابن قصى بن أبى طلحة ، ومن بنى أسد ابن عبد العزى بن قصى عثمان بن أبى حُبيش ، ومن بنى مخزوم عبد الله بن أبى ربيعة وخالد بن الوليد وهشام ابن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبى جهل ، ومن بنى جمح أبىّ بن خلف وعمير بن وهب ، ومن بنى سهم عمرو بن قيس ، ومن بنى مالك ابن حِسْل مكرز بن حفص بن الأحنف .

وقدم الرجال إلى المدينة فى فداء أهلهم وعشائرهم ، فانطلقوا إلى مسجد رسول الله عليه السلام فإذا برسول الله قائم يصلى يرتل : ﴿ والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع * يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا * فويل يومئذ للمكذبين * الذين هم فى خوض يلعبون * يوم يدعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[1] .

---

(١) الطور ١ — ١٦

وجعل جبير بن مطعم يصغى إلى رسول الله — ﷺ — فإذا بالآيات تنزل إلى قلبه لكأنها نور أضاء بصيرته ، إنه ليرتجف من آيات الوعيد ويشرق بالأمل لما تمس فؤاده آيات التبشير ويهيم فى عالم الملكوت . وقد ألقي سمعه وهو شهيد . إن قوة طاغية فى أغوار نفسه تهيب به أن ينهض ليشهد على الملأ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ولكنه يقاوم هذه الرغبة وإن دخل الإسلام فى قلبه .

وغدا الوليد بن عقبة يساوم سعد بن أبى وقاص فى أسيره الحارث بن أبى وجرة بن أبى عمرو بن أمية حتى افتداه بأربعة آلاف . وراح جبير ابن مطعم يفتدى عدى بن الخيار وعثمان بن عبد شمس وأبا ثور ، ويجلس إلى جوار رسول الله ﷺ كلما قام للصلاة أو جلس لتلاوة القرآن ، فقد أصبح جبير بن مطعم أسير سحر ما يرتل محمد عليه السلام .

وصار أبو عزيز بن عمير بالقرعة لمحزر بن نضلة ، فجاء أخوه مصعب بن عمير وقال لمحرز :

— اشدد يدك به ، فإن له أما بمكة كثيرة المال .

فقال له أبو عزيز :

— هذه وصاتك بى يا أخى ؟!

فقال مصعب :

— إنه أخى دونك .

وكانت أمه قد سألت : ما أغلى ما تفادى به قريش ؟ فقيل لها : أربعة آلاف . فبعثت فيه أمه أربعة آلاف .

وقدم طلحة بن أبى طلحة فى فداء الأسود بن عامر بن الحارث

ابن السبَّاق ، أسره حمزة بن عبد المطلب ، وقدم عثمان بن أبى حبيس فى فداء السائب بن أبى حبيس وسالم بن شماخ وعثمان بن الحويرث وقد فدى كل رجل منهم بأربعة آلاف .

وقدم خالد بن الوليد وهشام بن الوليد فى فداء أخيهما الوليد بن الوليد بن المغيرة . فتمنع عبد الله بن جحش حتى يدفعا فيه أربعة آلاف ، فجعل هشام بن الوليد يقول :

ـــ ثلاثة آلاف .

فقال خالد لهشام :

ـــ إنه ليس بابن أمك ، والله لو أبى فيه إلا كذا وكذا لفعلت .

وافتدياه بأربعة آلاف . ثم خرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة فأفلت فأتى النبى ـــ ﷺ ـــ فقيل :

ـــ ألا أسلمت قبل أن تفتدى ؟!

ـــ كرهت أن أسلم حتى أكون أسوة بقومى .

وقدم عكرمة بن أبى جهل فى فداء خالد بن الأعلم العقيلى حليف بنى مخزوم ، وهو الذى يقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كُلومنا

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ـــ وكان أول المنهزمين ، أسره الخباب بن المنذر بن الجموح .

وقدم عمير بن وهب فى فداء ابنه وهب ، وكان عمير هو القائل يوم بدر لما قالت له قريش « احرز لنا أصحاب محمد » . ما وجدت شيئا ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله

ما أرى أن يقتل رجل حتى يقتل رجلا منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟

إنه كان جالسا فى مكة مع صفوان بن أمية ، فذكر أصحابه القليب ومصابهم فقال صفوان :

— والله إنْ فى العيش بعدهم خير .

قال له عمير :

— صدقت والله ، أما والله لولا دين على ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لى قبلهم علّة : ابنى أسير فى أيديهم .

فاغتنمها صفوان وقال :

— على دينك وأنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا لا يسعنى شىء ويعجز عنهم .

— فاكتم شأنى وشأنك .

— أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فسحذ له وسم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال :

— هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر . وهو الذى حرش بيننا وحزّرنا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا نبى الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه .

— فأدخله على .

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبَّبه بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :

ـــ ادخلوا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مامون .

ثم دخل به على رسول الله ـــ ﷺ ـــ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال :

ـــ أرسله يا عمر ، ادن يا عمير .

فدنا ثم قال :

ـــ أنعموا صباحا .

فقال ﷺ :

ـــ أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة .

ـــ أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

ـــ فما جاء بك يا عمير ؟

ـــ جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا إليه .

ـــ فما بال السيف فى عنقك ؟

ـــ قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئا ؟!

ـــ اصدقنى ما الذى جئت له ؟

ـــ ما جئت إلا لذلك .

ـــ بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت : لولا دين علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا . فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ،

والله حائل بينك وبين ذلك .

ـــ أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فوالله إني لا أعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق .

ثم شهد على الملأ أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

وقال عمر بن الخطاب :

ـــ لخنزير كان أحب إلي منه حين طلع ، وهو الساعة أحب إليّ من بعض ولدي .

فقال رسول الله ﷺ :

ـــ فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره .

ثم قال عمير :

ـــ يا رسول الله إني كنت جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل . وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ـــ ﷺ ـــ وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم .

فأذن له رسول الله ـــ ﷺ ـــ فلحق بمكة .

وقدم عمرو بن الربيع في فداء أخيه العاص بن الربيع ، فقدم إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما بعثت به ابنته زينب في فداء زوجها فإذا به مال وقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها ، فترقرق الدمع في عيني رسول الله ـــ ﷺ ـــ ورق لها رقة شديدة . إنها ذكرته بالطاهرة سيدة نساء قريش أم المؤمنين التي صدقته لما كذبه

الناس ، وواسته لما عزت المواساة ، وكانت له وزير صدق على الدوام ، إنه ليذكرها أبدا في أفراحه وأتراحه ، في انتصاراته وأحزانه ، كلما فكر في رقية التي ذهبت أو زينب التي فرق بينه وبينها بقاؤها في كنف زوج مشرك ما كان بقادر على أن يفرق بينهما أو في أم كلثوم وفاطمة الزهراء اللتين ذاقتا مرارة اليتم وهما في عمر الزهور .

وقال عليه السلام لمن عنده في صوت متهدج .

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

— نعم يا رسول الله .

١٣

كان صفوان بن أمية يجلس فى الحرم ويقول :

ـــ أبشروا برقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر .

وراح صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكب يقدم من المدينة ويقول :

ـــ هل حدث بالمدينة من حدث ؟

ـــ كان على ثقة من أن عمير بن وهب سيقتل رسول الله عليه السلام ، بل إن حقده كان يؤكد له أن الاغتيال قد وقع وأن كل قادم إلى مكة إنما ما جاء إلا ليحمل إليه البشرى التى ستشفى غليله ، فقدم رجل من المدينة فسأله صفوان عن عمير فقال :

ـــ أسلم .

فأحس صفوان كأن سهام الأرض قد صوبت إلى فؤاده فمزقته ، كان النبأ أقسى على قلبه من نذير الشؤم الذى جاء بخبر قتلى بدر . إن ذلك الرجل أنحس من الحيسمان(١) ، وغدا صفوان يلعن عمير بن وهب ولعنه الناس وقالوا :

ـــ صبأ عمير .

وحلف صفوان ألا يكلمه أبدا ولا ينفعه وطرح عياله . وقدم عمير

---

(١) رجل كانوا يتشاءمون منه . والحسوم : الشؤم

فنزل فى أهله ولم يأت صفوان وأظهر الإسلام ، فبلغ صفوان فقال :

ــ قد عرفت حين لم يبدأ بى قبل منزله ، وقد كان رجل أخبرنى أنه ارتكس ، لا أكلمه من رأسي أبدا ولا أنفعه ولا عياله بنافعة أبدا .

فوقع عليه عمير وهو فى الحجر فقال :

ــ يا أبا وهب .

فأعرض صفوان عنه فقال عمير :

ــ أنت سيد من ساداتنا ، أرأيت الذى كنا عليه من عبادة حجر والذبح له ! أهذا دين ؟! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله .

فلم يجبه صفوان بكلمة ، وغدا عمير يدعو الناس إلى الإسلام .

وعاد أبو العاص بن الربيع إلى مكة ففرح الناس بعودة من كان من الرجال المعدو دين مالا وأمانة وتجارة ، وطاف بالبيت سبعا . وانتظر سادات قريش الذين كانوا فى نواديهم أن يأتى إليهم ليقص عليهم كيف أطلقه محمد بغير فداء ، ولكن أبا العاص كان فى شوق إلى زينب بنت محمد ، إلى الزوجة التى بعثت فى فدائه بأعز ما تملك قلادة غالية كانت خديجة أدخلتها بها عليه ليلة زفافها عليه . إنه طوال الرحلة قد شغل بوجه محمد وقد رق لها رقة شديدة . إنه كان يعرف أن ختنه كان يحب خالته خديجة بكل عواطفه ، ولكنه ما كان يتصور أن يبلغ حبه إياها حد أن يذوب رقة لمجرد رؤية قلادتها وأن تغيم عيناه بالدموع للذكرى !

وراح أبو العاص بن الربيع يغذ السير ليلحق بزوجه وهو ملهوف فى صدره شوق وفى فؤاده هوى وعلى لسانه كلمات ، وهم بأن يترتم بشعر جزل يعبر عن جيشان العواطف فى وجدانه إلا أنه أفاق إلى نفسه

وتذكر ما وعد به رسول الله — ﷺ — فقطب جبينه وقد هاجت في عين ذاته الأحزان ، فهو لا يستطيع أن ينكث وعده وإلا لطخ أمانته التي اشتهر بها بين قومه بالأوحال .

إنه وعد أليم موجع لقلبه سيقوض البيت الهانيء الذي عجزت عواصف الأحداث من قبل عن أن تزعزع أركانه ، وكان قد بلغ الدار فما إن وقعت عينا زينب عليه حتى جرت إليه ودموع الفرح تغسل الوجه الذي انبسطت أساريره ، وصار في لحظة مرآة الفؤاد الذي فاض في لحظة بشتى المشاعر والانفعالات .

وغاب الزوجان عن الوجود ولم يحسا إلا بنفسيهما وبعواطفهما الثائرة المشبوبة . وبينا هما في غمرة السعادة إذا بترجيع صوت رسول الله عليه السلام يرن في أعماق أبي العاص بن الربيع ، فيبعد أبو العاص زوجه عن صدره ويقول لها :

— تأهبي يا زينب لتلحقي بأبيك .

ونظرت إليه زينب في دهش وهي لا تكاد تفقه شيئا ، فقال لها وقد أطرق بنظره إلى الأرض :

— فرق بيني وبينك الإسلام .

إن أبا العاص وعد رسول الله — صلى الله عليه وآله — ابتداء بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة ، وكان يعلم قسوة ذلك الوعد على قلبه ، ولكنه وهو يفضي إلى زينب الحبيبة بما شرط عليه أبوها يحس أن قلبه يتمزق وأنه يتناثر أشلاء ، ويا طالما ترنم الركبان بشعره الذي يتشبب فيه بزينب بنت محمد .

وغدت زينب تجاهد عواطفها وهي تتجهز للخروج ، إنها قالت

صادقة بلسانها ووجدانها : سمعا وطاعة لله ولرسول الله ، ولكن عواطفها خذلتها ولم تكن لها عليها سلطان ، فدمعها لا يرقأ وقلبها دائم الخفقان للحبيب الذى كان نعم الزوج على الدوام .

وبينا هى تتجهز للحوق بأبيها لقيتها هند بنت عتبة من قتل أبوها وعمها وأخوها يوم بدر ، فقالت :

ـــ ألم يبلغنى يا بنت محمد أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟

فقالت زينب فى حذر :

ـــ ما أردت ذلك .

ـــ أى بنت عم لا تفعلى . إن كانت لك حاجة فى متاع أو فيما يرفق بك فى سفرك أو مال تبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك . فلا تَضْطنى (تستحى) منى فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال .

وأحست زينب أنها صادقة وما قالت حينئذ إلا لتفعل ، ولكن خافتها فأنكرت أن تكون تريد ذلك . وتجهزت حتى فرغت من جهازها فحملها أخو بعلها وهو كنانة بن الربيع .

قدم لها كنانة بن الربيع بعيرا فركبته وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها نهارا يقود بعيرها وهى فى هودج لها ، وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء وتلاومت فى ذلك وأشفقت أن تخرج ابنة محمد من بينهم على تلك الحال ، فخرجوا فى طلبها سراعا حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى ونافع بن عبد القيس الفهرى ، فروعها هبار بالرمح وهى فى الهودج وكانت حاملا ، فغدت تنزف دما .

وبرك حَموها كنانة بن الربيع ونثل كنانته بين يديه ، ثم أخذ منها سهما فوضعه فى كبد قوسه وقال :

ـــ أحلف بالله لا يدنو اليوم منها رجل إلا وضعت فيه سهما .

فرجع الناس عنه . وجاء أبو سفيان بن حرب فى جلة من قريش فقال :

ـــ أيها الرجل اكفف عنا نَبلك حتى نكلمك .

فكف . فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال :

ـــ إنك لم تحسن ولم تصب ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية جهارا وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد أبيها فيظن الناس إذا أنت خرجت بابنته إليه جهارا أن ذلك عن ذل أصابنا وأن ذلك منا وهن . ولعمرى ما لنا فى حبسها من أبيها من حاجة وما فيها من ثأر ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس بردها سُلها سلا خفيا فألحقها بأبيها .

وراحت زينب تنظر إلى الدم الذى ينزف منها فى خوف ، فرأى كنانة بن الربيع أن يعود بها استجابة لتوسل أبى سفيان وحفظا لحياة زوجة أخيه :

ـــ ولقيت هند بنت عتبة الذين خرجوا إلى زينب حين انصرافهم فقالت لهم :

أفى السلم أغيارٌ[١] جفاءً وغلظة

وفى الحرب أشباه النساء العوارك[٢]

(١) أغيار : حمر الوحش والعيار من الرجال : الذى يخلى نفسه وهواها .

(٢) النساء العوارك : الحوائض .

وفيما كانت زينب في طريق عودتها طرحت ما فى بطنها وأصابها ضعف ، فلما بلغت دار أبى العاص هرع من فيه إليها يحملونها وهى غارقة فى دمائها .

وصبت اللعنات عل رأس هبار بن الأسود ، وراح أبو العاص بن الربيع يمسح بحنانه آلام زوجه التى فرق الإسلام بينه وبينها . ومرت ليالى وأيام ولا حديث لمكة إلا حديث بدر والأسرى الذين عادوا بفداء أو بلا فداء . وغدا العباس يجلس فى نوادى قومه يحدث عما لقوا من الأنصار فى المدينة ، ولم يسأله أحد : لم فرق رسول الله ـ ﷺ ـ بين ابنته زينب وبين زوجها الحبيب أبى العاص ولم يفرق بينه وبين أم الفضل مع أن الحالة واحدة ؟! فأبو العاص مشرك وزينب مؤمنة . وكذلك الحال مع العباس وأم الفضل . ولو دار ذلك السؤال فى خلدهم لكشفوا أمر العباس ولأيقنوا أنه على دين ابن أخيه وأنه ما بقى بينهم يتظاهر بالشرك إلا ليكون عينا عليهم لرسول الله عليه السلام يحمل إليه أنباءهم .

وجاء أناس إلى أبى سفيان وهو جالس مع العباس فى الحجر وقالوا :

ـ ألا تفتدى ابنك عمرا ؟

فقال أبو سفيان وقد فقد حلمه :

ـ أتجمع على دمي ومالي ؟ قتلوا حنظلة وأفتدى عمرا .

وطفق قلب أبى سفيان يقطر حقدا على علىّ بن أبى طالب فهو قاتل حنظلة وآسر عمرو ، وكانت أمه ابنة عقبة بن أبى معيط لا تنفك تسأله أن يفتدى ابنه ويكفيها حزنها على قتل أبيها ، ولكنه كان يطلب منها أن

تصبر كما صبرت هند بنت عتبة ترصدا ليوم الثأر الأكبر .

واستردت زينب بعض قواها وهدأ الصوت عنها فحملها كنانة بن الربيع على بعيرها وهي تذرف الدمع على فراق أبي العاص ، وخرج بها ليلا وهو يسلها سلا خفيا وقد أرهفت حواسه خشية الطلب .

وكان رسول الله — ﷺ — لما خلّى سبيل أبي العاص بعث بعده زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال لهما :

— كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها .

وخرج الرجلان ينتظران حتى أقبل كنانة بن الربيع يقود هودج زينب حتى أسلمها إلى الرجلين وهو يقول :

عجبت لهبار وأوباش قومه

يريدون إخفاري[1] ببنت محمد

ولست أبالي ما حييت عديدهم

وما استجمعت قبضا يدي بالمهند

وانطلق الرجلان حتى قدما بزينب على رسول الله — ﷺ — ، فلما تقدم خافق القلب لاستقبال ابنته العزيزة العائدة من دار الشرك إلى دار الإسلام إذا به يجدها تنزف دما فأصابه كدر ، وسمع ما كان من هبار بن الأسود بن عبد المطلب من قسوة على زينب فأهدر دمه .

وقال عبد الله بن رواحة فيما كان من أمر زينب :

---

(١) إخفاري : نقض عهدي .

أتانى الذى لا يقدر الناس قدره
لزينب فيهم من حقوق ومأثم
وإخراجها لم يخزَ فيها محمد
على ثاقط[١] بيننا عطر منشم[٢]
وأمسى أبو سفيان من حلف ضمضم[٣]
ومن حربنا فى رغم أنف ومندم
قرنا ابنه عمرا ومولى يمينه
بذى حلق جلد الصلاصل محكم
فأقسمت لا تنفك منا كتائب
سراة خميس[٤] فى لهام[٥] مسوَّم
نزوع قريش الكفر حتى نُعلَّها[٦]
بخاطمة فوق الأنوف بميسَم

---

(١) ثاقط : معترك الحرب .

(٢) كناية عن شدة الحرب ومنشم بائعة طيب تعطر بطيبها فتيان ثم ذهبوا للحرب فلم يرجعوا .

(٣) ضمضم بن عمرو الغفارى أرسله أبو سفيان ليخبر أهل مكة بمحاولة تعرض الرسول وأصحابه لتجارة قريش .

(٤) الخميس : الجيش الكبير .

(٥) اللهام : الجيش العظيم .

(٦) العلل : الشرب مرة بعد مرة .

تنزلهـم أكنـاف نجـد ونخلـة
وإن يُتهموا بالخيل والرَّجل نُتهم
يدَ الدهر حتى لا يعوج سربنا
وتلحقهم آثار عاد وجرهم[١]
ويندم قوم لم يطيعوا محمدا
على أمرهم ولات حين تندُّم
فأبلغ أبا سفيان إما لقيته
لئن أنت لم تخلص سجودا وتُسلم
فأبشر بخزى فى الحياة معجَّل
وسربال قار خالدا فى جهنم

(٦) عاد وجرهم : من القبائل التى بادت .

١٤

وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده : أبو حكيمة زمعة وعقيل والحارث بن زمعة ، فكان يحب أن يبكى على قتلاه فتأبى عليه قريش ذلك ، وكان يقول لغلامه وقد ذهب بصره !

ـــ ويلك ! احمل معى خمرا واسلك بى الفج الذى سلكه أبو حكيمة .

فيأتى به غلامه على الطريق عند ذلك الفج فيجلس فيسقيه الخمر حتى ينتشى ثم يبكى على أبى حكيمة وإخوته ، ثم يحثى التراب على رأسه ويقول لغلامه :

ـــ ويحك ! اكتم علىّ . فإنى أكره أن تعلم بى قريش ، إنى أراها لم تجمع البكاء على قتلاها .

وبينا هو يبكى على قتلاه سرا إذ سمع نائحة من الليل فقال لغلامه :

ـــ انظر هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة فإن جوفى قد احترق .

فذهب الغلام ورجع إليه فقال :

ـــ إنما هى امرأة تبكى على بعيرها قد أضلته .

فقال الأسود :

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود

فلا تبكي على بكر[١] ولكن　　على بكر تصاغرت الخدود
فبكّي إن بكيت على عقيل　　وبكّي حارثا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمي[٢] جميعا　　فما لأبي حكيمة من نديد
على بدر سراة بني هُصيص　　ومخزوم ورهط أبي الوليد
ألا قد ساد بعدهم رجال　　ولولا يوم بدر لم يسودوا

وبلغ نوفل بن معاوية الدِّيلي وهو في أهله ، وكان قد شهد بدرا ، أن قريشا بكت على قتلاها فقدم مكة فقال :

ـــ يا معشر قريش لقد خفت أحلامكم وسفه رأيكم وأطعتم نساءكم ، أمثل قتلاكم يبكى عليهم ! هم أجل من البكاء مع أن ذلك يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه ، فلا ينبغي أن يذهب الغيظ عنكم إلا أن تدركو ثأركم من عدوكم .

فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه فقال :

ـــ يا أبا معاوية غُلبت ، والله ما ناحت امرأة من بني عبد شمس على قتيل إلى اليوم ولا بكاهم شاعر إلا نهيته حتى ندرك ثأرنا من محمد وأصحابه وإني لأنا الموتور الثائر ، قتل ابني حنظلة وسادة أهل هذا الوادي ، أصبح هذا الوادي مقشعرا لفقدهم .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ لما قدم إلى المدينة وقدم بعده الأسرى قال قوم من المنافقين :

ـــ ليتنا خرجنا معه حتى نصيب غنيمة .

---

(١) لا تسمي : لا تسأمي .
(٢) البكر : الفتى من الأبل .

وقالت يهود فيما بينها :

ـــ هو الذى نجد نعته فى كتبنا ، والله لا ترفع له راية بعد اليوم إلا ظهرت .

واتفقوا فيما بينهم أن ينتظروا وقعة ثانية ليروا إن كانت له أو عليه قبل أن يصلوا إلى قرار .

وقال كعب بن الأشرف :

ـــ بطن الأرض خير من ظهرها ، هؤلاء أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحزم والأمن قد أصيبوا .

وخرج إلى مكة فنزل على أبى وداعة بن ضبيرة وجعله يرسل هجاء المسلمين ، ورثى قتلى بدر من المشركين فقال :

طحنت رحا بدر لمُهلك أهله ... ولمثل بدر يستهل ويُدمَع
قتلت سراة الناس حول حياضه ... لا تبعدوا إن الملوك تصرَّع
ويقول أقوام أذل بعزهم ... إن ابن أشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسيخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة ... أو عاش أعمى مرعشا لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلُّهم ... خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدَّعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبِّه ... ما نال مثل الهالكين ونبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم ... فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يسعى على الحسب القديم الأروع

فلما أرسل كعب هذه الأبيات أخذها الناس بمكة عنه وأظهروا المراثى وجعل الصبيان والجوارى ينشدونها بمكة . فناحت بها قريش على قتلاها

شهرا ، ولم تبق دار بمكة إلا فيها النوح . وجز النساء شعورهن ، وكان يؤتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه فتوقف بين أظهرهم فينوحون حولها ، وخرجن إلى السكك وضربن الستور في الأزقة فخرجن إليها ينحن .

وكانت هند بنت عتبة قد عزمت على ألا تبكي أباها عتبة وأخاها الوليد وعمها شيبة قبل أن تثأر من قاتليهم ، ولكن الفجيعة كانت فوق طاقتها فما أن بكت قريش قتلاها حتى راحت هند تذرف الدمع السخين وتنشد :

لله عينا من رأى ... هلكا كهلْك رجاليه

يارُبَّ باك لي غدا ... في النائيات وباكية

كم غادروا يوم القـ ... ـليب غداة تلك الداعيه(١)

من كل غيث في السنين ... إذا الكواكب خاوية

قد كنت أحذر ما أرى ... فاليوم حق حِذاريه

يارُبَّ قائله غدا ... يا ويح أم معاويه

وتأهبت قريش للخروج في الموسم وقد بلغ هند تسويم(٢) الخنساء هودجها ومعاظمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية فقالت :

ــ أنا أعظم من الخنساء .

وأمرت بهودجها فسوم براية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت :

ــ اقرنوا جملي بجمل الخنساء .

ففعلوا ، فلما دنت منها قالت لها الخنساء :

ــ من أنت يا أخية ؟

---

(١) الداعية : الصراخ

(٢) تمييز .

— أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ، وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك فيم تعاظمينهم ؟

— بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابنى عمرو ، وبم تعاظمينهم أنت ؟

— بأبى عتبة بن ربيعة وعمى شيبة بن ربيعة وأخى الوليد .

— أو سواء هم عندك ؟

ثم أنشدت الخنساء تقول :

أبكى أبى عمرا بعين غزيرة   قليل إذا نام الخلى هجودها

إلى أن قالت :

فذلك يا هند الرزية فاعلمى   ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها :

أبكى عميد الأبطحين(١) كليهما
وحاميهما من كل باغ يريدها
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمى
وشيبة الحامى الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب
وفى العز منها حين ينمى عديدها

وكان الرواة ينقلون المراثى إلى المدينة ، فبينا كان رسول الله — ﷺ — جالسا مع أصحابه إذ جاء رجل ينشد ما قالت قتيلة بنت

---

(١) الأبطحان : مثنى أبطح وهو المسيل الواسع به دقاق الحصى ويقال : قريش البطاح لأنهم ينزلون بين أخشبى مكة .

الحارث فى رثاء أخيها النضر بن الحارث الذى ضرب على بن أبى طالب عنقه بالأثيل :

يـا راكبـا إن الأثيـل مظنَّـة   من صبح خامسة وأنت موفق
بلِّـغ بـه ميتـا فـإن تحيـة   ما إن تزال بها الركائب تخفق
منـى إليـه وعبـرة مسفوحـة   جادت لمائحها وأخرى تخنق
فليسمعـن الـنضر إن ناديتـه   إن كان يسمع ميت أو ينطـق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه   لله أرحـام هنـاك تمـزق
صبرا يقاد إلى المدينة راغمـا   رسف المقيَّد وهو عان موثق
أمحمـد ولأنت نجـل نجيبـة   فى قومها والفحل فحل معرِق
ما كان ضرك لو مننت وربما   منَّ الفتى وهو المغيظُ المحنق
والنضر أقرب من قتلت وسيلة   وأحقهـم إن كـان عتق يعتـق

وراح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصغى إلى شعر بنت خالته فى رثاء ابن خالته وقد غشيته رقة وقال :

ـ لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله ما قتلته .

صلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، فلما رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتره دعا لقوم من قريش فقال :

ـــ اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين .

ومس الدعاء أذنى عمر بن الخطاب فأهاج ذكرياته ، فإنه اتعد لما أرادوا الهجرة من المدينة هو وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص بن وائل السهمى وقالوا :

ـــ أينا لم يصبح عند سرف فقد حبس فليمض صاحباه .

وكانت سرف على ستة أميال من مكة ، فأصبح هو وعياش بن أبى ربيعة عندها وحبس عنهما هشام ، فانطلقا فلما قدما المدينة نزلا فى بنى عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما عليه المدينة ورسول الله ـــ ﷺ ـــ بمكة ، فكلماه وقالا :

ـــ إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك .

فرق عياش لأمه أسماء بنت مخربة ، ورأى عمر ميله لتصديقهم فقال له :

ـــ يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ،

فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

ـ أبر قسم أمي ولي هناك مال فآخذه .

ـ والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما .

فأبى إلا أن يخرج معهما ، فلما دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقا ثم قالا :

ـ يأهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا .

ورأى رسول الله ـ ﷺ ـ ما يقاسي عياش بن ربيعة المخزومي من تعذيب دون أن يملك إلا الإشفاق عليه ، فما كان له حول ولا قوة في مكة .

وراح عمر يتذكر ما كانوا يقولون فيمن افتتنوا : ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم .

فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون[١] ﴾ .

ورأى عمر بن الخطاب نفسه وهو يكتبها بيده في صحيفة ويبعث

---

(١) الزمر ٥٣ ـ ٥٥

بها إلى هشام بن العاص ، ورن فى أغواره صوت هشام وهو يحدثه :
« فلما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى أصعّد بها فيه وأصوب ولا أفهمها حتى قلت : اللهم فهمنيها . فألقى الله تعالى فى قلبى أنها أنزلت فينا وفيما كنا نقول فى أنفسنا ، فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه فلحقت برسول الله — ﷺ — وهو بالمدينة » .

وأفاق عمر من ذكرياته على صوت رسول الله — ﷺ — وهو يقول :

— من لى بعياش بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام ؟

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة :

— أنا لك يا رسول الله بهما .

فخرج إلى مكة فلما بلغها وجد أن أباه الوليد بن المغيرة قد أصابه سهم رجل من بنى كعب بن عمرو من خزاعة ، فدخل عليه وقد حضرته الوفاة ، ووجد أبا سفيان عنده قبل أن يخرج لذى مجاز والحوار دائر بينهما ، يقول الوليد لصاحبه :

— أخشى ألا تعبد العزى بعد موتى .

فيقول له أبو سفيان :

— أعبدت لحياتك حتى لا تعبد لموتك ؟

— الآن أموت وأنا قرير العين .

وخرج أبو سفيان والتفت الوليد إلى بنيه : هشام بن الوليد وخالد بن الوليد والوليد فقال لهم :

— أى بنى أوصيكم بثلاث فلا تضيعوا فيهن : دمى فى خزاعة فلا تطلنّه (تهدرنه) ، والله إنى لأعلم أنهم منه بُرآء ولكنى أخشى أن

تسبوابه بعد اليوم ! وربای فی ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه ، وعقرى (ديتى) عند أبى أزيهر الدوسى فلا يفوتنكم به .

وكان أبو أزيهر قد زوجه بنتا ثم أمسكها عنه .

وهلك الوليد بن المغيرة فوثبت بنو مخزوم على خزاعة يطلبون منهم دية الوليد وقالوا:

ـــ إنما قتله سهم صاحبكم .

فأبت عليهم خزاعة ذلك حتى تقاولوا أشعارا وغلظ بينهم الأمر ، فقال عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى :

إنى زعيم أن تسيروا فتهربوا ... وأن تتركوا الظهران تعوى ثعالبه
وأن تتركوا ماء بجزعة أطرقا ... وأن تسألوا : أى الأراك[1] أطايبه
فإنا أناس لا تطل دماؤنا ... ولا يتعالى صاعدا من نحاربه

فأجابه الجون بن أبى الجون أحد بنى كعب بن عمرو الخزاعى فقال :

والله لا تؤتى الوليد ظلامة ... ولما تروا يوما تزول كواكبه
ويصرع منكم مسمن بعد مُسمن ... وتفتح بعد الموت قسرا مشاربه
إذا ما أكلتم خبزكم وخزيرَكم[2] ... فكلكم باكى الوليد ونادبه

ثم إن الناس تراضوا وعرفوا أنما يخشى القوم السبة ، فعطتهم خزاعة بعض الدية وانصرفوا عن بعض ، فلما اصطلح القوم قال الجون بن أبى الجون :

---

(١) كانت الظهران والأراك منازل بنى كعب من خزاعة .

(٢) الخزير : الحساء من الدسم .

وقائلة لما اصطلحنا تعجبا لما قد حملنا للوليد وقائل
ألم تقسموا تؤتوا الوليد ظلامة ولما تروا يوما كثير البلابل
فنحن خلطنا الحرب بالسلم فاستوت
فأم هواه آمنا كلّ راحل

ثم لم ينته الجون بن أبى الجون حتى افتخر بقتل الوليد وكان ذلك باطلا ، فلحق بالوليد وبولده وقومه من ذلك السبة ، فقال الجون بن أبى الجون :

ألا زعم المغيرة أن كعبا بمكة منهم قدر كثير
فلا تفخر مغيرة أن تراها بها يمشى المعلهَج والمهير(١)
بها آباؤنا وبها ولدنا كما أرسى بمثبته ثبير(٢)
وما قال المغيرة ذاك إلا ليعلم شأننا أو يستثير
فإن دم الوليد يُطل إنا نطل دماء أنت بها خبير
كساه الفاتك الميمون سهما زعافا وهو ممتلىء بهير(٣)
فخر ببطن قلة مسلحبًا(٤) كأنه عند وجبته بعير
سيكفينى مطال أبى هشلم صغار جعدة الأوبار خور(٥)

وكان أبو سفيان بسوق ذى المجاز فعدا هشام بن الوليد على أبى

---

(١) المعلهج : المطعون فى نسبه ، والمهير : الصحيح النسب .
(٢) ثبير : جبل بمكة
(٣) البهير : المنقطع النفس من الأعياء .
(٤) المسلحب : الممتد ، والوجبة : السقطة .
(٥) الخور : الفراء اللين .

أزيهر فقتله بعقر الوليد الذى كان عنده لوصية أبيه إياه في السوق ، وبلغ الخبر مكة فخرج يزيد بن أبي سفيان فجمع بني عبد مناف ليثأر لأبي أزيهر فعاتكة بنت أبي أزيهر كانت عند أبي سفيان ، فحسب الناس أن أبا سفيان سيثيرها حربا بين بنى أمية وبنى مخزوم فقالوا :

ــ أخفر (١) أبو سفيان فى صهره فهو ثائر به .

فلما سمع أبو سفيان بالذى صنع ابنه يزيد انحط سريعا إلى مكة وخشى أن يكون بين قريش حدث فى أبى أزيهر ، فأتى ابنه وقد لبس عدة القتال وكان فى قومه من بنى عبد مناف ، فأخذ الرمح من يده ثم ضربه به على رأسه هده منها ثم قال له :

ــ قبحك الله ! أتريد أن تضرب قريشا بعضهم ببعض فى رجل من دوس . سنؤتيهم العَقل (الدية) إن قبلوه .

وكان دفع الدية إطفاء لنار الحرب التى كادت أن تنشب بين قبائل قريش ، وكان المسلمون يرجون أن يشب لهيبها توهينا لعدوهم الألد ، فانبعث حسان بن ثابت يحرض فى دم أبى أزيهر ويعير أبا سفيان خُفرته وُيجبنه فقال :

غدا أهل ضوجى (٢) ذى المجاز كليهما
وجار ابن حرب بالمغمس ما يغدو
ولم يمنع العير الضروط ذماره
وما منعت مخزاة والدها هند

---

(١) الخفر : الغدر .

(٢) ضوجى : جانب الوادى .

كساهـا هشام بـن الوليـد ثيابـه
فأبـل وأخلـف مثلهـا جـددا بعـد
قضى وتـرا منـه فأصبـح ماجـدا
وأصبحت رخوا ما تخب وما تعدو
فلـو أن أشياخـا بيـدر تشاهـدوا
لبـل نعـالَ القـوم معتبـط ورد(١)

فلما بلغ أبا سفيان قول حسان قال :

ـــ يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض فى رجل من دوس ! بئس والله ما ظن .

وطال غياب الوليد بن الوليد بمكة فظن المسلمون بالمدينة أنه حبس ، فكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا ما رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتره دعا :

ـــ اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد .

وراح الوليد بن الوليد ينقب عن محبس عياش بن أبى ربيعة حتى لقى امرأة تحمل طعاما فقال لها :

ـــ أين تريدين يا أمة الله ؟

ـــ أريد هذا المحبوس .

ففطن إلى أنها فى طريقها إلى عياش بن أبى ربيعة فتبعها حتى عرف موضعه وكان محبوسا فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليه ثم

---

(١) معتبط ورد : الدم العبيط (الطرى) .

أخذ مروة (حجرا) فوضعها تحت قيده ثم ضرب القيد بسيفه فقطعه ، فكان يقال لسيفه : « ذو المروة » ثم حمله على بعيره وساق به فعثر فدميت أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت   وفى سبيل الله ما لقيت

ثم قدم به على رسول الله — ﷺ — المدينة فتهللت بالبشر لوصولهما سالمين أسارير المسلمين .

وبينا عياش يسير بظهر قباء إذ لقى الحارث بن يزيد فتذكر فى لحظة ما كان من الحارث يوم أن جاء إليه أبو جهل والحارث بن هشام لما هاجر أول مرة ، لقد خدعاه وقالا له إن أمه قد حلفت لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يرجع إليها ، فرق لها وعاد معهما . أوثقه قومه وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ، ثم أتاه الحارث بن زيد وقال :

— يا عياش ، لئن كان الذى كنت عليه هدى لقد تركت الهدى ، وإن كان ضلالة لقد كنت عليها .

فغضب عياش من مقاله وقال :

— والله لا ألقاك خاليا إلا قتلتك .

وإنه ليلقاه خاليا الساعة فحمل عليه فقتله ، فقال الناس فى فزع :

— أى شىء صنعت ؟ إنه قد أسلم .

فرجع عياش إلى رسول الله ﷺ — فقال :

— يا رسول الله كان من أمرى وأمر الحارث ما قد علمت ، وإنى لم أشعر بإسلامه حين قتلته .

وأطرق رسول الله — ﷺ — وشق ذلك على عياش ، حتى نزل

الوحي عليه ﷺ بقوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما ﴾(١) .

---

(١) النساء ٩٢

١٦

كانت صدور أهل مكة تغلى بالحقد للخزى الذى نالهم فى بدر ، وكان يزيد فى حنقهم آيات الله التى تصل إليهم من المدينة تسجل عليهم العار والاندحار وتخزهم وخزا أليما . وكان حكيم بن خزام يرتجف فرقا كلما رن فى أغواره قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ٭ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ٭ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾(١) . فهو يتذكر المطعمين فى بدر وما حاق بهم فينزل به رعب شديد .

إن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قد قتل وإن كان محمد ابن عبد الله قد قال لأصحابه : « من ظفر به منكم فليتركه لأيتام بنى نوفل » . وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس كانا أول من ذاق الموت فى المعركة ، وترك على بن أبى طالب زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ونوفل بن خويلد بن العدوية كأمس الدابر وأردى أبا جهل قتيلا ابنا عفراء ، وقتل أمية بن خلف وابنا الحجاج نبيه ومنبه ، فما أطعم أحد ببدر إلا قتل إلا هو لا يدرى الحكمة قد نجاه الله أم أن القتل يتربص به !

---

(١) الأنفال : ٣٦ ، ٣٧

إن جلده يقشعر من الخوف حتى بات يخشى الوحدة حتى لا تفترسه أفكاره فكان يفزع إلى نوادى قومه . وبينا كان جالسا مع أبى سفيان بن حرب وصفوان بن أمية ومن بقى من شيوخ قريش حتى قال قائل :

— إن ثأرنا بأرض الحبشة فلنرسل إلى ملكها ليدفع إلينا من عنده من أتباع محمد فنقتلهم بمن قتل منا .

انهزموا فى المعركة واستأصل المسلمون وجوههم فلم يبحثوا إلا عن نصر رخيص يشفى غليل نفوسهم ، فأرسلوا عمرو بن العاص صديق النجاشى الحميم ، وعبد الله بن أبى ربيعة إلى النجاشى ليدفع إليهما من عنده من المسلمين .

وركب عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة سفينة وقد حملا معهما هدايا عظيمة . وما إن أقلعت حتى راح الذين تنز أفئدتهم بالحقد على على بن أبى طالب لقتل آبائهم أو إخوتهم أو أزواجهم أو أبنائهم وما أكثرهم ! يمنون النفس بأن يدفع النجاشى إليهم جعفر بن أبى طالب ليقتلوه انتقاما لأهليهم الذين سفحت دماؤهم فى بدر .

إن عليا هناك فى المدينة قد ذاع صيته بعد أن جدل صناديد قريش ، وإن أسد الله حمزة فى حصن من المهاجرين والأنصار وقتلهما ليس أمرا ميسورا ، وإن كانت هند بنت عتبة قد قتلتهما مرارا فى خيالها ثأرا لأبيها وأختها وعمها . فما دام الانتقام من هذين اللذين فعلا فى قريش الأفاعيل بعيد المنال فقتل جعفر ومن معه من المسلمين فيه كثير من العزاء .

وكان رسول الله — ﷺ — قد بعث رسولا إلى النجاشى يحمل

إليه أنباء انتصار بدر ، فركب الرسول السفينة من ينبع وانطلق بها إلى الحبشة وهو يتلو الآيات التى نزلت فى الأنفال وفى بدر ، فيسبقه خياله فيرى نفسه بين جعفر بن أبى طالب والذين معه من المسلمين وهم يصغون إليه مستبشرين وهو يقرأ : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾(١) .

وبلغت السفينة أرض الحبشة فانطلق رسول الله — ﷺ — إلى قصر النجاشى واستأذن فى الدخول عليه ، فلما مثل بين يديه لم يخر له ساجدا بل سار مرفوع الرأس يعلوه الوقار يترقرق الورع فى محياه . حتى إذا دنا من الجالس على العرش ألقى عليه تحية الإسلام فرد عليه النجاشى تحيته ثم أجلسه إلى جواره .

وراح الرجل يقص على النجاشى أنباء بدر ونصرة رسول الله ﷺ ففضه النجاشى وراح يقرؤه فإذا بالنبى عليه السلام يوصيه فيه على المسلمين .

وأرسل النجاشى إلى جعفر بن أبى طالب وإلى أصحابه الذين معه بالحبشة فدخلوا عليه فوجدوه جالسا على التراب لابسا أثوابا خلقة ، فقالوا له :

---

(١) آل عمران : ١٢٣ — ١٢٦

— ما هذا أيها الملك ؟

فقال النجاشي وقد تهللت أساريره :

— إني أبشركم بما يسركم . إن الله عز وجل قد نصر نبيه وأهلك عدوه أبا جهل بن هشام وأمية بن خلف والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، التقوا بمحل يقال له بدر كثير الأراك كنت أرعى فيه غنما لسيدي من بني ضمرة .

إن النجاشي لا ينسى تلك الأيام التي باعوه فيها عبدا وقد حمله سيده إلى بلاد العرب ولولا لطف الله لبقي رقيقا ولما عاد إلى عرش آبائه ، وإنه ليفتأ يذكر تلك الأيام كلما اجتمع بالمسلمين بالحبشة أو وفد إليه رسل من أرض العرب ، فقال له جعفر :

— مالك جالس على التراب عليك هذه الأخلاق ؟

— كان عيسى عليه السلام إذا حدث له من الله نعمة ازداد تواضعا ، فلما أحدث الله تعالى نصرة نبيه — ﷺ — أحدثت هذا التواضع .

وكان جعفر ومن معه من المسلمين في لهفة لسماع أنباء انتصارات بدر فاجتمعوا برسول رسول الله — ﷺ — وألقوا إليه أسماعهم والرجل يحدثهم بأخبار النصر المبيين ويتلو عليهم آيات الله : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون * وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون * إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة

مردفين * وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾(١) .

واستمر يتلو عليهم ما أنزل الله على رسول الله — ﷺ — من سورة الأنفال وهم يصغون إليه وقد ترقرقت العبرات فى العيون ، فنصر الله لعباده كان أعظم من أمانيهم وأكبر من أحلامهم وما كانوا يأملون .

ودخل عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة رسولا قريش على النجاشى وهما يحملان الهدايا فى نفس الوقت الذى كان يخرج فيه رسول رسول رب العالمين ، فاختلس عمرو إليه نظرة ثم تقدم ليخر ساجدا بين يدى النجاشى .

وأمره النجاشى أن يرفع رأسه وأن يجلس إلى جواره ففعل عمرو ، فقال له النجاشى :

— مرحبا بصديقى ، أهديت لى من بلادك شيئا ؟

— نعم أيها الملك ، أهديت لك أدما كثيرا .

ثم قربه إليه فأعجبه وفرق منه أشياء بين بطارقته ، وأمر بسائره فأدخل فى موضع وأمر أن يكتب ويحتفظ به ، فلما رأى عمرو طيب نفسه قال :

— أيها الملك إنى رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول عدو لنا قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا ، فاعطنيه فأقتله .

فغضب النجاشى ثم رفع يده فضرب بها أنف عمرو ضربة ظن أنه قد كسره ، فجعل عمرو يتقى الدم بثيابه فأصابه من الذل ما لو انشقت

---

(١) الأنفال : ٥ — ١٠

له الأرض لدخل فيها فرقا منه ثم قال :

— أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتكه .

ورد النجاشي عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة خائبين ، ثم بعث إلى رسول الله — ﷺ — من خيار أصحابه ثلاثين ليهنئوه بنصر الله ، فلما سار الرجال بملابسهم الدينية في المدينة اشرأبت إليهم الأعناق ، وأحس اليهود غيرة أن علا شأن رسول الله عليه السلام ، وأبدى المنافقون بأفواههم غير ما يملأ أفئدتهم من حقد على بني الإسلام ، وفاضت قلوب المؤمنين بالبشر والاستبشار .

وانطلق الرجال إلى مسجد الرسول يحملون إليه تحيات النجاشي وتهنئته وأطيب التمنيات . واستقبلهم عليه السلام بالترحاب ثم دار بين الجانبين حوار ودي فقرأ عليهم رسول الله — ﷺ — : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم * إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين * واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا

إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * ومال لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * إنى إذا لفى ضلال مبين * إنّي آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربى وجعلنى من المكرمين ﴾(١) .

واستمر رسول الله ﷺ يتلو سورة يس ورهبان الحبشة يصغون إليه وقد جاشت صدورهم بمشاعر رقيقة ، وما لبثوا أن انهمرت الدموع من العيون من أثر الانفعال الشديد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنو اليهود والذين أشركوا * ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بإن منهم قسيسين ورهبان وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾(٢) .

---

(١) يس : ١ — ٢١

(٢) المائدة : ٨٢ — ٨٥

١٧

تدفقت الأموال من مكة إلى المدينة في فداء أسرى بدر ، وقد أخذ رسول الله ﷺ نصيبه في الغنائم وفى الأموال ولكنه لم يحتفظ منها بشيء بل رد كل ما أخذ على فقراء المسلمين ، فقد كان عليه السلام إمام الزاهدين وكان يقول :

ـ أفلح الزاهد فى الدنيا ، حظى بعز العاجلة وبثواب الآخرة .

فهو عليه السلام يرى أن من أصبحت الدنيا همه وتسترقه نزع الله الغنى من قلبه وصير الفقر بين عينيه ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبحت الآخرة همه نزع الله الفقر من قلبه وصير الغنى بين عينيه وأتته الدنيا وهى راغمة .

وكان على بن أبى طالب ربيب رسول الله ﷺ ، وله فيه أسوة حسنة ، وقد كان نصيب على فى غنائم بدر عظيما فالدروع فى قريش يوم بدر كانت كثيرة فلما انهزموا جعلوا يلقونها وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقطون ما طرحوا ، ولقد التقط منها على الكثير وأخذ نصيبه من الأنفال والأموال ، ولو شاء أن يتاجر فى أمواله لكان من أغنياء المسلمين ولكنه كان زاهدا كابن عمه عزت عليه نفسه فهانت عليه الدنيا ، فحب الدنيا رأس كل خطيئة ، واقتناء المال فيها داء عظيم لا يسلم صاحبه من البغى والكبر ، فإن سلم منهما يشغله إصلاحه عن ذكر الله .

إنه يطمع فى أن يكون من المتقين فيدع ما ليس به بأس حذرا عما به بأس ، فكان يخرج عن كل ماله ويؤثر أن يكون فقيرا من أن يكون غنيا فى أمواله بأس ، ويرضى بالجوع ففيه مذلة للنفس وحياة للقلب وقد منع نفسه من الشهوات لكرامة نفسه عليه .

عرف بعد بدر بفارس الإسلام ولم يكن له من قبل ذكر إذا ما ذكرت الحروب ، وقد سمع كثيرا من الإطراء فما زاده المديح إلا تواضعا . وكان يدخل دار رسول الله ﷺ ، ويرى فاطمة الزهراء وأم كلثوم فلا يخطر له الزواج على قلب وإن كانت فاطمة قد صارت زهرة متفتحة فى السادسة عشرة من عمرها . فقد كان مشغولا عن دنياه بالنور الذى ملأ فؤاده .

وجاء أبو بكر الصديق إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب فاطمة فأطرق عليه السلام قليلا ثم قال :

ـ انتظر بها القضاء .

وسمعت فاطمة ولا ريب بخطبة الصديق إياها وفكرت فى الرجل وفيما قال له أبوها فلم تفهم شيئا ، وترقبت ذلك القضاء الذى ينتظره رسول الله ﷺ .

وجاء عمر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب فاطمة فقال له عليه السلام :

ـ انتظر بها القضاء .

ودار حديث فى الدار بين فاطمة الزهراء وأم كلثوم وأم أيمن حول خطبة عمر لفاطمة الزهراء ورفض الرسول ـ ﷺ ـ ذلك الزواج فى كياسة وأدب وذلك القضاء الذى ينتظره رسول الله عليه السلام ، ولم

يؤد الحوار إلى حقيقة تطمئن إليها قلوب أهل البيت التى كانت حائرة قلقة .

وفطن أبو بكر وعمر إلى أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد ادخر الزهراء لعلى بن أبى طالب ، فجاءا إلى على يأمرانه أن يخطبها فنبهاه لأمر كان عنه غافلا ، فجاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ تزوجنى فاطمة .

فأمهله عليه السلام حتى يستشيرها ، فدخل عليها فقال :

ـــ أى بنية إن ابن عمك عليا قد خطبك فماذا تقولين ؟

فبكت ثم قالت :

ـــ كأنك يا أبت إنما ادخرتنى لفقير قريش .

ـــ مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما . ما آليت أن أزوجك خير أهلى . والذى بعثنى بالحق ما تكلمت فى هذا حتى أذن لى الله فيه من السماء .

ـــ رضيت بما رضى الله ورسوله .

وتهلل وجه رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالبشر وخرج إلى ربيبه وابن عمه وقال له :

ـــ هل عندك من شىء ؟

ـــ كلا .

ـــ وأين درعك الحطمية (التى تحطم السيوف) .

ـــ عندى .

ودفع على بالدرع إلى غلامه ليبيعها فانطلق بها إلى السوق ، وبينا هو يبيعها بأربعمائة درهم إذ رآه عثمان بن عفان فقال :

ـ هذه درع على فارس الإسلام لا تباع أبدا .

فدفع لغلام على أربعمائة درهم وأقسم أن لا يخبره بذلك ورد الدرع معه .

وقال النبي ـ ﷺ ـ لأنس بن مالك .

ـ انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار .

فانطلق ودعاهم ، فلما أخذوا مجالسهم التفت عليه السلام إلى على وقال :

ـ يا على اخطب لنفسك .

فقام على فقال :

ـ الحمد لله شكرا لأنعمه وأياديه ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه ، وهذا محمد رسول الله ـ ﷺ ـ زوجنى ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهدوا .

ـ ما تقول يا رسول الله ؟

ـ الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب إليه من عذابه ، النافذ أمره في أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ .

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا ، وأمرا مفترضا ، وحكما عادلا ، وخيرا جامعا ، أوشج بها الأرحام ، وألزمها الأنام ، فقال الله عز وجل : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا

وصهرا وكان ربك قديرا ﴾[١] . وأمر الله يجرى إلى قضائه وقضاؤه يجرى إلى قدره ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم أننى زوجت فاطمة من على على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وخر على ساجدا شكرا لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول ﷺ :

ـــ بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب .

ثم أمر لأصحابه بطبق فيه تمر فوضع بين أيديهم فقال :

ـــ انتهبوا .

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم (إناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان .

وجاءت ليلة الزفاف فأولم رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيها بكبش من عند سعد بن معاذ وآصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار ، وقال لعلى :

ـــ لا تحدث شيئا حتى تلقانى .

فجاءت بها أم أيمن حتى قعدت فى جانب البيت وعلى فى جانب

---

(١) الفرقان : ٥٤

آخر .

وجاء رسول الله — ﷺ — فقال لفاطمة :

— ائتنى بماء .

فقامت تعثر فى ثوبها من الحياء فأتته بقعب فيه ماء ، فأخذه رسول الله — ﷺ — ثم قال لها :

— تقدمى .

فتقدمت يفوح منها عطر طيب فقد أمر رسول الله — ﷺ — بلالا بأن يشترى طيبا بثلث الصداق ، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال :

— اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

ثم قال :

— ائتونى بماء .

فعلم على الذى يريد فقام وملأ القعب فأتاه به ، فأخذه وصنع به كما صنع بفاطمة ودعا له بما دعا لها به ثم قال :

— اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما فى شملهما .

وتلا المعوذتين ثم قال :

— ادخل بأهلك باسم الله والبركة .

ومكث ﷺ ثلاثة أيام لا يدخل على فاطمة ، وفى اليوم الرابع دخل عليهما فى غداة باردة وهما فى قطيفة لهما إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رءوسهما ، فلما رأياه هما بالنهوض فقال لهما :

— كما أنتما .

وجلس عند رأسهما ثم أدخل قدميه وساقيه بينهما ، فأخذ على كرم

الله وجهه إحداهما فوضعها على صدره وبطنه ليدفئها ، وأخذت فاطمة رضى الله عنها الأخرى فوضعتها كذلك . وراح على بن أبى طالب الذى لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره يصغى إلى رسول الله — ﷺ — ويتلقى منه الحكمة ليقول ذات يوم :

— لا يخافن أحد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه . ولا يستحى من لا يعلم أن يتعلم ، ولا من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم . ما أبردها على الكبد إذا سئلت عما لا أعلم ، أن أقول الله أعلم .

١٨

سيطر رسول الله ﷺ ـــ على طرق تجارة قريش المتجهة إلى الشام والعراق وأصبح يهدد الطريق إلى نجد بعد انتصاره الساحق فى بدر ، وقد أحس المكيون خطورة تحكم رسول الله ﷺ فى طرق قوافلهم المتجهة إلى الشمال منذ أن لحقت بهم الهزيمة فرأوا أن لا مناص من جولة ثانية مع المسلمين لوضع حد لذلك الموقف الخطير إن أرادوا ألا تختنق مكة اقتصاديا ، فما إن رجع من حضر بدرا من المشركين إلى مكة ووجدوا العير التى قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة فى دار الندوة لم يحركها أبو سفيان ولم يفرقها لغيبة أهل العير ، حتى مشت أشراف قريش إلى أبى سفيان : الأسود بن عبد المطلب بن أسد وجبير بن مطعم وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل والحارث بن هشام وعبد الله بن أبى ربيعة وحويطب بن عبد العزى فقالوا :

ـــ يا أبا سفيان انظر هذه العير التى قدمت بها فاحتبسها فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش ، وهم طيبو الأنفس يجهزون بهذه العير جيشا كثيفا إلى محمد ، فقد ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرنا .

فقال أبو سفيان :

ـــ وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟

ـــ نعم .

ـــ فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فأنا والله الموتور والثائر وقد قتل ابنى حنظلة ببدر وأشراف قومى .

ولم يعجب ذلك القرار بعض أصحاب الأموال فى القافلة فدار حوار بين الناس انتهى بأن قالوا :

ـــ بع العير ثم اعزل أرباحها .

كانت ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار وكانوا يربحون فى تجارتهم للدينار دينارا ، فعزل أبو سفيان الأرباح وأعاد إلى الناس رءوس أموالهم ، وحبس عير بنى زهرة لأنهم رجعوا من طريق بدر ، وسلم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبنى أبيه وبنى عبد مناف بن زهرة ، فأبى مخرمة أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بنى زهرة جميعا ، وتكلم الأخنس فقال :

ـــ وما لعير بنى زهرة من بين عيرات قريش ؟!

قال أبو سفيان :

ـــ لأنهم رجعوا عن قريش .

ـــ أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقدْ أحرزنا العير لا تخرجوا فى غير شيء فرجعنا . فاخذت بنو زهرة عيرها وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة كل ما كان لهم فى العير ، وعزل أبو سفيان أرباح القافلة وراح ينفقها فى التأهب لغزو المدينة ليقضى على محمد وأنصاره تأمينا لطريق القوافل إلى الشام والعراق .

وكانت قريش تعتمد على تأييد القبائل القريبة من المدينة ، بنى سليم فى الجنوب وغطفان فى الشرق . وكان رسول الله ﷺ ـــ يعلم ما بين قريش وسليم من ود فخشى أن تتحرك سليم عقب هزيمة قريش

في بدر وتدهم المدينة ثأرا لحلفائهم سادات قريش الذين تجرعوا غصص الموت ، فما إن قدم رسول الله — ﷺ — المدينة من بدر ولما ينقض إلا سبع ليال خرج ليغزو بنفسه بني سليم ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري . ودفع إلى علي بن أبي طالب لواءه وكان أبيض، ثم تقدم بالمسلمين حتى بلغ ماء من مياههم يقال له الكدر، فأقام على ذلك ثلاث ليال وقد علمت بنو سليم بذلك فلم يحركوا ساكنا وآثروا السلامة ، فرجع إلى المدينة بعد أن ألقى الرعب في قلوب أعدائه ، وحذر بني سليم وغطفان تحذيرا عمليا أن أي حركة عدائية ستقابل بالردع الشديد .

وورمت أنوف اليهود بعد انتصار المسلمين في بدر وأكل الحسد أكبادهم ، فرأوا أن يعملوا على توهين المسلمين على الرغم من المعاهدة التي عقدها رسول الله — ﷺ — بين المهاجرين والأنصار واليهود . والتي تعاهدوا فيها أن يكونوا يدا واحدة على أعدائهم ، فلاذ كعب بن الأشرف بمكة يرثي قتلى قريش ويحرضهم على الثأر . وأخذ اليهود في الأسواق يعملون جاهدين على تقليل شأن انتصار المسلمين في بدر ويحاولون تحريك الأحقاد التي كانت بين الأوس والخزرج والتي نجح الإسلام في اجتثاثها من أساسها .

وقامت مشكلات بين المسلمين من المهاجرين والأنصار وبين المسلمين واليهود حول توزيع المياه كان رسول الله يفصل فيها بحكمته ، فلما اختصم إليه في مهزوز وادي بني قريظة قضى أن الماء إلى الكعبين لا يحبس الأعلى على الأسفل . وحدث أن خاصم رجل من الأنصار الزبير بن العوام في شرج من شروج الحرة فقال رسول الله

ﷺ :

— اشرب يا زبير ثم خل سبيل الماء .

قضى عليه السلام بأن يروى الزبير أرضه ثم يدع الماء للأنصارى فإذا بالأنصارى يقول :

— العدل يا رسول الله وإن كان ابن عمتك .

فتغير وجه رسول الله — ﷺ — حتى عرف أن قد ساءه ما قال ، فقال :

— يا زبير احبس الماء حتى يبلغ الكعبين ثم خل سبيل الماء .

كانت قريش تتاهب لتثب على المسلمين من الخارج ، وكان اليهود يتربصون بهم ليطعنوهم من الداخل ، وكان المنافقون وقد عميت قلوبهم التى فى صدورهم يودون أن تكون الدائرة على المسلمين . وكانت بعض خلافات تنشب بين الأنصار والمهاجرين كان عليه السلام يعمل على إطفائها سريعا ليتفرغ للخطر الخارجى حتى لا يدهم المدينة فجأة ، وللخطر الداخلى الذى يتحفز للتحرك فى أية لحظة .

كان الجو مشحونا بالخطر وكانت العداوة قد بلغت ذروتها بين مكة والمدينة ، ولكن الأنصار كانوا يرون أن هذه العداوة لن تحول دون خروج المدنيين معتمرين إلى البيت العتيق ، فالعهد بقريش ألا يعرضوا لحاج ولا معتمر إلا بخير . فبينا كان سعد بن النعمان بن أكيال أخو بنى عمرو بن عوف فى غنم له فى النقيع ، إذ خرج من هناك معتمرا ومعه امرأة له .

كان سعد شيخا قد هوى فؤاده إلى الحرم فانطلق هو وامرأته وفى

صدريهما نشوة روحية غامرة ، فلما أتيا الكعبة طفقا يطوفان بها وقد نزل بهما أمن وسلام . وفيما هما غارقان في مناجاة ربهما إذا بأبي سفيان يعدو على سعد ويحبسه بابنه عمرو الذى كان في يد رسول الله — ﷺ — وأبى أن يفديه .

وارتفعت أصوات استنكار ما لبثت أن أخمدت ، فأم عمرو بن أبي سفيان كانت بنت عقبة بن أبي معيط من قتله محمد عليه السلام صبرا ، فغدت تؤيد أبا سفيان فيما فعل ، وكذلك كانت زوجه هند بنت عتبة وكل الموتورين .

وقال أبو سفيان :

أرهط ابن أكيال أجيبوا دعاءه
تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا
فإن بني عمرو لئام أذلة
لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكهلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

لو كان سعد يوم مكة مطلقا
لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا
بعضب حسام أو بصفراء نبعة
تحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا(١)

وتريث بنو عمرو بن عوف لعل الحمس من أهل الحرم يستنكرون

---

(١) العضب : السيف القاطع . الصفراء : القوس . والنبع : شجر تصنع منه القسى . وتحن : أى يصوت وترها . والأنباض : أن يحرك وتر القوس . وتحفز النبل : أى تقذف به وترميه .

فعلة أبى سفيان ، ولكن الوقت يمر والشيخ محبوس فى مكة وأبو سفيان مصر على أن لا يطلق سراحه قبل أن يخلى المسلمون سبيل ابنه عمرو . فمشوا إلى رسول الله — ﷺ — وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم ، ولما كان رسول الله عليه السلام لا يسأله سائل عن شىء إلا أعطاه إياه ، فقد دفع إليهم بعمرو فدفعوا به إلى أبى سفيان ، فخلى سبيل سعد بعد أن أهدر حرمة الحرم الذى كان آمنا .

١٩

أسلم عبد الله بن أبي بن سلول لما وجد أن قومه قد أسلموا جميعا ولكن مرض قلبه لم يبرأ ، فقد كان يحقد في دفينة نفسه على نبي الإسلام والمسلمين ، فلم ينس أبدا أن هجرة رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة قد حرمته التاج الذي كاد الأوس والخزرج أن يضعوه فوق رأسه .

وكان حليفا لبني قينقاع وكانوا أشهر قوم من اليهود وأشجع يهود ، وكانوا صاغة فغدا يمضي بعض الوقت في حوانيتهم يشاركهم في الاستهزاء برسول الله عليه السلام وبالمسلمين . وقد كانت المرارة ترفرف على شفتيه بعد انتصار المسلمين على قريش في بدر ، ولولا نفاقه لخرج إلى قريش كما خرج كعب بن الأشرف ورثى قتلى بدر بأحر الدموع .

وكان بنو قينقاع أول من نبذ العهد فقد عاهدهم رسول الله ـ ﷺ ـ وعاهد بني قريظة وبني النضير على أن ينصروه على من دهمه من عدوه ، فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي وأعلنوا على الملأ بأفعالهم وسخريتهم من المسلمين نبذهم العهود .

جاءت امرأة من العرب بإبل وأغنام فباعتها بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ منهم ، فجعل جماعة من اليهود يراودونها عن كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى

ظهرها وهى لا تشعر ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون وأطلت الحرب بخطمها . ورأى رسول الله — ﷺ — قبل أن يعلنها حربا على اليهود أن يستنفد كل وسائل السلام فجمع أصحابه وعبادة بن الصامت وعبد الله بن أبى بن سلول فقد كانا حليفين لبنى قينقاع ، وقال — ﷺ :

— ما على هذا أقررناهم .

فقال عبادة بن الصامت :

— يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار .

تبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم وتشبث به عبد الله بن أبى بن سلول ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين * فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين * يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة

ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾(١) .

وجمع رسول الله عليه السلام بني قينقاع وقال لهم :

ــ يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فإنكم عرفتم أني مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله تعالى إليكم .

فقالوا مستهزئين :

ــ يا محمد إنك ترى أنا قومك ولا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة ، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

واتخذوا المسلمين هزوا وطفقوا يقولون ضاحكين إن محمدا يظننا أنا مثل قومه ، والله لو قاتلنا ليعلمن أنه لم يقاتل مثلنا . وقد غرهم أنهم أشجع اليهود وأكثرهم أموالا وأشدهم بغيا . فأنزل الله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد * قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾(٢) . وأنزل تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين * ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون * وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله

---

(١) المائدة ٥١ ــ ٥٦

(٢) آل عمران ١٢ ــ ١٣

يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾(١) .

وتحصن بنو قينقاع في حصونهم بعد أن أبو أن يجنحوا للسلم ، فسار إليهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولواؤه الأبيض بيد عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله الذى ينزل الرعب في قلوب أعداء الله الذين يريدون أن يطفئوا نور الله جاهدين ، واستخلف ـــ ﷺ ـــ على المدينة أبا لبابة وضرب حصارا على حصون اليهود .

كان الشهر شوال وكان القمر بدرا وكان اليهود يطلون من الحصون فيرون المسلمين وقد التفوا بالحصون كالأسود فتنخلع أفئدتهم من الرعب ، ويتذكرون ما نال صناديد قريش في بدر ، قتل الفرسان وأسر الشجعان وهرب على رجليه سادات الناس : فحكيم بن حزام أطلق ساقيه للريح ، وفارس الفرسان عمرو بن عبد ود نجا هاربا على قدميه وهو شيخ كبير ، وخرج من المعركة جريحا فوصل إلى مكة وهو مشرف على الهلاك . وطفقت أشباح معركة بدر تتخايل لهم فتفت في عضدهم وتضعف من روحهم وتزلزل الأرض تحت أقدامهم وتجعل أفئدتهم هواء .

وانقضت خمس عشرة ليلة وبنو قينقاع في حصونهم قد قذف الله الرعب في قلوبهم ، كانوا أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع وكانوا قادرين على القتال ولكنهم آثروا السلامة ورأوا أن يسلموا قبل التقاء الجيشين ، فسألوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يخلى سبيلهم وأن يجلوا من المدينة وأن لهم نساءهم والذرية وله ـــ ﷺ ـــ الأموال

---

(١) الأنفال : ٥٨ ـــ ٦٠

والسلاح .

ونزلت بنو قينقاع فأمر رسول الله ﷺ — أن يكتفوا فكتفوا ، فكلمه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول وألح عليه فقال :

— يا محمد أحسن في موالي .

فأعرض عنه — ﷺ — فأدخل يده في جيب درع رسول لله — ﷺ — من خلفه ، فقال له عليه السلام :

— ويحك أرسلني .

وغضب رسول الله — ﷺ — حتى رأوا لوجهه سمرة لشدة غضبه ، ثم قال :

— ويحك أرسلني .

— والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي فإنهم عترتي وأنا امرؤ أخشى الدوائر .

— خذهم لا بارك الله لك فيهم .

وأمر — ﷺ — أن يجلوا من المدينة ووكل بإجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاثة أيام .

وجاء ابن أبي بن سلول إلى منزله — ﷺ — يسأله في إقرارهم فحجب عنه ، فأراد الدخول فدفعه بعض الصحابة فصدم وجهه الحائط فشجه فانصرف مغضبا .

وانقضت الأيام الثلاثة فجاءوا إلى عبادة بن الصامت فسألوه أن يمهلهم فوق الثلاث ، فقال :

— لا ولا ساعة واحدة .

وبلغهم ما نال أبيّ بن سلول (أبو الحباب) على أيدي صحابة

رسول الله عليه السلام فقالوا :

— لا نمكث ببلد يفعل فيه بأبى الحباب هذا ولا ننتصر له .

وخرجوا أذلة من المدينة ليذهبوا إلى أذرعات بالشام .

وكانت أموالهم فيئا لله ولرسوله لأنها لم تحصل بقتال ، ولكن رسول الله عليه السلام قسمها بينه وبين المسلمين فكان له الخمس ولأصحابه الأربعة الأخماس . وراح يوزع الخمس على ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ليعود إلى منزله وليس معه منها بيضاء ولا صفراء .

قريش تتأهب لتثأر ليوم بدر ، واليهود فى قلب المدينة يتآمرون على المسلمين ، والمنافقون يسوؤهم أن تمس المؤمنين حسنة ويفرحون إن أصابتهم سيئة ، والقرآن ينزل من السماء يجادل الكافرين ويتوعد أهل الكتاب ويكشف المنافقين ويشرع للبشر يبين لهم طريق الحلال وطريق الحرام ويهديهم إلى صراط مستقيم .

وجاء عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال :

ـ يا رسول الله إن قوما من قريظة والنضر قد هاجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا ، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل .

إن قومهم لما رأوهم آمنوا بالله ورسوله وصدقوه رفضوهم وآلوا على أنفسهم ألا يجالسوهم ولا يناكحوهم ولا يكلموهم ، فشق ذلك عليهم فأنزل الله فيهم : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾(١) .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يحذر اليهود بعد ما بدت العداوة من بنى قينقاع ويرى أنهم أهل مكر وخداع ، وقد سرق رجل من الأنصار

---

(١) المائدة ٥٥

يقال له طعمة بن أبيرق أحد بنى ظفر بن الحارث درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق ، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم :

ـــ والله ما أخذتها وما لى بها من علم .

فقال أصحاب الدرع :

ـــ بلى والله أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق .

فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودى فأخذوه ، فقال :

ـــ دفعها إلى طعمة بن أبيرق .

وشهد له أناس من اليهود على ذلك فقال بنو ظفر وهم قوم طعمة :

ـــ انطلقوا بنا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

فكلموه فى ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا :

ـــ إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرىء اليهودى .

فهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يفعل وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهود ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما * واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما * يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون

محيطا * هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا * ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما * ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما * ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا * ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما * لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما * ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نو له ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا * إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾(١) .

وكان اليهود يموجون فى المجتمع المدنى يمشون بالأراجيف ويهمسون فى آذان حلفائهم من الأنصار بأقوال مسمومة لعلها تنال من ذلك الولاء العجيب لرسول الله — ﷺ — ، جاء جماعة من اليهود إلى رجال من الأنصار يخالطونهم فقالوا لهم :

— لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر .

وقبل أن يستقر ذلك الوهم فى النفوس المؤمنة أنزل الله تعال : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من

---

(١) النساء ١٠٥ — ١١٦

فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا * وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما * إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما * فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا ﴾(١) .

وآمن عبد الله بن سلام وأصحابه بالنبى — ﷺ — فآمنوا بشرائعه وشرائع موسى ، فعظموا السبت وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعد ما أسلموا ، فأنكر ذلك عليهم المسلمون فقالوا :

— إنا نقوى على هذا وهذا .

وقالوا للنبى — ﷺ :

— إن التوراة كتاب الله فدعنا نعمل بها .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم * هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور * سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾(٢)

وكان رجال من قريش يأتون إلى رسول الله ﷺ فى المدينة يعطونه

---

(١) النساء ٣٧ — ٤٢ (٢) البقرة ٢٠٨ — ٢١١

من طرف اللسان حلاوة وإن كانت قلوبهم تفيض بالحقد ، وقد أقبل إلى النبى عليه السلام الأخنس بن شريق الثقفى حليف بني زهرة من عاد بالناس يوم بدر ، وغدا يتحدث حديثا عذبا حتى قال :

ـــ إنما جئت أريد الإسلام والله يعلم إنى لصادق .

وأعجب النبى ـــ ﷺ ـــ حديثه فغدا يقبل عليه ويتلو عليه ما أنزل من القرآن ، ثم خرج من عند رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليعود لمكة فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[١] .

وكانت القوافل تأتى إلى المدينة من الشام فتنزل فى أسواقها تبيع الخمور وتشترى التمر ، وكان المسلمون يشترون خمور الشام فما كانت الخمر قد حرمت بعد ، وقد صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما ودعا أناسا من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ فطعموا وشربوا . وحضرت صلاة المغرب فتقدم بعض القوم فصلى بهم المغرب فقرأ : قل يأيها الكافرون . فلم يقمها . فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[٢] .

وكان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث النبى ـــ ﷺ ـــ وخرجا مع تجار الشام الذين جاءوا يحملون

---

(١) البقرة ٢٠٤ ـــ ٢٠٦ (٢) النساء ٤٣

الزيت ، وكانا يؤمان المدينة كل عام مع التجار فرآهما أبوهما فلزمهما وقال :

— والله لا أدعكما حتى تسلما .

فأبيا أن يسلما فاختصموا إلى النبي — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾(١) .

فخلى الرجل سبيلهما وهو حزين .

وكان أهل المدينة فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فإن شاء أن يتزوجها تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت ، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها وضرها لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت هى فيرثها ، فتوفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية ، فقام ابن له من غيرها اسمه قيس بن أبى قيس فطرح ثوبه عليها ، فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها يضارها لتفتدى منه بمالها ، فأتت كبيشة إلى رسول الله — ﷺ — فقالت :

— يا رسول الله إن أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحى وقد أضرنى

---

(١) البقرة ٢٥٦

وطول علي ، فلا هو ينفق علي ولا يدخل بى ولا هو يخلى سبيلى .

فقال لها رسول الله ﷺ :

ــ اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله .

فانصرفت وسمعت بذلك النساء فى المدينة فأتين رسول الله عليه السلام وقلن :

ــ ما نحن إلا كهيئة كبيشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا بنو العم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا * وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا * ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ﴾[١] .

وتوفى أوس بن ثابت الأنصارى وترك امرأة يقال لها أم كحة وثلاث بنات له منها . فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما سويد وعرفجة فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته شيئا ولا بناته ، وكانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرا ، إنما يورثون الرجال الكبار وكانوا يقولون :

---

(١) النساء ١٩ ــ ٢٢

— لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة .

فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت :

— يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك على بنات وأنا امرأة وليس عندى ما أنفق عليهن ، وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيانى ولا بناته من المال شيئا وهن فى حجرى ، ولا يطعمانى ولا يسقيانى ولا يرفعان لهن رأسا .

فدعاهما رسول الله — ﷺ — فقالا :

— يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكى عدوا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن .

فانصرفوا فأنزل الله تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا * وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا * وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾(١) .

ولما أنزل الله تعالى على رسوله : ﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير ﴾(٢) . اشتد ذلك

---

(١) النساء ٧ — ٩ (٢) البقرة ٢٨٤

على أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ ودخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من قبل ، فجاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبي ــ ﷺ ــ فجثوا على الركب وقالوا :

ــ يا رسول الله والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية . إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأن له الدنيا وما فيها ، وإنا لمؤاخذو ن بما نحدث به أنفسنا هلكنا والله .

فقال النبي ــ ﷺ :

ــ هكذا أنزلت .

فقالوا :

ــ هلكنا وكلفنا من العمل ما لا نطيق .

ــ فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا .

ــ سمعنا وأطعنا .

واشتد ذلك عليهم وأنزل الله تعالى على نبيه : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[١] .

ومكثوا حولا وهم في شدة يتدربون على تهذيب نفوسهم حتى لا توسوس في صدورهم بما يكرهون أن يبيحوا به ويعلنوه على الملأ .

---

(١) البقرة ٢٨٥

حتى أنزل الله الفرج والراحة بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾(١) .

(١) البقرة ٢٨٦ .

٢١

جلس أبو سفيان فى الحرم باسر الوجه مقطب الجبين فهو قد نذر يوم أصاب قريشا فى بدر ما أصابها أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا ، وها هى ذى الأيام تمر وقد اعتزل نساءه ولم يبر قسمه ، فغدا يفكر فيما يفعله ليبر يمينه التى انتشرت فى مكة انتشار الريح .

وراح أبو سفيان يستعيد تلك الأيام التى كان فيها رسول الله ـ ﷺ ـ بين ظهرانيهم فى مكة ، فإنه كان لا يسمع أحد كلامه إلا أحبه ومال إليه ، وكان الوليد بن المغيرة يحب أن يجلس إليه ويلقى إليه سمعه حتى قال أعداء ابن عبد الله :

ـ نخاف أن يصبو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد ، ولئن صبا الوليد وهو ريحانة قريش لتصبون قريش بأجمعها .

ورن فى أغوار أبى سفيان ما كان يقول الناس :

ـ ما كلامه إلا السحر .. إنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل الخمر .

ورأى سادات قريش وهم ينهون صبيانهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم بكلامه وشمائله ، فلوى شفته السفلى فى مرارة وسخرية ، فما نفع الأبناء ذلك التحذير ، بل لكأنما كان إغراء لهم على أن يرتموا فى أحضان دعوته ، سحرهم حتى هان عليهم فراق الأهل فهاجروا إلى الحبشة ثم المدينة .

وتذكر ابنته أم حبيبة ، إنها خرجت بعد أن أسلمت مع زوجها عبيد

الله بن جحش إلى الحبشة وتركته وفضلت عليه إله محمد ودين محمد ، ولكن زوجها ما لبث أن ارتد إلى النصرانية وغدا يقول لأصحاب محمد : أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد . فلماذا لم يزعزع ارتداد زوجها عن دينه ثقتها في ذلك الدين الذى ابتدعه محمد ؟ ولماذا لم تعد إليه وهو سيد قريش تلتمس منه الصفح ؟ إنها لو عادت مرتدة عن دين الإسلام لرحب بها وغفر لها زلتها وتلك المهانة التى لطخت بها بنى أمية جميعا يوم فرت بدينها إلى الحبشة .

ليت أم حبيبة تعود إليه الساعة معلنة توبتها مستغفرة عن صبوتها فإنها لو فعلت لقلبت هزيمة قريش انتصارا ، وهى أحوج ما تكون إلى تأييد معنوى يعيد إليها ثقتها التى زعزعتها هزيمة بدر .

وأطرق برأسه كأنما يعلن هزيمته ، فهو فى عين ذاته يعلم أن أم حبيبة لن تعود إليه . إنه سيصحو من نومه ذات يوم ليسمع أن ابنته قد هاجرت من الحبشة إلى حيث قد استقر المسلمون ، لكأنما قد استمرأت مهانته والهزء من بنى عبد شمس .

وراح يسأل نفسه : ما الذى استهوى أم حبيبة فى ذلك الدين ؟ وما لبث أن رأى بعين خياله رسول الله — ﷺ — وهو يصلى فى الحجر ويجهر بتلاوته والمشركون يجعلون أصابعهم فى آذانهم خوفا أن يسحرهم ويستميلهم بقراءته أو يولون على أدبارهم نفورا .

وخطر على ذهنه أبو بكر ، إنه كان تاجرا ناجحا من أثرياء مكة ، راجح العقل سيدا فى قومه ، فكيف آمن بما يدعو إليه محمد وكيف أنفق عن رضى كل أمواله فى سبيل تلك الدعوة ؟ وتحرك بخله فراح يسأل نفسه : أيرضى عن إنفاق أمواله كلها على العزى ؟ فإذا به يفزع

ويؤكد لنفسه أن ذلك ليس من العقل وأن محمدا قد سحر أتباعه ولا ريب !

وعجب في نفسه كيف يصدق أناس عقلاء أن الله يبعث بشرا رسولا . وزاد عجبه لما تذكر أشراف قريش وهم يمشون إلى ابن عبد الله يعرضون عليه أن يملكوه عليهم وأن يترك دعوته التى تفرق بين الأهل فأبى عليهم ذلك . فماذا يريد محمد أكثر من أن يسود قومه ، أن يكون فيهم مثل كسرى وقيصر ؟

كانت آمال أبى سفيان أرضية فلم يكن يجد مجدا أعظم من أن يكون المرء سيد قومه ، شريفا مطاعا صاحب السلطة العليا الذى تتعلق مصائر الناس بكلمة ترفرف على شفتيه . وقد جاء الملك إلى محمد يسعى إليه وفتحت له خزائن قومه فماذا يريد من دنياه بعد ذلك الجاه والمال والسلطان ؟!

لو قبل محمد الملك لقوض كل أحلام أبى سفيان ، ولكن أبا سفيان تمنى صادقا وهو يجرى وراء أفكاره لو أن محمدا عليه السلام قد قبل الملك الذى عرض عليه، فنار الحسد التى كانت سترعى في جوفه أهون من النار التى تأكل أحشاءه لقتل حنظلة وصناديد الرجال، ولكن الأيام جاءت بما لا يشتهى أبو سفيان فقد آمن الأوس والخزرج بدعوة محمد فأصبحت المدينة خطرا يهدد تجارة مكة وينذر بيوت المال فيها بالكساد. وقد وقع المحظور يوم بدر وأصبح طريق قوافل قريش إلى غزة فى قبضة المسلمين وطريقها إلى العراق غير مأمون، بل طريقها إلى نجد محفوفا بالأخطار. وقد أراد محمد أن يؤكد سلطانه على المنطقة فخرج إلى بنى سليم وإلى غطفان حلفاء قريش فى أصحابه ،

فآثرت بنو سليم وغطفان السلامة فانسحب الرجال إلى منازلهم تاركين عند مياههم جيش المسلمين المظفر يهنأ بالنصر فى أمان .

إن أبا سفيان قد أقسم يوم أن جاءت أنباء قتلى بدر ألا يمس النساء والطيب حتى يغزو محمدا ، فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر يمينه حتى نزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد ، ثم انطلق إلى خيبر وأتى بنى النضير تحت الليل فأتى حيى بن أخطب وضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له .

كان حيى بن أخطب قد عزم على عداوة محمد عليه السلام منذ أن وطئت قدما رسول الله — ﷺ — أرض يثرب ، وكان وأخوه أبو ياسر ابن أخطب من أشد يهود العرب حسدا وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا . فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴾(١) . وكانا مع نفر من يهود يأتون رجالا من الأنصار كانوا يخالطونهم ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله — ﷺ — فيقولون لهم :

— لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون علام يكون . فأنزل الله فيهم : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾(٢) .

---

(١) البقرة ١٠٩ (٢) النساء ٣٧

كان حيى بن أخطب من أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ — ولكنه أبى أن يفتح بابه لأبى سفيان ، فقد تذكر ما حاق ببنى قينقاع لما نقضوا عهد محمد ، إنه حاصرهم فى حصونهم وآطامهم حتى اضطروا إلى التسليم . ولولا عبد الله بن أبى بن سلول لضرب محمد أعناقهم ، فاقشعر جلد حيى وكره أن يكون نقمة على قومه فهان عليه أن يغلق بابه فى وجه سيد قريش .

وانسل أبو سفيان فى جنح الليل إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضير ، إنه صاحب كنزهم فهو الذى تودع عنده حليهم ، ولطالما جاء إليه سفيان يستعير منه الحلى لأهل مكة لقاء بعض المال . فاستأذن عليه فأذن له واجتمع به وراح يقص عليه أنه جاء فى مائتى راكب من قومه ليغزو محمدا ، فدعاه سلام إلى الطعام والشراب وراح يقص عليه خبر الناس ، ولم يستطع أن يعده بمد يد العون لرجاله إذا ما دهموا المسلمين فما حاق ببنى قينقاع كان ماثلا أمام عينيه .

وخرج أبو سفيان فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة ، فأتوا ناحية منها يقال لها العريض فحرقوا نخلا فيها ووجدوا بها رجلا من الأنصار وحليفا له فى حرث لهما فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين .

وبلغ رسول الله ﷺ — ما فعلت قريش فاستعمل على المدينة بشير ابن عبد المنذر وخرج رسول الله عليه السلام فى طلبهم فى مائتين من المهاجرين والأنصار . وخاف أبو سفيان وأصحابه أن يلحق بهم الذين خرجوا فى طلبهم فجعلوا يتخففون بإلقاء أزوادهم وكان أكثر ما طرح القوم جرب السويق ، فأخذه المسلمون ثم عادوا إلى المدنية بعد

خمسة أيام .

وراح أبو سفيان يقول :

وإني تحيرت المدينة واحدا لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقاني فرواني كميتا مدامة على عجل مني سلام بني مِشْكم
ولما تولى الجيش قلت ولم أكن لأفرحه : أبشر بعز ومغنم
تأمل فإن القوم سر وإنهم
صريح لؤي لا شماطيط[1] جرهم
وما كان إلا بعض ليلة راكب أتى ساعيا من غير خلَّة معدم

وذاع أمر غزوة السويق في القبائل فأصبح أبو سفيان سخرية القوم ومادة التندر في نواديهم ، فقد افتعل غزوة ليبر يمينه ويخدع نفسه حتى يمس النساء والطيب دون أن يخشى في ذلك لومة لائم !

---

(١) شماطيط : مختلطون .

٢٢

خرج أمية بن أبى الصلت من الشام قاصدا مكة ، فإذا به يعيش طوال الطريق مع ذكريات الأيام فيرى نفسه تارة وهو يخرج مع أبى سفيان بن حرب إلى بلاد فارس وتارة وهما ينطلقان إلى دمشق ، فقد كانا حليفين قلما يفترقان .

ومرت القافلة بصومعة راهب فإذا بالذكريات تنثال على رأسه ، إنه اعتنق النصرانية منذ الشباب وقرأ فى كتبها أن نبيا عربيا يبعث وقال له الرهبان أن قد أظل زمانه ، فكان يطمع فى أن يكون ذلك النبى وسرعان ما رأى نفسه بين نساء ثقيف يحدثهن عن ذلك النبى وأنه هو ، فأحس وهو على ظهر راحلته عرق الخجل يتصبب على وجهه ويبلل لحيته .

ورن فى أغواره ذلك الحديث الذى دار بينه وبين أبى سفيان ذات يوم ، إنه حديث قد حفر فى عين ذاته يتردد فى نفسه بين آن وآن لكأنما قد صار نشيد حياته :

ــ هيا صخر .

ــ ما تشاء ؟

ــ حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

ــ إى والله .

ــ ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

ــ إى والله .

— وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

— نعم .

— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

— لا والله لا أعلم .

— أمحوج هو ؟

— لا ، بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— قد زاد على المائة .

— فالشرف والسن والمال أزرين به .

— ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيده خيرا .

— هو ذاك .

وطفا على سطح ذهنه الحديث الذى دار بينه وبين العالم النصرانى الذى كان قد دخل عليه ، ذلك الحديث الذى كان سبب الحوار الدائر بينه وبين أبى سفيان .

— أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر .

— هو رجل من العرب .

— قد علمت أنه من العرب ، فمن أى العرب ؟

— من أهل بيت يحجه العرب .

— وفينا بيت تحجه العرب .

— هو من إخوانكم من قريش .

وكان أمية ثقفيا وكان البيت الذى تحجه العرب فى الطائف هو اللات. فلما انبعث من أغوار نفسه صوت العالم النصرانى محددا قريش

أصابه شيء ما أصابه مثله قط ، وخرج من يده فوز الدنيا والآخرة .

— فصفه لي .

— رجل شاب حين دخل إلى الكهولة ، بدو أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة .

ورأى أبا سفيان بن حرب يدخل عليه وهو في الطائف وإذا ما كان بينهما من حوار في ذلك اليوم يدوى بين جنبيه :

— هل تذكر قول النصراني ؟

— أذكره وقد كان .

— ومن ؟

— محمد بن عبد الله .

— ابن عبد المطلب ؟

— ابن عبد المطلب .

— والله يا أبا سفيان لعله . إن صفته لهي ولئن ظهر وأنا حي لأطلبن من الله عز وجل في نصره عذرا .

ثم رأى أبا سفيان وقد قفل راجعا من اليمن فإذا بصدى الحوار يترجع في نفسه :

— يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته .

— قد كان لعمري .

— فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟

— والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا .

ومرت الثماني السنين التي قضاها في البحرين في ذهنه مرور الطيف

ورأى نفسه وهو يقدم الطائف فيقول :

— ما يقول محمد بن عبد الله ؟

— يزعم أنه نبي هو الذى كنت تتمنى .

واحتل صفحة ذهنه خروجه حتى قدم عليه مكة فلقيه :

— يا بن عبد المطلب ما هذا الذى تقول ؟

— أقول إنى رسول الله وأن لا إله إلا هو .

— إنى أريد أن أكلمك فعدنى غدا .

— فموعدك غدا .

— فتحب أن آتيك وحدى أو فى جماعة من أصحابى وتأتينى وحدك أو فى جماعة من أصحابك ؟

— أى ذلك شئت .

— فإنى آتيك فى جماعة فأت فى جماعة .

وأرخى الليل سدوله واستمرت القافلة تغذ السير فى الظلمات بينا أضاءت نفس ابن أبى الصلت بالذكريات ، فهو يرى فى وضوح نفسه وهو يغدو فى جماعة من قريش ورسول الله — ﷺ — يغدو معه نفر من أصحابه حتى جلسوا فى ظل الكعبة ، فبدأ يخطب ثم يسجع ثم ينشد الشعر ثم يقول :

— أجبنى يا بن عبد المطلب .

— ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون* إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من

بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم* إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾(١) .

وسرى صوت رسول الله ـــ ﷺ ـــ في وجدانه حتى أتى على السورة كلها وأمية بن أبى الصلت يرتجف فوق راحلته من الرأس إلى القدم ، إنه يحس نفس الإحساس الذى استولى عليه يوم أن سمع السورة في مكة ، إلا أن صدره قد انشرح لها وهو يسرى فى معبد الله والله أقرب إليه من حبل الوريد .

إنه وثب يوم أن فرغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ من تلاوة يس يجر رجليه فتبعته قريش يقولون :

ـــ ما تقول يا أمية ؟

ـــ أشهد أنه على الحق .

ـــ هل تتبعه ؟

ـــ حتى أنظر فى أمره .

إنه خرج إلى الشام وقدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة ولم يستطع أن يفر من الحقيقة التى انبلجت فى سريرته ، إنه كان ينتظر نبيا وقد بعث ذلك النبى فحق عليه أن يؤمن به وإن كان يرجو أن يكون هو نفسه رسول الله . فراح يراود نفسه على أن ترضى بقضاء الله حتى إذا ما برأ قلبه من مرض الحسد خرج ليعلن على الملأ شهادة الحق التى كتمها

---

(١) يس ١ ـــ ١٢

منذ أول يوم عرف فيه أن النبوة كانت فى ابن عبد الله .

وانفعل بالذكريات فراح ينشد :

باتت همومى تسرى طوارقها
أكف عينى والدمع سابقها

مما أتانى من اليقين ولم ... أوت برَّة يعصَ ناطقها(١)
أم من تلظى عليه واقدة النـ ... ـار محيط بهم سرادقها
أم أسكن الجنة التى وعد الـ ... ـأبرار مصفوفة نمارقها
لا يستوى المنزلان ثم ولا الـ ... ـأعمال لا تستوى طرائقها
هما فريقان فرقة تدخل الجـ ... ـنة حفت بهم حدائقها
وفرقة منهم قد أدخلت النـ ... ـار فساءتهم مرافقها
تعاهدت هذه القلوب إذا ... همت بخير عاقت عوائقها
وصدها للشقاء عن طلب الـ ... ـجنة دنيا الله ماحقها
عبد دعا نفسه فعاتبها ... يعلم أن البصير رامقها
ما رغّب النفس فى الحياة وإن ... تحيى قليلا فالموت لاحقها
يوشك من فر من نيته ... يوما على غرة يوافقها
إن لم تمت غبطة تمت هرما ... للموت كأس والمرء ذائقها

ونزلت القافلة مياه بدر وأمية بن أبى الصلت يتحرق شوقا للقاء رسول الله ﷺ ، ليشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وغدا يتأهب للانطلاق إلى المدينة فقال قائل :

— يا أبا الصلت ما تريد ؟

---

(١) برة علم جنس للمبرة .

ـ أريد محمد .　　　　ـ وما تصنع ؟

ـ أومن به وألقى إليه مقاليد هذا الأمر .

والتفت الرجل إلى القليب الذى ألقى فيه قتلى بدر ثم قال :

ـ أتدرى من فى القليب ؟

ـ لا .

ـ فيه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة .

إنهما ابنا خالته ، فأمه ربيعة بنت عبد شمس وأمهما بنت عبد شمس ، فجدع أذن ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب يقول :

ماذا ببدر فالتنـ　　　ـقل من مرازبة جحاجح[1]

واستمر ينشد قصيدته ثم رجع إلى مكة والطائف وترك الإسلام .

وعاش أمية أيامه وهو قلق حائر بين الخير الذى أريد به وبين جسده الذى كان يحول بينه وبين أن يركب إلى المدينة ليعلن إسلامه حتى راح يجود بأنفاسه . فأتى أخته الفارعة الخبر فانصرفت إليه فوجدته ممددا قد سجى عليه فدنت منه فشهق شهقة وشق بصره نحو السقف ورفع صوته وقال :

ـ لبيكما لبيكما ، هأنذا لديكما ، لا ذو مال فيفدينى ، ولا ذو أهل فتحمينى .

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقالت أخته :

ـ قد هلك الرجل .

فشق بصره نحو السقف فرفع صوته فقال :

ـ لبيكما لبيكما ، هأنذا لديكما ، لا ذو براءة فأعتذر ، ولا ذو عشيرة فأنتصر .

---

(١) الجحاجح : السادة . والمرازبة : رؤساء الفرس .

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف فقال :

ــ لبيكما لبيكما ، هأنذا لديكما ، بالنعم محفود ، وبالذنب محصود .

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقال :

ــ لبيكما لبيكما ، هأنذا لديكما .

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألمّا

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقال :

كل عيش وإن تطاول دهرا مصائر مرة إلى أن يزولا

ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى
في قلال(1) الجبال أرعى الوعولا

فاجعل الموت نصب عينيك واحذر
غولة الدهر إن للدهر غولا

نائلا ظفرها القساور(2) والصد
عان(3) والطفل في المنار الشكيلا

ونباث(4) النياف(5) واليعفر(6) النا
فر والعوهج(7) البرام الضئيلا

ومات أمية بن أبى الصلت شاعر النصرانية من كاد أن يسلم ، دون أن ينطق لسانه بشهادة الحق وإن كان منها على يقين .

---

(1) جمع مفرده قلة : وهى أعلى الجبل . (2) جمع قسورة وهو الأسد

(3) والصدعان : ثيران الوحش (4) النباث : الرخم

(5) النياف : الجبال (6) واليعفر : الظبى

(7) والعوهج : ولد النعامة يعنى أن الموت لا ينجو منه الوحوش فى البرارى ولا الرخم الساكنة فى رءوس الجبال ولا يترك صغيرا لصغره ولا كبيرا لكبره .

٢٣

كانت سليم فى شرق المدينة ومنازل بنى سليم فى عالية نجد بالقرب من خيبر تمتد إلى جنوبى المدينة إلى منتصف المسافة تقريبا بينها وبين مكة من ذات عرق . وكانت ظروف الحياة تحتم تحالف القبائل لضمان أمنها فقانون الصحراء يسود المنطقة ، القبائل القوية تلتهم القبائل الضعيفة ، فراحت كل قبيلة تقوى نفسها بعقد محالفات مع غيرها فالحلف يقوم على أن ينصر الحليف حليفه وأن يمنعه مما يمنع منه نفسه وأن يكون يدا معه على غيره .

وقد تحالفت سليم مع قريش ، فلما نشب القتال فى بدر بين المسلمين والمشركين وروت دماء سادات قريش أرض الصحراء ، أرادت سليم أن تتحرك لتثأر لحلفائها . وقد أحس رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك فخرج يغزو بنفسه بني سليم بعد عودته من بدر إلى المدينة بثمانية أيام ، وكانت حركته عليه السلام سريعة ألقت الرعب فى قلوب حلفاء أعدائه فانسحبوا إلى منازلهم وأغلقوا دورهم عليهم ، ونزل عليه السلام والذين معه على مياههم ومكث ثلاثة أيام لم يلق فيها كيدا ، فقفل راجعا إلى المدينة يرصد حركات القبائل المعادية التى تلتف حوله .

وراحت الحياة تسير على مألوفها فى سليم ، الرجال يشنون الغارات على القوافل للسطو والنساء ينقلن الماء فى الجرار إلى الدور

ويرعين الغنم ويبذلن عنايتهن للنعم . ولما كان القتل في بدر قد استشرى في سادات حلفائهم فقد وجد شعر الخنساء صدى في نفوسهم انتقل إلى مكة لتندب به النادبات .

كانت الخنساء أشهر شخصية في سليم وكانت تنوح على أخويها معاوية وصخر ، وسرعان ما تتلقف النائحات في سليم وقريش شعرها للنواح به في المناحات ، وكان ذلك الشعر يتسلل إلى المدينة وقد ينشده بعض نساء الأنصار والمهاجرين اللاتي فجعن في الأعزة من الآباء والأخوات وفلذات الأكباد :

يا عين جودي بالدمو ع المستهلات السوافح
فيضا كما فاضت غرو ب[1] المترعات من النواضح
وابكي لصخر إذ ثوى بين الضريحة والصفائح
رمسا لدى جدث تذيع بتربه هوج النوافح
السيد الجحجاح وابن السادة الشم الجحاجح
الحامل الثقل المهم من الملمات الفوادح
الجابر العظم الكسير من المباصر والممانح
الواهب المائة الهجا ن من الخناذيذ[2] السوابح
الغافر الذنب العظيم لذى القرابة والممالح
بتعمد منه وحلم حين يبغى الحلم راجح

---

(١) الغروب : جمع غرب وهو الدلو
(٢) الخنذيذ : الفحل

ذاك الـــذى كنـــا بـــه نشفى المراض من الجوانح
ويـــرد بـــادرة العـــدو ونخوة الشنف(١) المكاشح
فأصابنـــا ريب الزمـــا ن فنالنـــا منـــه بناطـــح
فكأنمـــا أم الزمـــا ن نحورنا بمدى الذبائـــح
فنساؤنـــا يندبـــن نـــو حـــا بعـــد هادية النوائـــح
يحنـــن بعـــد كـــرى العيو ن حنيـــن والهـة قوامـــح(٢)
شعث شر ألا ينيـــــــــ ن إذا ولـــى ليـــل النوائـــح
يندبـــن فقـــد أخـــى النـــدى والخيـــر والشيـــم الصوالـــح
والجـــود والأيـــدى الطـــوا ل المستفيضات السوامـــح
فـــالآن نحـــن ومـــن سوا نا مثـــل أسنـــان القـــوارح(٣)

كانت قريش تبكى قتلاها وكانت سليم تمد النائحات بما ينشدنه ، بينما كان شعراء رسول الله — ﷺ — يفتخرون بانتصار المسلمين فى بدر ، فها هو ذا حسان بن ثابت يربط بين المقدمة الغزلية والغزوة الكبرى فيقول :

يـــا مـــن لعاذلـــة تلـــوم سفاهـــة
ولقـــد عصيت إلـــى الهـــوى لوامـــى
بكـــرت علـــى بسحـــرة بعـــد الكـــرى
وتقـــارب مـــن حـــادث الأيـــام

---

(١) الشنف : المبغض المتنكر
(٢) الإبل القوامح : التى اشتد عطشها
(٣) القارحة : التى وقعت أسنانها

زعمت بأن المرء يكرب يومه
عدم لمعتكر(١) من الإصرام
إن كنت كاذبة الذى حدثتنى
فنجوت منجى الحارث بن هشام(٢)
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم
ونجا برأس طمرة(٣) ولجام
جرداء تمزع(٤) فى الغبار كأنها
سرحان(٥) غاب فى ظلال غمام
تذر العناجيج(٦) الجياد بقفرة
مر الذمول بمحصد ورجام
ملأت به الفرجين فارمدت(٧) به
وثوى أحبته بشر مقام
وبنو أبيه ورهطه فى معرك
نصر الإله به ذوى الإسلام
طحنتهم — والله ينفذ أمره —
حرب يشب سعيرها بضرام

---

(١) اعتكر : كر وانصرف

(٢) وكان قد فر من المعركة فى بدر

(٣) الطمر : الفرس الجواد (٤) تمزع : تثب

(٥) السرحان : الذئب

(٦) العناجيج : جمع عنجوج وهو النجيب من الخيل

(٧) ارمدت : أسرعت

لــولا الإلــه وجريــه لتركنــه
جـزر السبـاع ودسنـه بحـوام(١)

كانت الأشعار تنتقل بين مكة والمدينة والقبائل ، وكانت الأنباء تفد إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ مع رجال انبثوا فى كل مكان فى الجزيرة العربية قلوبهم مع الإسلام . فبلغ رسول الله عليه السلام أن جمعا من بنى سليم وغطفان بقرقرة الكدر يريدون الإغارة على المدينة بعد أن غزاهم ـــ ﷺ ـــ عقب غزوة بدر بثمانية أيام لما علم أنهم يريدون الثأر لحلفائهم من قريش ، فسار إليهم فى مائتين من أصحابه وحمل لواءه على بن أبى طالب من أصبح اسمه يلقى الرعب فى قلوب أعداء الإسلام بعد أن صال وجال فى بدر وقطع رقاب صناديد قريش وفرسانهم ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

وسار عليه السلام والذين معه حتى نزل قرقرة الكدر وهى أرض ملساء فيها طيور فى ألوانها كدرة عرف بها ذلك الموضع ، فلم يجد به أحدا ، وأرسل نفرا من أصحابه إلى أعلى الوادى واستقبلهم فى بطن الوادى فوجد خمسمائة بعير مع رعاة منهم غلام يقال له يسار ، فاستولوا عليها وانحدروا بها إلى المدينة . فلما كانوا بمحل على ثلاثة أيام من المدينة خمسها ﷺ ، فأخرج خمسه وقسم الأربعة الأخماس على أصحابه فخص كل رجل منهم بعيران ، ووقع يسار فى سهمه ﷺ .

وراح يسار يرقب رسول الله عليه السلام فإذا به يجد الإنسان

---

(١) الحوامى : ميامن الحافر ومياسره

الكامل ، فتفتح له قلبه وألقى سمعه إلى ما يقرأ من القرآن فإذا بأنوار اليقين تملأ صدره فيتحرك لسانه بشهادة الحق ويقوم يصلي مع المسلمين وقد استبشر بأن هداه الله الصراط المستقيم ، فلما رآه عليه السلام في صفوف المؤمنين أعتقه لوجه الله الكريم .

وعاد — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمس عشرة ليلة ، وغدا يوزع خمس الغنائم على الفقراء والمساكين وابن السبيل فقد كان له الخمس والخمس مردود على المحتاجين فما كان يدخل داره منها شيء ، فقد اختار أن يجوع يوما فيسأل الله وأن يشبع يوما فيحمد الله .

وأحس المسلمون عزة فراحوا يتفقهون في دينهم يلقون أسماعهم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويحفظون ما أنزل عليه من ربه فرحين بما آتاهم ، بينا كان بنو سليم ينفعلون لشعر الخنساء ويترنحون بمراثيها لأخويها لكأنما قد باتت الدنيا مناحة لموت رجلين :

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما دساد عشيرته أمردا
إذا القوم مروا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القوم ما عالهم وإن كان أصغرهم مولدا
ترى المجد يهوى إلى بيته
يرى أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقد تأثر بعض نساء المسلمين ورجالهم بذلك النواح فكانوا

يقولون إذا ما تحدثوا عن قتلى بدر من المسلمين وكانوا بضعة عشر رجلا ، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين :

ـ مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾(١) .

---

(١) البقرة : ١٥٤

٢٤

كان المسلمون فى المدينة يأتون البساتين يأكلون ويشربون ، وكانت الخمر تلعب برءوس بعضهم فيأتى من الأقوال أو الأفعال ما ينكرون . وكان أناس منهم يلعبون الميسر فكانوا يذبحون الجزور ويقطعونه عشرة أجزاء ثم يلعبون عليها فمن خسر دفع ثمن الذبيحة بينا توزع اللحوم على فقراء المدينة ، وكان الذين يلعبون لا يجدون فى الميسر من بأس ما دام النفع يعود على الفقراء والمساكين وابن السبيل .

وجاء رجال رسول الله ـ ﷺ ـ يسألونه عن الخمر والميسر فأنزل الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾(١) . فلما قرئت على عمر قال :

ـ اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا .

وكان مسجد الرسول ـ ﷺ ـ منارة العلم فى المدينة ، فكان الصحابة يجلسون إليه عليه السلام ويلقون إليه أسماعهم فإذا بالحكمة تنسكب فى أعماقهم ، وإذا بالرعاة البسطاء والتجار الذين كانت كل معارفهم ما يتجرون فيه من طيب وبز وأقوات وبعض معلومات عن

---

(١) البقرة : ٢١٩

البلاد التي جابوها يتلقون من العلم ما يؤهلهم لأن يصبحوا رعاة أمم وخير أمة أخرجت للناس .

وذات يوم جلس رسول الله — ﷺ — فذكر الناس ووصف القيامة ولم يزدهم على التخويف فرق الناس وبكوا ، فاجتمع أناس من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي ، فيهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب وعبد الله ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ويترهبوا ، فبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فجمعهم فقال :

— ألم أنبأ أنكم اتفقتم على أن تصوموا النهار وتقوموا الليل ولا تناموا على الفرش ولا تأكلوا اللحم ؟

— بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير .

فقال عليه السلام :

— إني لم أومر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم ، ومن رغب عن سنتي فليس مني .

ثم خرج إلى الناس وخطبهم فقال :

— ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا ، أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهبانا ، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع . وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتها الجهاد . واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان ، فإنما هلك

من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فى الديارات والصوامع . فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾(١) .

وكانوا قد حلفوا أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء فقالوا :

ـــ يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾(٢) .

وراح المسلمون يشربون الخمر ويقولون :

ـــ ما حرّم علينا إنما قال : « فيها إثم كبير » .

وغدوا يقولون لرسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله تعالى .

فسكت عنهم وظلوا يشربون حتى كان يوما من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه فى المغرب خلط فى قراءته ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾(٣) .

---

(١) المائدة ٨٧ ـــ ٨٨ (٢) المائدة ٨٩ (٣) النساء ٤٣

ــ حرمت الخمر .

فقالوا :

ــ يا رسول الله إنا لا نشربها قرب الصلاة .

فسكت عنهم وكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ينادى :

ــ لا يقربن الصلاة سكران .

كان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق ، وكان عمر بن الخطاب يقول :

ــ اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا .

وأتى سعد بن أبي وقاص على نفر من المهاجرين فقالوا :

ــ تعال نطعمك ونسقيك خمرا .

فأتاهم في بستان وإذا رأس جزور مشويا عندهم ودن من خمر ، فأكل وشرب معهم وذكر الأنصار والمهاجرين فقال :

ــ المهاجرون خير من الأنصار .

أخذ رجل لحى الرأس فجدع أنفه بذلك ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره .

وشربت قبيلتان من قبائل الأنصار ، فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته فيقول :

ــ صنع بى هذا أخى فلان ، والله لو كان بى رءوفا رحيما ما صنع هذا بى .

وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فإذا بالضغائن تقع في قلوبهم .

وكان لعلى بن أبى طالب ناقة من نصيبه من المغنم يوم بدر ، وكان رسول الله ــ ﷺ ــ أعطاه ناقة من الخمس ، ولما أراد أن يبتنى

بفاطمة بنت رسول الله — ﷺ — واعد رجلا صواغا من بني قينقاع أن يرتحل معه فيأتيان بإذخر، أراد أن يبيعه من الصواغين فيستعين به في وليمة عرسه.

كانت الناقتان مناختين إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، وكان علي يجمع لناقتيه من الأقتاب والغرائر والحبال، وكان عمه حمزة بن عبد المطلب في بيت الأنصاري يشرب عنده وقينة تقول في غنائها :

ألا يا حمز للشرف النواء — وهن معقلات بالفناء
زج السكين في اللبات منها
فضرجهن حمزة بالدماء
فأطعم من شرائحها كبابا — ملهوجة على رهج الصلاء
فأنت أبا عمارة المرجى — لكشف الضر عنا والبلاء

فوثب إلى السيف فأجب أصنام ناقتي علي بن أبي طالب وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما، فلما جاء علي ورأى ما وقع لناقتيه لم يملك عينيه حين رأى ذلك المنظر، قال :

— من فعل هذا ؟

— فعله حمزة وهو في البيت في شرب من الأنصار.

فانطلق علي حتى أدخل على النبي — ﷺ — وعنده زيد بن حارثة، فعرف رسول الله — ﷺ — الذي لقي فقال :

— مالك ؟

— يا رسول الله ما رأيت كاليوم. عدا حمزة على ناقتي وجب أسنمتهما وبقر خواصرهما. ها هو ذا في بيت معه شرب شرّب.

فدعا رسول الله — ﷺ — بردائه، ثم انطلق يمشي فاتبع على أثره

وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذى هو فيه ، فاستأذن فأذن له فإذا هم شرّب ، فطفق رسول الله ـــ ﷺ ـــ يلوم حمزة فيما فعل ، فإذا حمزة ثمل محمرة عيناه . فنظر حمزة إلى رسول الله ـــ ﷺ ، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه ثم قال :

ـــ وهل أنتم إلا عبيد أبى ؟

فعرف رسول الله ـــ ﷺ ـــ أنه ثمل ، فنكص على عقبيه القهقرى فخرج وخرج على وزيد . وأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾(١) ، فقال رسول الله ـــ ﷺ .

ـــ حرمت الخمر :

ودُعى عمر فقرئت عليه . فلما بلغ « فهل أنتم منتهون » قال عمر :

ـــ انتهينا .

وكان أنس بن مالك ساقى القوم يوم حرمت الخمر فى بيت أبى طلحة ، كان يسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب وسهيل بن البيضاء ونفرا من أصحابه حتى كان الشراب يأخذ بهم ، فإذا مناد ينادى ، قال أبو طلحة :

ـــ اخرج فانظر .

فخرج أنس فإذا مناد ينادى .

---

(١) المائدة ٩٠ ـــ ٩١

ـ ألا إن الخمر قد حرمت .

فقالوا :

ـ ياأنس ، أكفأ ما بقي في إنائك .

فما قالوا حتى ننظر ونسأل ، بل أطاع المسلمون وغدوا يهرقون ما عندهم من الخمر .

وتوضأ بعض الرجال واغتسل بعضهم وطيبوا ثم خرجوا إلى المسجد ، فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .... ﴾ ثم قال :

ـ من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها .

فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم :

ـ عندي راوية .

ويقول الآخر :

ـ عندي زق .

أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال ـ ﷺ :

ـ اجمعوا ببقيع كذا وكذا ثم آذنوني .

ففعلوا ثم آذنوه ، فقام وقام معه عبد الله بن عمر ومشى عن يمينه وهو متكيء عليه ، فلحقهما أبو بكر فأخره رسول الله ـ ﷺ ـ فجعله عن شماله وجعل أبا بكر في مكانه ، ثم لحقهم عمر بن الخطاب فأخر رسول الله عبد الله بن عمر وجعل عمر عن يساره ، فمشى بينهما حتى بلغوا المربد ، فإذا بزقاق على المربد فيها خمر فقال للناس :

ـ أتعرفون هذا ؟

— نعم يا رسول الله ، هذه الخمر .

— صدقتم ، فإن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها .

فدعا رسول الله — ﷺ — بالمدية فقال :

— اشحذوها .

— ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرّق بها الزقاق فقال الناس :

— في هذه الزقاق منفعة .

— أجل . ولكنى إنما أفعل ذلك غضبا لله عز وجل لما فيها من سخطه .

فقال عمر :

— أنا أكفيك يا رسول الله .

— لا .

وجرت الخمر فى سكك المدينة أنهارا .

وقال أناس :

— يا رسول الله أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين ﴾(١) .

---

(١) المائدة ٩٣

٢٥

كان لغطفان إله على مشارف الشام يدعى الأقيصر فكانوا يحجون إليه كما كانوا يحجون إلى البيت العتيق ، وكانوا يفخرون بشاعرهم النابغة الذبياني فقد كانت تضرب له قبة فى سوق عكاظ وكان الشعراء من كل القبائل يخفون إليها ليحتكموا إليه فى أشعارهم .

وكان حساد النابغة من غطفان يقولون إن الرباح بن ميادة أشعر غطفان وهو خير لقومه من النابغة ، فهو لا يمدح غير قريش وقيس بينا يهذى النابغة باليمن ويطوف على ملوك الحيرة يعيش بشعره على موائد المناذرة .

وكانت غطفان سعيدة بتحالفها مع قريش ، فقريش سادات البيت الحرام الذى يأمن فيه الطير ولأشرافها الكلمة المسموعة فى العرب ، وهم ذوو قوة ومنعة وأصحاب تجارة ممدودة وجاه وسلطان ونجدة .

وكانت غطفان مطمئنة بحلفها لا تخشى غدر جيرانها من القبائل ، وكانت فى نفس الوقت على صلة وثيقة بالأوس والخزرج فمساكنها كانت قريبة من خيبر ، فكان الغطفانيون يزورون يثرب وينزلون بأسواقها فتوطدت صلات طيبة بينهم وبين اليثربيين من أوس وخزرج ويهود .

وكان لغطفان أثر فى الحروب التى كانت تنشب بين الحين والحين

بين الأوس والخزرج ، فقد بعث رجل من غطفان من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان إلى يثرب بفرس وُحلة مع رجل من غطفان وقال :

— ادفعهما إلى أعز أهل يثرب .

فجاء الرجل بهما حتى ورد سوق قينقاع فقال ما أمر به ، فوثب إليه رجل من غطفان كان جارا لمالك بن العجلان الخزرجى يقال له مالك ابن الثعلبى فقال :

— مالك بن العجلان أعز أهل يثرب .

وقام رجل آخر فقال :

— بل أحيحة بن الحلاج أعز أهل يثرب .

وكثر الكلام فقبل الرسول الغطفانى قول الثعلبى الذى كان جارا لمالك بن العجلان ، ودفعهما إلى مالك فقال كعب الثعلبى :

— ألم أقل لكم إن حليفى أعزكم وأفضلكم !

فغضب رجل من بنى عمرو بن عوف يقال له سُمَيْر فرصد الثعلبى حتى قتله ، فشبت بين الأوس والخزرج حرب سُمَيْر .

وظلت علاقة غطفان بيثرب طيبة حتى هاجر إليها رسول الله ﷺ ، وهجر الأنصار عبادة الأوثان فتغيرت قلوب الغطفانيين وأصبح هواهم مع قريش ، فقد كان فى جوف الكعبة صنم لإلههم الأقيصر وكانت قريش حاملة لواء الدفاع عن الأصنام .

ووقع الصدام بين قريش ومحمد عليه السلام وصحبه عند ماء بدر وانتصر المسلمون وقتل صناديد قريش . وقال أعداء الإسلام لما[1] سمعوا بمقتل أشراف حماة الحرم : لبطن الأرض خير من وجهها ،

وكانت غطفان ممن ساءها هزيمة حلفائها فأرادت أن تدهم المدينة بالهجوم لتقوم بحق الحلف انتقاما لأصحاب القليب . ولكن رسول الله — ﷺ — أفسد تدبير القوم فقد فاجأهم بالهجوم عقب بدر ، فأغلقوا منازلهم ولم يحركوا ساكنا ، ونزل محمد — ﷺ — والذين معه مياههم ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة دون أن يلقى كيدا .

وكان الغطفانيون يستشعرون مهانة لأنهم لم يقوموا بحق الحلف الذى كان بينهم وبين قريش ، فكانت فكرة الهجوم على المدينة هجوما خاطفا تداعب أخيلتهم حتى قام رجل منهم يدعى دعثور بن الحرث الغطفانى من بنى محارب يجمع جمعا من ثعلبة ومحارب ليصيبوا من أطراف المدينة حتى يحفظوا ماء وجوههم أمام حلفائهم سادات الحرم الذين قتل أشرافهم عند بدر .

وبلغ رسول الله — ﷺ — ما يدبر دعثور ، فخرج إليهم فى أربعمائة وخمسين رجلا لاثنتى عشرة مضت من شهر ربيع الأول ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وأصاب أصحاب رسول الله عليه السلام رجلا منهم يقال له حباب من بنى ثعلبة ، فأدخل على رسول الله — ﷺ — ، فلما نظر إليه هابه وأحس نفسه تذهب شعاعا ، فما إن سأله عليه السلام عن دعثور ومن معه حتى راح الرجل يقص كل شىء ، ثم قال له :

— لن يلاقوك ولو سمعوا بمسيرك إليهم هربوا فى رءوس الجبال وأنا سائر معك .

وراح حباب يرصد المسلمين ، إنهم رهبان فى الليل فرسان

بالنهار ، إخوان متحابون . وانبلجت الدهشة فى نفسه فقد كان على علم بالعداوة التى كانت بين الأوس والخزرج ، فمن ذا الذى طهر قلوب أقوام كانت تنبض بالضغينة والحقد ؟ ومن ذا الذى صهرهم في بوتقة واحدة فأصبحوا أنصارا لنبيهم لا فرق بين خزرجي وأوسى ؟! وغدا حباب يصغي إلى ما يتلون من قرآن فإذا به يسمع : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾[1] . فانزاحت الدهشة عنه فما كان بشر بقادر على أن يؤلف بين تلكم القلوب المتنافرة مهما كان على خلق عظيم ، إنها قدرة إله عزيز حكيم التى ألفت بين أعداء الأمس فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وألقى التصديق فى عين ذات حباب فأسلم وضمه — ﷺ — إلى بلال .

كان بلال لا يفارق رسول الله — ﷺ ، فإذا ما حان أوان الصلاة كان يؤذن للمسلمين فكانوا يهرعون ليصطفوا خلف النبى عليه السلام ، وكان لا يتناول طعاما إلا من طعام النبى وكان غالبا بعض تمرات أو قعب لبن ، فأصبح حباب رفيق بلال وغدا يتهلل بالفرح أن صار فى صحبة نبى الإسلام عليه السلام ينهل من فيض علمه ويسعد بأنوار اليقين التى تأتلق فى صدره .

وأخذ حباب بالمسلمين طريقا وهبط بهم على غطفان فسمعوا بمسير رسول الله — ﷺ — فهربوا فى رءوس الجبال ، وانطلق

---

(١) الأنفال ٦٣

المسلمون حتى نزلوا ماء يقال له ذو أمر فعسكروا به . وسرعان ما هطلت الأمطار غزيرة بلت ثياب رسول الله ــ ﷺ ــ وثياب أصحابه ، فنزع رسول الله ــ ﷺ ــ ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفا وعلق بها سيفه واضطجع تحتها .

واشتغل المسلمون فى شئونهم وكان دعثور يرصدهم من بعيد ، فلما وقع بصره على رسول الله عليه السلام ووجده قد انفرد قال :

ــ قتلنى الله إن لم أقتل محمدا .

وانسل دعثور ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله ــ ﷺ ــ ثم قال :

ــ من يمنعك منى اليوم ؟

وقال رسول الله ــ ﷺ ــ فى ثبات دون أن تختلج عيناه :

ــ الله .

وملىء دعثور رعبا من ذلك الثبات العجيب الذى قابل به رسول الله عليه السلام تهديده ، لم يرتجف ولم يرتد فزعا ، بل اضطرب السيف فى يد من أقسم أن يقتل محمدا وسقط منها على الأرض من شدة الخوف ، فأخذ السيف رسول الله ــ ﷺ ــ وقال له :

ــ من يمنعك منى ؟

فقال وهو يرتجف وقد اقشعر جلده :

ــ لا أحد .

ثم جمع شتات نفسه وقال :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فأعطاه رسول الله — ﷺ — سيفه فانقلب إلى أهله وغدا يدعو قومه إلى الإسلام .

وصدق رسول الله — ﷺ — لما قال : نصرت بالرعب . وأنزل الله تعالى على عبده : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[1] .

---

(١) المائدة ١١

٢٦

دخل عبد الله بن مسعود كاتم سر رسول الله ــ ﷺ ــ على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر فى جنبه ، فقال :

ــ يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه .

فقال عليه السلام فى بساطة :

ــ ما لى وللدنيا ؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

ومر الوقت واستبد برسول الله ــ ﷺ ــ الجوع فخرج من المسجد ، فوجد أبا بكر وعمر فسألهما عن خروجهما فقالا :

ــ أخرجنا الجوع .

ــ وما أخرجنى إلا الجوع .

فذهبوا إلى أبى الهيثم فأمر لهم بشعير وقام إلى شاة فذبحها واستعذب لهم ماء معلقا عنده فى نخلة ، ثم أتوا بالطعام فأكلوا وشربوا من ذلك الماء ، فقال عليه الصلاة والسلام :

ــ لنسألن عن نعيم هذا اليوم ؟

كان ــ ﷺ ــ مرهف الحس زاهدا فى الدنيا ، فما كان يعرف الكنز ، فإذا ما وصلت إلى يده صفراء أو بيضاء تصدق بها ، وكان له من الغنائم الخمس والخمس مردود على فقراء المسلمين والمساكين ،

وما كان يحتفظ لنفسه بناقة أو شاة ليذبحها لأهل بيته بل كان عليه السلام وأهله يعيشون على الأسودين : التمر والماء .

وكان قدوة لأصحابه ، فبينا كان جالسا مع رجال من المهاجرين والأنصار ، إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو ، فلما رآه — ﷺ — بكى ، فمصعب كان فى نعمة قبل الإسلام لا يرتدى إلا أفخر الثياب ، وكانت أمه تغمره بعطفها وحنانها وما كانت تبخل عليه بمال ، ثم التفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :

— كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى أخرى ووضعت بين يديه صفحة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟

— يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة .

— بل أنتم خير منكم يومئذ .

وكان القرآن ينزل على رسول الله — ﷺ ، إنه أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آى قد وقع تأويلهن عند نزولهن ، ومنه آى يقع تأويلهن بعد نزولهن ، ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، وكان الناس يأتون رسول الله عليه السلام يسألونه بعض ما غمض عليهم من تأويل بعض الآيات ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾(١) . أتى أبو ثعلبة الخُشنى إلى رسول الله ﷺ فقال :

---

(١) المائدة ١٠٥

— كيف نصنع فى هذه الآية ؟

— أية آية ؟

— قول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ .

— بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم .

— يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم ؟

— بل أجر خمسين منكم .

وكان رسول الله — ﷺ — يحب أن يسمع القرآن ، قال لعبد الله ابن مسعود :

— اقرأ علىّ .

— يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟

— نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى .

فقرأ ابن مسعود سورة النساء حتى أتى إلى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾(١) ، فقال عليه السلام :

— حسبك الآن .

---

(١) النساء ٤١

فإذا عيناه تذرفان .

وجاءت إلى داره عجوز فقال لها :

ـ من أنت ؟

فقالت :

ـ جثامة المزنية .

ـ أنت حسانة ؟ كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟

ـ بخير بأبي أنت وأمي .

فلما خرجت قالت عائشة :

ـ يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟

ـ إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان .

كان المثل الأعلى فى الشجاعة ، ففى ذات ليلة هب أهل المدينة على صوت أنكروه وانطلقوا إلى ناحية الصوت ، فإذا برسول الله ـ ﷺ ـ يتلقاهم راجعا على فرس عرى ، فقد كان أول من أسرع قبل الصوت ويقول فى حنان الأب :

ـ لن تراعوا .

وكان القدوة الحسنة في الوفاء والمثل الكامل فى الزهد والقناعة والتواضع والعدل والمعروف وحسن الخلق ، وكان يدعو ربه : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا . إنه يعيش لله وبالله وفى الله فإذا أتاه أمر يحبه قال :

ـ الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وإذا أتاه أمر يكرهه قال :

ـ الحمد لله على كل حال .

وإن قصد فعل شيء قال :

ــ اللهم خر لى واختر لى .

وإن أراد سفرا قال :

ــ اللهم بك أصول وبك أجول .

وإذا أراد نوما قال :

ــ اللهم باسمك وضعت جنبى وباسمك أرفعه .

وإن استيقظ قال :

ــ الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .

وإن لبس ثوبا جديدا قال :

ــ الحمد لله الذى زرقني ما أتجمل به في حياتى .

وإن أكل قال :

ــ الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين .

وإن شرب قال :

ــ الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا .

وإذا انقلب من الليل فى فراشه قال :

ــ لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وإذا هب من نومه فى الليل قال :

ــ رب اغفر وارحم ، واهد للسبيل الأقوم .

زكاه ربه ومدح حسن خلقه فى قرآنه فأنزل فيه : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1] فكاد أصحابه أن يفتنوا به فكانوا يقولون :

(١) القلم ٤

— ما شاء الله وشاء محمد .

ودخل الطفيل بن سخبرة أخو عائشة أم المؤمنين لأمها فنام ، فرأى فيما يرى النائم كأنه أتى على نفر من اليهود فقال :

— من أنتم ؟

قالوا :

— نحن اليهود .

— إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله .

— وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، ثم مر بنفر من النصارى فقال :

— من أنتم ؟

— نحن النصارى .

— إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله .

— وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد .

فلما أصبح أخبر بها من أخبر ، ثم أتى النبى عليه السلام فأخبره فقال :

— هل أخبرت بها أحدا ؟

— نعم .

فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإن طفيل رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا « ما شاء الله وشاء محمد » ولكن قولوا : « ما شاء الله وحده » .

وجاء رجل إلى النبى ﷺ وجعل يحدثه ثم قال :

— ما شاء الله وشئت .

فقال عليه السلام فى غضب :

— أجعلتنى لله ندا ؟! قل : ما شاء الله وحده .

٢٧

كانت مكة تغلى بالحقد على محمد ـ ﷺ ـ وصحبه ، فأبو سفيان بن حرب زعيم قريش وسيدها كان ينظر إلى الدنيا يوم أن بعث عليه السلام ، فقد كان يعلم أن محمدا ـ ﷺ ـ صدوق لا يكذب وإنما كان يرى أن إيمانه بما جاء به ابن عبد الله فيه قضاء على أحلامه وأمانيه ، فقد جاء أمرا لا يبقى معه شرف فخاصمه ولج فى الخصام حمية وكراهية أن يذهب شرفه .

فلما هاجر النبى عليه السلام إلى المدينة واستقر بها وألف بين قلوب الأوس والخزرج استمر حقد أبى سفيان على نبى الإسلام ، فالمدينة تقع على طريق قوافل قريش المنطلقة إلى الشام وتهدد طريق القوافل الصاعدة إلى العراق ، فلو تحرك محمد عليه السلا م ليهاجم قوافل قريش انتقاما لإخراجه وأصحابه من ديارهم وعوضا عن أموالهم التى صودرت فى مكة . . فسيهدد تجارة قريش مع الشام والعراق بالبوار مما يذهب عزها وسلطانها .

وكانت مخاوف أبى سفيان تغذى كراهيته لرسول الله ـ ﷺ ـ ، والمهاجرين والأنصار ، فلما تحققت مخاوفه يوم أن خرج عليه السلام والمسلمون ليتعرضوا لعير قريش الآتية من الشام تيقن أن كيان قريش مهدد بالزوال ما دام لمحمد عليه السلام كلمة مطاعة فى المدينة ، وأن لن يكون أمان قبل القضاء قضاء مبرما على الخطر الكامن

على طريق الشمال .

وبلغ حقد أبي سفيان غايته لما جاءت أنباء بدر وحمل إليه الناعي خبر مقتل ابنه حنظلة وأسر ابنه عمرو ، فقد أصبح بينه وبين المسلمين ثأر ، إلى عار الهزيمة الذى جلل قريش جميعا وقطع الطريق إلى الشام ، فصار عليه وهو زعيم القوم أن يثأر لقتلى بدر وأن يغسل ما لحقهم من عار وأن يطهر طرق القوافل من الأعداء .

وكانت زوجه هند بنت عتبة قد عادت محمدا — ﷺ — مذ جهر بدعوته ، فهي مؤمنة أشد الإيمان بدين الآباء فكانت عداوتها لرسول الله عليه السلام فى سبيل عقيدتها ، ولم تخف أبدا كراهيتها لابن عبد الله وما يدعو إليه ولم تجامل ولم تحاول أن تخفى عواطفها ، فذات يوم أقبل أبو سفيان من الشام ومعه هند ومعاوية على حمار ، فلما دنوا من مكة لقيهم رسول الله — ﷺ — فقال أبو سفيان لمعاوية :

— انزل يركب محمد .

فقالت هند فى إنكار :

— أينزل ابنى لهذا الصابىء ؟

قال أبو سفيان :

— نعم .

وكان يحرك غضبها دخول أخيها أبي حذيفة فيما يدعو إليه ابن أبي كبشة ، وبلغ غضبها غايته لما قتل يوم بدر أبوها عتبة وأخوها الوليد وعمها شيبة ، وقد أبت أن تبكيهم أو تندبهم قبل أن تثأر لهم من المسلمين .

وراحت هند تحرض زوجها أبا سفيان بن حرب على قتال محمد

والذين معه ، وكانت وقود حقده حتى جعلته يقسم أن لا يغتسل من جنابة قبل أن يثأر لقتلى بدر ، فلما طال الزمن افتعل أبو سفيان غزوة السويق ليبر قسمه . ولكن ذلك لم يشف غليل هند فلن يهدأ لها بال ما دام حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب يمشيان فى الأرض .

ولم تستطع قريش أن تطوى صدورها على أحزانها حتى يحين يوم الانتقام فبكت قتلاها أحر البكاء . وانطلق لسان هند بالشعر لتنفس عن لوعتها إلى حين :

لله عينـــا مـــن رأى	هلكـا كهـلك رجاليـه
يـارُب بـاك لـى غـدا	فـى النائبـات وباكيـه
كـم غادروا يـوم القليـب	غـداة تـلك الداعيـه[1]
من كل غيث فى السنين	إذا الكـواكب خاويـه
قـد كنت أحـذر مـا أرى	فاليـوم حـق حذاريـه
يـارُب قائلـة غـدا	يـا ويـح أم معاويـه

وكان أبى بن خلف يجلس فى الحرم لا هم له إلا تحريض القوم على قتال المسلمين ، فهو وإن كان قد فر طلبا للنجاة إلا أنه قد سمع بما صنع بأخيه أمية بن خلف ، فعبد الرحمن بن عوف صديقه الذى ما كان يفارقه قبل أن يفرق ابن عبد الله بينهما لم يستطع أن ينقذه من سيوف المسلمين ، فبلال بن رباح صاح صيحته فإذا بأخيه وابن أخيه على قد صارا فى الغابرين .

وراح أبى يتذكر تلك الأيام التى كانوا يعذبون فيها بلالا برمضاء

---

(١) الصراخ

مكة ، إنه أوشك على الموت مرات ، فياليتهم قضوا عليه فلو كان قد مات لما مات أمية بن خلف وابنه على ، ولما جلس هو فى الحجر يكتوى بنارهما !

وكان صفوان بن أمية بن خلف أكثر المشركين حقدا على رسول الله — ﷺ ، فإن كان أبو جهل بن هشام قد أخزاه الله يوم بدر فإن صفوان قد نهض ليحمل لواء الكراهية والبغضاء لنبى الإسلام — ﷺ — وللأنصار والمهاجرين .

كان أبو فكيهة يسار مولى صفوان قد أسلم ، وكان رسول الله — ﷺ — إذا جلس فى الحرم فجلس إليه المستضعفون من أصحابه ، خباب وعمار وأبو فكيهة وصهيب ، هزئت بهم قريش وكان صفوان يقول :

— هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء وما خصهم الله به دوننا . كان صفوان من المستهزئين وقد غالى فى سخريته وتهكمه لما أنزل الله فى المستضعفين : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين * وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾(١) .

---

(١) الأنعام : ٥٤

إنه كان يتهكم بمحمد عليه السلام وبالمستضعفين ، ولكنه كان وهو جالس فى ظل الكعبة يصغى إلى كعب بن الأشرف وهو ينفث سمومه فى صدره يتحرق شوقا إلى قتال من قتلوا أباه وأخاه وأذلوه .

إنه بعث عمير بن وهب بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير ليقتل محمدا ، وغدا صفوان يقول لقريش :

— أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر !

ورجع عمير بن وهب إلى مكة بعد أن أسلم ، وأخزى الله صفوان فإن الذاهب لقتل رسول الله — ﷺ — وإطفاء نور الله قد عاد إلى مكة يدعو أهلها إلى الله وإلى رسول الله وإلى الإسلام .

وراح صفوان يحرض الناس على عداوة رسول الله عليه السلام ، حتى جاء أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحى ، إنه شاعر وللشعراء مكانتهم فى إثارة العداوات وإشعال نار الخصومات ، وغدا يغريه بعداوة نبى الإسلام .

كان أبو عزة قد وقع أسيرا فى بدر فأعتقه رسول الله — ﷺ — دون فداء لما قال له : إن لى خمس بنات ليس لهن شىء ، فتصدق بى عليهن يا محمد ، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحدا فقال أبو عزة :

من مُبلغ عنى الرسول محمدا ... بأنك حق والمليك حميد
وأنتَ امرؤٌ تدعو إلى الحق والهدى ... عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة ... لها درجات سهلة وصُعود
فإنك من حاربته لمُحارب ... شقى ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذُكّرت بدرا وأهله ... تأوب ما بى حسرةٌ وقعود

وظل صفوان يحاول أن يوغر صدر أبى عزة على النبى — ﷺ — وأبو عزة يقول :

— إنى قد أعطيت محمدا موثقا ألا أقاتله ولا أكثر عليه أبدا ، وقد من على ولم يمن على غيرى حتى قتله أو أخذ منه الفداء .

فضمن له صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قتل وإن عاش أعطاه مالا كثيرا لا يأكله عياله .

فخرج أبو عزة يدعو العرب ويحشرها .

وجاءت أم الفضل لتطوف بالحرم فمد كعب بن الأشرف عينيه إليها ، إنها زوجة العباس عم النبى وهى أول امرأة آمنت به بعد زوجه خديجة ، فإن تشبب بها وهو شاعر يسير الركبان بشعره فسيجرح ذلك كبرياء المسلمين ويؤذى محمدا ، فاستراح للفكرة فلم يعد لكعب بن الأشرف هم إلا أن يقضى على نبى الإسلام عليه السلام . فلو قتل لماتت دعوته التى أصبحت تقض مضاجع قريش والمشركين والحاسدين واليهود .

خاف القرشيون طريقهم الذين كانوا يسلكون إلى الشام فرأوا أن خير ما يفعلون أن يسلكوا طريق العراق ، فاستأجروا فرات بن حيان رجلا من بني بكر بن وائل يدلهم في ذلك على الطريق .

وتجمعت عير قريش في الحرم تحمل فضة كثيرة وهي عُظْم تجارتهم ، وأقبل أبو سفيان بن حرب تحف به أشياخ قريش وسادات بني أمية والتجار الخارجون معه فطافوا بالبيت سبعا ثم أذن أبو سفيان بالرحيل .

وانطلقت العير بعد أن دعا القوم آلهتهم لتحمي الرجال والأموال من أعدائهم ، وما إن غابت القافلة في الأفق البعيد حتى خفقت القلوب رهبة ونزل بالنفوس قلق ، فقد شغل الأذهان ما كان بين رجالهم وبين المسلمين يوم بدر ، فابن عبد الله قد خرج أصحابه في طلب القافلة التي كانت في طريق عودتها من الشام ، ولولا حرص أبي سفيان لما أفلتت من قبضة المسلمين .

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعلم أن قوة قريش في تجارتها وأنه إذا هدد طريق قوافلها قطع الشريان الذي يمدها بالحياة والقوة فيجعلها ترتنح وتخر مستسلمة عند أقدام من أكرهوا على الخروج من ديارهم ومن صادرت قريش أموالهم ، فكان يرصد العيون ليعرف أنباء العير المنطلقة إلى الشمال ليروعها بغاراته التماسا للغنيمة وتحطيما لروح

أعدائه المعنوية بتأكيد سيطرته على الطريق .

ونزلت قافلة قريش على القَرَدة ، ماء من مياه نجد التماسا للراحة ، ونحر الرجال الجزور وأوقدوا النيران وتأهبوا ليمضوا أمسية جميلة فى ضوء القمر ، وإذا بصوت النذير يعكر عليهم صفوهم ويصيح :

— الفزع .. الفزع .

فهب أبو سفيان ومن معه مرعوبين وأحسوا أن المسلمين قد أغاروا عليهم فانطلقوا إلى رواحلهم يمتطونها وسرعان ما ولوا هاربين وقد شغل كل منهم بنفسه ، فنسوا القافلة وما فيها من فضة كثيرة .

كان رسول الله — ﷺ — قد بعث زيد بن حارثة فلقيهم على ذلك الماء ، فلما أحسوا به أطلقوا لرواحلهم الأعنة ، فأعجزه الرجال وأصاب تلك العير وما فيها ، ثم انقلب إلى المدينة يحمل الغنيمة .

وقسمت الأموال وكان لله ورسوله الخمس ، فغدا نبى الإسلام عليه السلام يوزع نصيب الله ونصيبه من الأنفال حتى إذا ما أتى على كل ما آل إليه دخل داره لينام على الحصير .

كان زيد قد تزوج أم أيمن وكانت تكبره بسنين كثيرة ، وكان ثمرة ذلك الزواج أسامة حب رسول الله — ﷺ . وغدا أسامة هو الصلة الطيبة بين الزوج الشاب وزوجه العجوز فقد أحس زيد رغبة فى الزواج من شابة ، ولما كان ابن محمد وأول من أسلم بعد على بن أبى طالب وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عمه حمزة بعد أن هاجر إلى المدينة وآخى بين أصحابه ، فقد راح زيد يتطلع إلى الزواج من شريفة من أشراف قريش تليق بمقامه الجديد فى ظل دين الله الذى يساوى بين الناس .

وكانت زينب بنت جحش قد هاجرت إلى الحبشة مع بني جحش فرارا بدينها ، فغلقت دار بني جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، فتذكر عبد الله بن جحش وأبا أحمد عبد بن جحش وكان رجلا ضرير البصر وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعرا وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي . وتذكر الحركة الدائبة التي كانت تنبض بها الدار فتنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها
يوما ستدركها النكباء والحوب[1]

أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها .

فقال أبو جهل :

— وما تبكي عليه من قُلّ بن قُلّ[2] . هذا عمل ابن أخي ، هذا فرق جماعتنا وشتت أمرنا .

وهاجرت زينب بنت جحش إلى المدينة مع من هاجر من بني جحش عقب هجرة الرسول ﷺ ، وراح شاعرهم أبو أحمد يصف هجرتهم فيقول :

لما رأتني أم أحمد غاديا ... بذمة من أخشي وأرهب
تقول : فإما كنت لا بد فاعلا ... فيمم بنا البلدان ولتنأ يثرب

---

(١) التوجع

(٢) القل : الواحد

فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهنا ... وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول ومن يُقم ... إلى الله يوما وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصح ... وناصحة تبكي بدمع وتندب
ترى أن وترا[1] نأينا عن بلادنا ... ونحن نرى أن الرغائب نطلب
دعوت بني غَنم لحقن دمائهم ... وللحق لما لاح للناس تلحب[2]
أجابوا بحمد الله لما دعاهم ... إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا[3]
كفوجين : أما منهما فموفق ... على الحق مهدى ، وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبه وأزلهم ... عن الحق إبليس فخابوا وخُيبوا
ورعنا إلى قول النبي محمد ... فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمُت بأرحام إليهم قريبة ... ولا قرب بالأرحام إذ لا تُقرَّب
فأي ابن أخت بعدنا يأمننكم ... وأية صهر بعد صهرىَ ترقب
ستعلم يوما أينا إذ تزايلوا[4] ... وزيّل أمر الناس للحق أصوب

وكانت زينب بيضاء سمينة من أتم نساء قريش وكانت معتزة بنسبها الرفيع ، فلما رآها زيد بن حارثة بعد قدومها إلى المدينة جاء إلى النبي — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله اخطب عليّ .

— من ؟

— زينب بنت جحش .

إنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب وهو عليه السلام يعلم

---

(١) الوتر طلب الثأر .
(٢) تلحب : طريق بين واضح .
(٣) أوعبوا : اجتمعوا وكثروا .
(٤) تفرقوا .

اعتزازها بنسبها ، فقال له :

— لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك نسبا .

— يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس عليّ فعلت .

— إنها امرأة لسناء .

فذهب زيد إلى على بن أبى طالب فحمله على أن يكلم له النبى — ﷺ ، فانطلق معه على إلى النبى — ﷺ — فكلمه فقال :

— إنى فاعل ذلك ومرسلك يا على إلى أهلها لتكلمهم .

وذهب على إلى عبد الله بن جحش يكلمه فى أمر زواج زينب من زيد فاربد وجه عبد الله ، إنه كان يترقب أن يأتى ابن خاله محمد — ﷺ — ليطلب منه زواج ابنة عمته زينب بنت جحش وما خطر له على قلب أن يبعث يطلب زواج زينب من مولاه ، فسخطت زينب وسخط أخوها عبد الله ، وعاد على كرم الله وجهه إلى النبى عليه السلام فأخبره بكراهتها وكراهة أخيها لذلك .

وجاء عليه السلام إليها ليخطبها لمولاه فقالت :

— لست بناكحته .

قال عليه الصلاة والسلام :

— بل فانكحيه .

— يا رسول الله أؤامر نفسى فإنى خير منه حسبا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾(١) .

---

(١) الأحزاب ٣٦

فقالت زينب :

— رضيت .

وساق زيد إلى بنى جحش عشرة دنانير وستين درهما ودرعا وخمارا وملحفة وإزارا وخمسين مدا من الطعام وعشرة أمداد من التمر أعطاه ذلك كله رسول الله ، وبنى زيد بن حارثة مولى رسول الله عليه السلام بزينب بنت جحش سليلة أشرف بيت فى قريش من كانت تعتز بنسبها ، لتقرير حقيقة المساواة بين البشر وأن ليس لحر على عبد من فضل إلا بالتقوى .

٢٩

كان كعب بن الأشرف رجلا من طيىء ثم أحد بني نبهان ، وكانت أمه من بني النضير ، وقد ناصب رسول الله ﷺ العداء مذ هاجر إلى المدينة . فلما وقعت الحرب بين المسلمين وقريش عند ماء بدر وأيد الله المسلمين بنصره بدت العداوة على لسانه ، وقال حين بلغه مقتل سادات قريش :

— ويلكم أحق هذا ؟ أترون أن محمدا قتل هؤلاء الرجال وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها .

فلما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبى وداعة بن ضبيرة السهمى وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبى العيص بن أمية ابن عبد شمس فأنزلته وأكرمته ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ويبكى على أصحاب القليب الذين أصيبوا ببدر من قريش ، فقال :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تُصرَّع
كم قد أصيب به من ابيض ماجد ... ذى بهجة يأوى إليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت
حمَّال أثقال يسود ويربع(١)

---

(١) يربع : يأخذ الربع أى أنه كان رئيسا ، لأن الرئيس فى الجاهلية كان يأخذ ربع الغنيمة .

ويقول أقوام أُسِرُّ بسخطهم إن ابن الاشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قُتِّلوا ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة أو عاش أعمى مُرعشا لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم
خشعوا لقتل أبى الحكيم وجُدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبِّه ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم
فى الناس يبنى الصالحات ويجمع

فرد عليه حسان بن ثابت ، وأجابت كعبا ميمونة بنت عبد الله فأجابها كعب بن الأشرف :

ألا فازجروا منكم سفيها لتسلموا
عن القول يأتى منه غير مقارب
أتشتمنى أن كنت أبكى بعبرة لقوم أتانى ودهم غير كاذب
فإنى لباك ما بقيت وذاكر مآثر قوم مجدهم بالحباجب
لعمرى لقد كانت مُريدٌ بمعزل
عن الشر فاحتالت وجوه الثعالب
فحق مُريدٌ أن تجد أنوفهم بشتمهم حيَّى لؤى بن غالب
وهبت نصيبى من مريد لجعدر وفاء وبيت الله بين الأخاشب

وعاد كعب بن الأشرف إلى المدينة ، يعلن فى حماقة ما قاله فى محمد عليه السلام فى مكة وما أنشده فى رثاء سادات قريش ، واستمر فى غيه فلم يكتف بالهجاء بل شبَّب بأم الفضل بنت الحارث زوجة

العباس وثانى امرأة أعلنت إسلامها بعد الطاهرة خديجة أم المؤمنين ، فقال :

أراحل أنت لم تحلل بمنقبة — وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لوْ تعصر انعصرت — من ذى القوارير والحناء والكتم
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها — إذا تأتت قياما ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا
والحبل منها متين غير مُنجذم(١)
إحدى بنى عامر جُنَّ الفؤاد بها — ولو تشاء شفت كعبا من السقم
فرع النساء وفرع القوم والدُها — أهلُ المحلة والإيفاء بالذِّمم
لم أدر شمسا بليل قبلها طلعت — حتى تجلت لنا فى ليلة الظلم

وآذى كعب بن الأشرف الله ورسوله فقال عليه السلام :

— من لى بابن الأشرف ؟

فقال له محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل :

— أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله :

— فافعل إن قدرت على ذلك .

فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُعلق به نفسه ، فذكر ذلك لرسول الله — ﷺ — فدعاه فقال له :

— لم تركت الطعام والشراب ؟

— يا رسول الله ، قلت لك قولا لا أدرى هل أفين لك به أم لا .

---

(١) منجذم : منقطع

ـــ إنما عليك الجهد .

ـــ يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول .

ـــ قولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك .

فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش أحد بني عبد الأشهل وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عيسى بن جبر ، فرأوا أن يقدموا إليه قبل أن يأتوه أبو نائلة سلكان بن سلامة ليستدرجه ، فهو أخوه من الرضاعة وهو يطمئن إليه ، فانطلق سلكان إلى حصن كعب وكانت الليلة مقمرة فهتف وكان حديث عهد بعُرس ، فوثب فى ملحفته فأخذته امرأته بناحيتها وقالت :

ـــ إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة .

ـــ إنه أبو نائلة ، لو وجدني نائما ما أيقظني .

ـــ والله إني لأعرف في صوته الشر .

ـــ لو يُدعى الفتى لطعنة لأجاب .

فنزل فتحدث مع سلكان ساعة وتناشدا شعرا وكان أبو نائلة يقول الشعر ، ثم قال :

ـــ ويحك يا بن الأشرف ؟ إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك ، فاكتم عنى .

ـــ أفعل .

ـــ كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء فى بلاء ، عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت

الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

ـ أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول .

ـ إني قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك وتحسن في. ذلك .

ـ أترهنوني أبناءكم ؟

ـ لقد أردت أن تفضحنا ، إن معي أصحابا لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة (السلاح) ما فيه وفاء .

وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها ، قال :

ـ إن في الحلقة لوفاء .

فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم وأمرهم أن يأخذوا السلاح ، ثم ينطلقوا فيجتمعوا معهم إلى بقيع الفرقد ثم وجههم فقال :

ـ انطلقوا على اسم الله . اللهم أعنهم .

ثم رجع ـ ﷺ ـ إلى بيته وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن كعب ، فهتفوا به فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قال سلكان :

ـ هل لك يا بن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجـوز[1] فنتحدث به بقية ليلتنا هذه ؟

ـ إن شئتم .

فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة أدخل يده في فود

---

(١) شعب العجوز بظاهر المدينة

رأسه ثم شم يده فقال :

— مارأيت كالليلة طيبا أعطر قط .

ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى أطمأن ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه ثم قال :

— اضربوا عدو الله .

فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن عنهم شيئا ، فتذكر محمد ابن مسلمة مغولا[١] في سيفه حين رأى أسيافهم لا تغنى شيئا فأخذه وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولهم حصن إلا وقد أوقدت عليه نار ، فوضعه ما بين سرته وعانته ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع كعب بن الأشرف يخبط في دمه . وأصابت بعض أسيافهم الحارث بن أوس بن معاذ فجرح في رأسه ، فخرجوا حتى سلكوا على بنى أمية بن زيد ثم على بنى قريظة ثم على بعاث حتى ارتفعوا فى حرة[٢] العريض[٣] وقد أبطأ عليهم صاحبهم الحارث بن أوس وقد أضعفه نزف الدم ، فوقفوا له ساعة ثم أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه فجاءوا به رسول الله ﷺ — آخر الليل وهو قائم يصلى .

وخرج إليهم عليه السلام فأخبروه بقتل عدو الله ، فراح يضمد جرح صاحبهم وهو يستشعر راحة فقد قضى المسلمون على رجل

---

(١) المغول : السكين التى تكون فى السوط

(٢) الحرة : أرض فيها حجارة سود

(٣) العريض : وادى المدينة

أحمق يزهو بالخوض فى أعراض نساء مؤمنات .

ورجع رسول الله عليه السلام إلى أهله ورجعوا إلى أهلهم ، فأصبحوا فإذا بأسواق اليهود ودورهم قد ارتجت لمقتل كعب بن الأشرف ولم يبق فى المدينة يهودى إلا وهو يرتجف فرقا ويخاف على نفسه .

٣٠

كان عبد الله بن أبي بن سلول رأسا في المدينة وكان من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته قال :

ـ هذا أمر قد توجه .

فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها ، بل يهاجر ويترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله .

وكان القرآن الكريم ينزل ليبين حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع لذلك فساد عريض ، فهم أخطر على المجتمع المؤمن الناشيء من الأعداء السافرين ، فقال الله تعالى فيهم : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ۝ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ۝ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ۝ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ۝ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا

يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير ﴾(١) .

كان المنافقون يظهرون غير ما يبطنون وكانوا يلوذون باليهود ويقولون لهم : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . وكان هناك رجال وأناس يؤذون رسول الله ﷺ بالقول وبنظم الشعر وكان الشعر ينتشر فى المدينة وفى قريش وفى القبائل انتشار الريح فكان ذلك يثير غضب المسلمين .

كان أبو عفك من بنى عمرو بن عوف وكان يهوديا قد بلغ عشرين ومائة وكان يصغي إلى الحوار الدائر بين أحبار اليهود حول محمد عليه السلام ، فريق منهم يقول إنه النبى الذى بشر به الأنبياء وأن عليهم أن يتبعوه وفريق ينكر أن يبعث الله رسولا من غير بنى إسرائيل ويؤكد أن

---

(١) البقرة ٨ — ٢٠

اتباع النبى العربى الذى يؤمن بعيسى وبحمل مريم الطاهر إنما هو إقرار منهم بأن آباءهم كانوا على ضلال لما أنكروا رسالة المسيح . وكان ذلك الجدل يثير أبا عفك ويحرك مكامن الخوف فى نفسه على دين اليهود ، فراح يسب الإسلام ويحرض على رسول الله ـ ﷺ ، ويقول الشعر وكان فاحش القول بذىء اللسان ، فقال سالم بن عمير وهو أحد البكائين وممن شهد بدرا :

ـ على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه .

وانطلق سالم إلى الشيخ الفانى الذى كانت عداوة رسول الله ـ ﷺ ـ تسرى فيه مسرى الدم فقتله ، فلما ذاع نبأ مقتل أبى عفك بين اليهود انخلعت قلوبهم رعبا وذهبت أنفسهم شعاعا وأغلقوا عليهم حصونهم ، بينا قامت العصماء بنت مروان زوج يزيد الخطمى وكانت امرأة من الأنصار تنشد الشعر وتعيب الإسلام وأهله وتؤنب الأنصار فى اتباعهم رسول الله ـ ﷺ .

نافقت العصماء لما قتل أبو عفك فراحت تهجو رسول الله عليه السلام وتهاجم المسلمين والإسلام وهى تحسب أنها فى منعة من أهلها فقد كان لها بنون خمسة رجال وكان بنو خطمة كثيرا عددهم وكانوا على الشرك ، وكان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم خشية بطش الكفار .

وكان عمير بن عدى الخطمى ضرير البصر وكان قد أسلم وحسن إسلامه ، وكانت ثورة الحق تجتاحه كلما سمع شعر العصماء الذى تعيب فيه الإسلام وأهله . وكان يزيد فى حنقه أنها خطمية من رهطه فغدت تراوده فكرة أن يقتلها ليمحو ذلك العار الذى بات يستشعره

كلماقرعت أذنيه كلمات هجوها لنبيه عليه السلام .

واستمرت العصماء بنت مروان في غيها ولجت فى العداوة والخصام ، فثار الضرير الذى كان أول من أسلم من بنى خطمة وكان إمام قومه وقارئهم ، فمشى إليها فى جوف الليل وطعنها طعنة أزهقت روحها الخبيثة ولم يول الأدبار ، بل قام فى قومه يقول :

ـــ يابنى خطمة أنا قتلت بنت مروان .

فاستبشر المؤمنون وخاف المنافقون وغضب الكافرون ولكن لم يحركوا ساكنا لما وجدوا أن الذين كانوا يخفون إسلامهم من بنى خطمة قد أعلنوه لما رأوا من عز الإسلام .

ومشى الضرير إلى رسول الله ـــ ﷺ ، وأخبره أنه قتل العصماء ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ لا ينتطح فيها عنزان .

وسماه رسول الله عليه السلام البصير .

واستمرت الخصومات مشبوبة الأوار بين المسلمين واليهود فكان أهل الكتاب يقولون للمؤمنين :

ـــ نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم .

فيقول المؤمنون :

ـــ نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام وآمنا بنبيكم وبما أنزل من كتاب ، فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا .

وكان اليهود يعجبون للحجج التى يسوقها الأوس والخزرج ، إنهم كانوا قبل أن يقدم عليهم محمد عليه السلام لا يدرون ما الكتاب وما

الإيمان ولا يعرفون عن رسل الله شيئا ، فإذا بهم بعد أن دخلوا فى الإسلام قد تفقهوا فى الدين وأوتوا العلم والحكمة والبيان فى بضع سنين ، وأصبحوا يجادلون الأحبار المتفقهين ويلزمونهم الحجة .

إن ما فعله محمد بن عبد الله فى المدينة يثير الدهشة ، فقد ألف بين قلوب متنافرة وأزال الجهل الذى ران على بصائر العرب آلاف السنين ، فإذا بالأجلاف الذين كانوا ينظرون إلى أهل الكتاب الأول فى إجلال وتوقير يصيرون ورثة العلم الذى فاض على الأفئدة لما وصلت الحقيقة إلى أعماق النفوس .

كانت أول مرة سمعوا فيها بمحمد بن عبد الله يوم أن جاءهم النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط يسألانهم عن محمد ، فقالوا لهما : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

وأنزل الله تعالى سورة أصحاب الكهف فيها خبر الفتية الذين ذهبوا فى الدهر ، وخبر الرجل الطواف ذى القرنين ، وأنزل فى الروح : ﴿ قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[١] .

لقد قرئت عليهم سورة أصحاب الكهف وما أنزل فى الرجل الطواف والروح فانشرحت قلوب بعض اليهود للإسلام ، وقام جدال

---

(١) الأسراء ٨٥

شديد بين الذين قالوا بأنه نبي مرسل وبين الذين زعموا أنه متقول على الله . وكان محور الجدال أنه لم يأت بخبر عن الروح .

فلما قدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة قالت أحبار يهود :

ـــ يا محمد أرأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ . إيانا تريد أم قومك ؟

ـــ كُلاً .

ـــ فإنك تتلو فيما جاءك : إنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء .

ـــ إنها في علم الله قليل وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

فأنزل الله تعالى فيما سألوه عنه من ذلك : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾[1] .

وآمن نفر من يهود فاشتد الحوار بين المؤمنين من أهل الكتاب الأول والكافرين بمحمد وبما جاء به ، وراحت المدينة تنبض بالمناقشات الدائرة بين رسول الله ﷺ ، وبين أحبار اليهود المكذبين ، فلما أذن بلال لأول مرة من مسجد الرسول عليه السلام هرع إليه يهود وقالوا :

ـــ يا محمد قد أبدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم ، فإن كنت تدعي النبوة فقد خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياء والرسل من قبلك ، فمن أين لك صياح كصياح البعير ، فما أقبح من صوت ولا أسمج من كفر .

---

(١) لقمان ٢٧

وأعرض عنهم رسول الله عليه السلام ، واستمر الأذان يجلجل خمس مرات في اليوم فى أنحاء المدينة يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فزاد ذلك فى حنقهم وقالوا مستهزئين إذا ما نادى منادى رسول الله عليه السلام إلى الصلاة :

— قوموا صلوا اركعوا .

فيقومون ليقلدوا المسلمين فى صلاتهم وهم يضحكون ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون * قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون * قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبَد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ﴾(١) .

وكانت وقعة بدر بين المسلمين وقريش ونصر الله دينه وقتل صناديد مكة وساداتها ، وعاد رسول الله — ﷺ — إلى المدينة بالأسرى مقرنين فعاد الجدال بين يهود ، قال فريق منهم : إنه النبى الذى نجده فى التوراة وأننا نظلم أنفسنا بعداوته . وقال فريق آخر : ما كان الله ليبعث رسولا من الأميين . كأنما قد كتب الله على نفسه عهدا ألا يبعث رسلا إلا من بنى إسرائيل لكأنما كانوا هم وحدهم من خلقه ومن عداهم من خلق الشياطين !

ونشب الحوار بين الذين قالوا إنه النبى المنتظر ، قالت طائفة : إن

---

(١) المائدة ٥٨ — ٦٠

النصر حليفه على الدوام وهذه علامة من علاماته وإنهم سيعلنون على الملأ إسلامهم وقالت طائفة : إنهم سينتظرون وقعة ثانية بين محمد بن عبد الله وبين الكافرين فإذا ما انتصر عليهم تارة أخرى كان ذلك تأكيدا على أنه النبي الذى بشرت به الأنبياء ، من تخفق فوق جيوشه ألوية النصر المبين .

وكان أشراف اليهود أكثر الناس عداوة لرسول الله ـ ﷺ ـ وللمؤمنين ، فقد ناصبوه عليه السلام العداء مذ وطئت قدماه أرض يثرب ، فقد ضايقهم أنه آمن بالسيد المسيح وبالحمل الطاهر ، فكان ذلك الإيمان تسفيها لأحلام آبائهم الذين أصروا على إنكار رسالة السيد المسيح ، وقد رأوا فى اتباعه إقرارا منهم بأن آباءهم كانوا فى الجهالة يعمهون ، فراحوا يحاولون أن يقنعوه عليه السلام بأن يتهود ليخرجوا من مأزق الاعتراف برسالة عيسى بن مريم .

ولم يصغ عليه السلام للإغراء الذى كانوا يقدمونه إليه فى كل صورة ، فلما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة وصرفت فى رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه عليه السلام ، أتى رسول الله ـ ﷺ ـ رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف ورافع بن أبى رافع والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف والربيع بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق فقالوا :

ـ يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك .

كانوا يريدون فتنته عن دينه فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ سيقول

السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم * وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾(١) .

وفجر انتصاره عليه السلام في بدر حقد أعدائه الذين أبوا أن يؤمنوا برسالته ، فانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة يرثى قتلى بدر ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين ، فكان قتله جزاء وفاقا على وقاحته . وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله — ﷺ — وحاربوه فحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه .

وظلت المدينة تخفق بالأحداث وبالحوار الدائر بين رسول الله — ﷺ — والمؤمنين وبين أهل الكتاب الذين لجوا فى الخصام فأنزل الله تعالى : ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به ما فى بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق * إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير * وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾(٢) .

---

(١) البقرة ١٤٢ — ١٤٣

(٢) الحج ١٩ — ٢٤.

٣١

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ورجع فَلُّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى عبد الله بن أبى جهل وصفوان بن أمية والحارث بن هشام والأسود بن عبد المطلب وجبير ابن مطعم وحويطب بن عبد العزى فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا :

ـــ يا معشر قريش ، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا .

فقال أبو سفيان :

ـــ وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟

ـــ نعم .

ـــ فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى .

فلما أجمعوا على المسير قالوا :

ـــ نسير فى العرب فنستنصرهم فإن عبدة مناة غير متخلفين عنا . هم أوصل العرب لأرحامنا ومن اتبعنا من الأحابيش .

فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسيرون فى العرب يدعونهم إلى نصرهم ، فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب بن الزبعرى وأبا عزة الجمحى ، فأبى أبو عزة أن يسير وقال :

— منَّ على محمد يوم بدر وحلفت ألا أظاهر عليه عدوا أبدا .

فمشى إليه صفوان بن أمية فقال :

— اخرج .

فأبى وقال :

— عاهدت محمدا يوم بدر ألا أظاهر عليه عدوا أبدا وأنا أفي بما عاهدته عليه .

فظل صفوان به حتى خرج يسير في تهامة ويدعو بني كنانة ويقول :

إيه بني عبد مناف الرزام(١)   أنتم حماة وأبوكم حام

لا تسلموني لا يحل إسلام   لا يعدوني نصركم بعد عام

وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فقال :

يا مالِ(٢) ، مال الحسب المقدَّم

أنشد ذا القربى وذا التذمُّم

من كان ذا رُحْم ومن لم يرحم

الحِلف وسط البلد المُحرم

عند حطيم الكعبة المُعظّم

---

(١) الوزام : الذين يثبتون في مكانهم وقت القتال .

(٢) يا مال : أراد يا مالك فحذف الكاف للترخيم ، وذو التذمم : هو الذي له ذمام أي عهد .

وخرج النفر فألبوا العرب وجمعوا وبلغوا ثقيفا فخرجوا للغزو ، فلما أجمعوا المسير وتألب من كان معهم من العرب وحضروا ، واختلفت قريش فى إخراج النساء معهم قال صفوان بن أمية :

— اخرجوا بالظعن(١) فأنا أول من فعل ، فإنه أقمن أن يحفظنكم ويذكرنكم قتلى بدر ، فإن العهد حديث ونحن قوم موتورون مستميتون لا نريد أن نرجع إل ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه .

فقال عكرمة بن أبى جهل :

— أنا أول من أجاب إلى ما دعوت إليه .

وقال عمرو بن العاص مثل ذلك ، فمشى فى ذلك نوفل بن معاوية الدِّيلى فقال :

— يا معشر قريش ، هذا ليس برأى أن تعرِّضوا حُرمَكم لعدوكم ، ولا آمن أن تكون الدَّبرة(٢) لهم فتفتضحوا فى نسائكم .

فقال صفوان :

— لا كان غير هذا أبدا !

فجاء نوفل إلى أبى سفيان بن حرب فقال له تلك المقالة ، فصاحت هند بنت عتبة :

— إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك ؛ نعم نخرج فنشهد القتال فقد ردت القيان من الجحفة فى سفرهم إلى بدر ، فقتلت الأحبة يومئذ .

---

(١) الظعن : جمع ظعينة وهى المرأة فى الهودج .

(٢) العاقبة .

فقال أبو سفيان :

— لست أخالف قريشا ، أنا رجل منها ، ما فعلتْ فعلت .

ودعا جبير بن مطعم غلاما له حبشيا يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطيء بها ، فقال له :

— اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق .

فخرجت قريش بحدّها وجدّها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالنساء فى الهوادج التماس الحفيظة وألا يفروا . فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد النـاس بامرأتين : هند بنت عتبة بن ربيعة وأميمة بنت سعد بن وهب بن أشيم ابن كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين : برزة بنت مسعود الثقفى والبغوم بنت المغدل من كنانة ، وخرج طلحة بن أبى طلحة بامرأته سلافة بنت سعد بن شهيد وهى من الأوس وهى أم بنيه مسافع والحارث وكلاب والجلاس بن طلحة ، وخرج عكرمة بن أبى جهل بامرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه ابن الحجاج ، وخرجت خُناس بنت مالك إحدى نساء بنى مالك بن حسل مع ابنها أبى عزيز بن عمير أخى مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته رملة بنت طارق ابن علقمة الكنانية ، وخرج كنانة بن على بن ربيعة بن عبد العزم بن عبد شمس بن عبد مناف بامرأته أم حكيم بنت طارق ، وخرج سفيان بن عُويف بامرأته قُتيلة بنت عمرو بن هلال ، وخرج النعمان بن عمرو

وأخوه جابر مسك الذئب بأمهما الدُّغنية ، وخرج غراب بن سفيان بن عويف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية ، وخرج سفيان بن عويف بعشرة من ولده وحشدت بنو كنانة .

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشي أو مر بها قالت :

— وَيْهاً أبا دسمة اشف واستشف .

وخرجت قريش كلها ومن اجتمع إليها من القبائل من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء واحد يحمله طلحة بن أبي طلحة ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل وكان فيهم من ثقيف مائة رجل ، وخرجوا بعدة وسلاح كثير وقادوا مائتي فرس وكان فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير .

وقعد العباس بن عبد المطلب فى مكة بعد أن راودوه على الخروج معهم فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر ولم يساعدهم بشيء ، فلما أجمعوا على المسير كتب إلى رسول الله — ﷺ — كتابا وختمه وأستأجر رجلا من بنى غفار وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليها ، فراح الغفارى ينهب الأرض بفرسه حتى قدم المدينة فلم يجد رسول الله — ﷺ — بها وعلم أنه بقباء ؛ فانطلق إلى هناك فوجد رسول الله — ﷺ — على باب مسجد قباء يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب ففك ختمه ودفعه إلى أبى بن كعب فغدا يقرأ :

— إن قريشا قد اجتمعت للمسير إليك ، فما كنت صانعا إذا حلوا بك فاصنعه . وقد وجَّهوا وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتى فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وقد أوعبوا من السلاح .

واستكتم نبى الإسلام عليه السلام أبيا ما فيه ، ودخل منزل سعد بن

الربيع فقال :

— أفي البيت أحد ؟

— لا فتكلم بحاجتك .

فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب .

فجعل سعد يقول :

— يا رسول الله والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خير .

وانصرف رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وقد استكتم سعد بن الربيع الخبر ، فلما خرج رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — من منزله خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه فقالت :

— ما قال لك رسول الله — ﷺ ؟

— ما لك ولذاك ؟ لا أم لك .

— كنت أستمع عليكم .

وأخبرت سعد الخبر ، فاسترجع وقال :

— لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله — ﷺ — تكلم بحاجتك .

ثم أخذ بِجُمْعِ لُمتها ، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله — ﷺ — بالجسر فقال :

— يا رسول الله إن امرأتي سألتني عما قلت فكتمتها ، فقالت : قد سمعت قول رسول الله — ﷺ . ثم جاءت بالحديث كله ، فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيء فتظن أني أفشيت سرك .

— خل سبيلها .

وأرجفت يهود المدينة والمنافقون وقالوا :

ـ ما جاء محمدا شيء يحبه .

وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خزاعة ساروا من مكة أربعا فوافوا قريشا وقد عسكروا بذي طوى ، فأخبروا رسول الله ـ ﷺ ـ ثم انصرفوا ، ولقوا قريشا ببطن رابغ وهو أربع ليال من المدينة فنكبوا عن قريش .

فلما أصبح أبو سفيان بالأبواء حيث قبر آمنة بنت وهب أخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس ممسين إلى مكة ، فقال أبو سفيان :

ـ أحلف بالله أنهم جاءوا محمدا فخبَّروه بمسيرنا وعددنا وحذروه منا ، فهم الآن يلزمون صياصيهم ، فما أرانا نصيب منهم شيئا في وجهنا .

قرر أبو سفيان أن محمدا عليه السلام والذين معه قد دخلوا حصونهم لما بلغهم خبر مسير قريش ، فحرك ذلك خيبة الأمل في نفوس المشركين فقال صفوان بن أمية :

ـ إن لم يُصحِروا[1] لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه ، فتركناهم ولا أموال لهم فلا يختارونها أبدا ، وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم وسلاحنا أكثر من سلاحهم ولنا خيل ولا خيل معهم ، ونحن نقاتل على وِتْر عندهم ولا وتر لهم عندنا .

وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلا من الأوس حتى قدم بهم مكة حين قدم النبي ـ ﷺ ـ المدينة يحرض قريش ويُعلمها

---

(١) أصحروا : خرجوا إلى الصحراء .

أنها عَلى الحق وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ولم يسر معها . فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها وكان يقول لقريش :

— إني لو قدمت على قومى لم يختلف عليكم منهم اثنان ، وهؤلاء معى نفر منهم خمسون رجلا .

فصدقوه بما قال وطمعوا في نصره .

وخرج النساء معهن الدفوف يحرضن الرجال ويذكرنهم قتلى بدر في كل منزل ، وجعلت قريش تنزل كل منهل ينحرون ما نحروا من الجزر مما كانوا جمعوا من العين ويتقوون به في مسيرهم ويأكلون من أزوادهم مما جمعوا من الأموال .

ونظرت هند بنت عتبة إلى قبر آمنة بنت وهب فقالت لزوجها أبى سفيان :

— إنكم قد خرجتم بالظعن معكم ونحن نخاف على نسائنا فتعالوا ننبش قبر أم محمد فإن النساء عورة ، فإن يصب من نسائكم أحدا قلتم : هذه رمة أمك ، فإن كان برا بأمه — كما يزعم — فلعمرى لنفادينهم برمة أمه . وإن لم يظفر بأحد من نسائكم فلعمرى ليفدين رمة أمه بمال كثير إن كان بها برا .

فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأى من قريش فى ذلك فقالوا :

— لا تذكر من هذا شيئا ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا .

وكانت قريش بذى الحليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرجهم من مكة وذلك لخمس ليال مضين من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة ، فلما أصبحوا بذى الحليفة خرج فرسان

منهم فأنزلوهم الوطاء[1] .

وبعث النبى ـ ﷺ ـ عينين له آنسا ومؤنسا ابنى فضالة ليلة الخميس ، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا الوطاء ، وأتيا رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبراه .

وكان المسلمون قد ازدرعوا الوادى وكان أهله بنو سلمة وحارثة وظفر وعبد الأشهل ، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعهم ليلة الخميس المدينة فقدم المشركون على زرعهم فخلوا فيه إبلهم وخيولهم حتى تركوا الوادى ليس به خضراء .

وبعث رسول الله ـ ﷺ ـ الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم لما نزلوا الوادى واطمأنوا ، فدخل فيهم وحرز ونظر إلى جميع ما يريد وكان بعثه سرا وقال له :

ـ إذا رجعت فلا تخبرنى بين أحد من المسلمين إلا أن ترى فى القوم قِلّة .

فرجع إليه فأخبره خاليا وقال له :

ـ رأيت عددا حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، والخيل مائتى فرس ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع .

ـ هل رأيت ظعنا ؟

ـ نعم . رأيت النساء معهن الدفوف والأكبار (الطبول) .

ـ أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر ، هكذا جاءنى

---

(١) الوطاء : ما انخفض من الأرض .

خبرهم . لا تذكر من شأنهم حرفا . حسبنا الله ونعم الوكيل . اللهم بك أجول وبك أصول !

وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلون من شوال ، وباتت وجوه الأوس والخزرج سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير وسعد بن عبادة فى عدة منهم ليلة الجمعة عليهم السلاح فى المسجد بباب النبى — ﷺ — خوفا من تبييت المشركين ، وحرست المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا . ورأى رسول الله — ﷺ — رؤيا ليلة الجمعة شغلت كل تفكيره .

وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة حتى إذا كان بأدنى الوادى إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس ركضوا فى أثره ، فوقف لهم على نشز من الحرة فرشقهم بالنبل مرة وبالحجارة مرة أخرى حتى انكشفوا عنه ، فلما ولوا جاء إلى مزرعته بأدنى الوادى فاستخرج سيفا كان له ودرع حديد كان له دفنا فى ناحية المزرعة بهما يعدو حتى أتى بنى عبد الأشهل فخبر قومه بما لقى .

واجتمع المسلمون لصلاة الجمعة ووقف رسول الله عليه السلام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس إنى رأيت فى منامى رؤيا ؛ رأيت كأنى فى درع حصينة ، ورأيت كأن سيفى ذا الفقار انفصم من عند ظبته ، ورأيت بقرا تذبح ، ورأيت كأنى مردف كبشا .

فقال الناس :

— يا رسول الله فما أولتها ؟

— أما الدرع الحصينة فالمدينة ، وأما انفصام سيفى فقتل رجل من

أهل بيتى ، وأما البقر المذبّح فقتلى فى أصحابى ، وأما أنى مردف كبشا فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله .

وقضيت صلاة الجمعة والتف المهاجرون والأنصار برسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال :

ـ أشيروا علىَّ .

ورأى ـ ﷺ ـ ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ورسول الله عليه السلام يحب أن يوافق على مثل ما رأى وعلى ما عبر عليه الرؤيا ، فقام عبد الله بن أبى فقال :

ـ يا رسول الله كنا نقاتل فى الجاهلية فى هذه المدينة ونجعل النساء والذرارى فى هذه الصياصى ونجعل معهم الحجارة . والله لربما مكث الولْدان شهرا ينقلون الحجارة إعدادا لعدونا ونشبِّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمى المرأة والصبى من فوق الصياصى والآطام ونقاتل باسيافنا فى السكك .

يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما فضت علينا قط ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا وما دخل علينا قط إلا أصبناه ، فدعهم يا رسول الله فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن رجعوا خاسرين مقلوبين لم ينالوا خيرا ، يا رسول الله أطعنى فى هذا الأمر واعلم أنى ورثت هذا الرأى من أكابر قومى وأهل الرأى منهم ، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة .

فكان رأى رسول الله ـ ﷺ ـ مع رأى ابن أبى ، وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ من المهاجرين والأنصار ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :

ـــ امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذرارى فى الآطام ، فإن دُخل علينا قاتلناهم فى الأزقة فنحن أعلم بها منهم ، ورُمُوا من فوق الصياصى والآطام .

فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدرا :

ـــ اخرج بنا إلى عدونا .

إنهم رغبوا فى الشهادة وأحبوا لقاء العدو . وقال رجال من أهل الفطنة وأهل السن منهم حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج :

ـــ إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبنا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا . وقد كنت يوم بدر فى ثلاثمائة رجل فظفَّرك الله بهم ونحن اليوم بشر كثير . وكنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا فى ساحتنا هذه .

ورسول الله ـــ ﷺ ـــ لِما رأى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم يتساومون كأنهم الفحول :

وقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخُدْرى :

ـــ يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسنيين ، إما أن يظفِّرنا الله بهم فهذا الذى نريد فيذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة والله يا رسول الله ما نبالى أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير .

وقال حمزة بن عبد المطلب وكان صائما :

ـــ لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفى خارجا من المدينة .

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بنى سالم :

— يا رسول الله أنا أشهد أن البقر المذبَّح قتلى من أصحابك وأنى منهم ، فلم تحرمنا الجنة ؟ فوالله الذى لا إله إلا هو لأدخُلنها .

وقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

— بم ؟

— إنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف .

— صدقت .

وقال إياس بن أوس بن عتيك :

— يا رسول الله نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبّح ، نرجو يا رسول الله أن نذبح فى القوم وُيذْبح فينا فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار ، مع أنى يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فتقول حصرنا محمدا فى صياصى يثرب وآطامها فتكون هذه جرأة لقريش وقد وطئوا سعفنا ؛ فإذا لم نذب عن عرضنا فلم ندَّرع ؟ وقد كنا يا رسول الله فى جاهليتنا والعرب يأتوننا فلا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا فنذبهم عنا ، فنحن اليوم أحق إذ أمدنا الله بك وعرفنا مصيرنا ألا نحصر أنفسنا فى بيوتنا .

وقام خيثمة ، أبو سعد بن خيثمة ، فقال :

— يا رسول الله إن قريشا مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب فى بواديها ومن اتبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل واعتلوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُكلموا فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما قد صنعوا بحروثنا ، ويجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم

نخرج إليهم فنذبهم عن حريمنا . وعسى الله أن يُظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا أو تكون الأخرى فهي الشهادة .

لقد أخطأتني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصا ، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة ، وقد كنت حريصا على الشهادة . وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقا ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ودق عظمي وأحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة .

فدعا له رسول الله بذلك .

وقال أنس بن قتادة :

ـــ يا رسول الله هي إحدى الحسنيين ، إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر بقتلهم .

فقال رسول الله ﷺ :

ـــ إني أخاف عليكم الهزيمة .

فأبوا إلا الخروج والجهاد ، فوعظهم عليه السلام وأمرهم بالجد والاجتهاد وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ففرح الناس حيث أعلمهم رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله ـــ بالشخوص إلى عدوهم ، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، ثم صلى العصر بالناس وقد حُشد الناس وحضر أهل العوالي ورفعوا النساء إلى الآطام ، فحضرت بنو عمرو بن عوف بِلَفّها

والنبيت[١] ولقيفها وتلبسوا السلاح ، فدخل رسول الله — ﷺ — بيته ودخل معه أبو بكر وعمر فعمّماه ولبساه .

وصفَّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه ، فجاءهم سعد بن مُعاذ وأسيد بن حُضير فقالا لهم :

— قلتم لرسول الله ما قلتم واستكرهتموه على الخروج والأمر يتنزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه وما رأيتم فيه له هوى أو أربا فأطيعوه .

فبينما القوم على ذلك من الأمر وبعض القوم يقول :

— القول ما قال سعد .

وبعضهم على البصيرة على الشخوص وبعضهم للخروج كاره ، إذ خرج رسول الله — صلى الله عليه وآله — قد لبس لأمته (قد لبس الدرع) فأظهرها وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من أدَم كانت بعد عند آل أبي رافع مولى رسول الله — ﷺ ، واعتم وتقلد السيف . فلما خرج رسول الله — ﷺ ، ندموا جميعا على ما صنعوا وقال الذين يلحون على رسول الله — ﷺ :

— ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك .

فقال عليه السلام :

— قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم . ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

---

(١) اللف : المختلط   النبيت : الناشئة .

اختلفوا فى الخروج من المدينة والمقام بها ، وكره النبى ﷺ الخروج ثم خرج على مضض ، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج ، ثم عزم رسول الله عليه السلام على الخروج بعد أن لبس لأمتـه ، فتفرقت الكلمة بينا كانت الكلمة يوم بدر واحدة لكأنما قد اجتمع المسلمون يوم ذاك على قلب رجل واحد . ترى هلى ينتصرون فى هذه الغزوة كما انتصروا يوم بدر والنصر معقود بالعزم والجد والبصيرة فى الحرب واتفاق الكلمة ؟

وكان مالك بن عمرو النجارى مات يوم الجمعة ، فلما دخل رسول الله — ﷺ — ولبس لأمته وخرج وهو موضوع عند موضع الجنائز صلى عليه ثم دعا بفرسه ثم قال للمسلمين :

— انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ماصبرتم .

وركب رسول الله — ﷺ — إلى أحد .

التذييل

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « الله » : ترقى الإنسان فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى .

وينبغى أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات ؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبا وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة ، والصناعة تارة أخرى .

ويقول علماء المقابلة بين الأديان : إن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهى :

دور التعدد .

ودور التمييز والترجيح .

ودور الوحدانية .

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفى الدور الثانى وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها ، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبا أعظم وألزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب ، وهى موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

وفى الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ، ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائغة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيرا ما ينفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية .

والرأى الأرجح عند علماء المقابلة بين الأديان أن الاعتقاد بالثنائية

يأتى أحيانا كثيرة بعد اعتقاد الوحدانية ، ويعللون ظهور الثنائية بعد الوحدانية بأن الإنسان يترقى فى هذا الطور فيحاول تفسير الشر فى الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير ، ولا يكون هذا من قبيل النكسة فى عقيدته لأنه لا يزال يسيغ تعدد الأرباب ويسيغ التمايز والترجيح بينها والتفاوت بين درجاتها وطبائعها . فلا تكون الثنائية بعد الوحدانية نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدما من الأدنى إلى الأعلى لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان فى أطوار العبادة .

ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتى بعد جميع هذه الأطوار توفيقا بين النقائص والضرورات وإثباتا لوجود الله من طريق الثبوت الذى لا شك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان .

واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية أو أصل الباعث عليها ، فمن قائل إن الأساطير هى أصل الدين بين الهمج ، ومن قائل إن ملكة الاستحياء هى أصل الاعتقاد بالأرباب ، ويرجح آخرون أن السحر هو أصل العبادة وأصل الشعائر الدينية ، ويعلل آخرون العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من قوى الطبيعة والأحياء ، فلا غنى له عن سند يتدعه ابتداعا ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات فى شدته وبلواه .

يقول الفيلسوف كونت : « إن الدين عبادة الإنسانية » ؛ ويقول سنيكا : « إن الدين معرفة الله والتشبه به » ؛ ويقول الفيلسوف الألمانى كنت : « ينحصر الدين فى اعتقادنا بأن كل واجباتنا أوامر إلهية » ، ويقرر إسكندر باين : « أن الدين عاطفة يكونها الانفعال الهادىء

مقرونا بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة » ، ويقول هكسلى : « إن الدين إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة » .

ورأى بعض المفكرين أن الوجود البشرى إن هو إلا حوار مع الله . وجعل بعض المفكرين من الروح الدينية عرضا من أعراض طفولة الشعوب أو تصور العقل البشرى أو انحراف الشخصية الفردية ، وعجز المفكرون والفلاسفة عن تقديم تعليل يتفق عليه عن أصل العقيدة الدينية وأصل الباعث عليها .

وقد أخذ الأستاذ العقاد فكرة ترقى الإنسان فى العقائد وترقيه فى العلوم والصناعات من قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم حتى وصلت إلى الوحدانية ، وهذا القول خاطىء من وجهة النظر الإسلامية ، فهو يعتمد على فكرة أن الله من خلق الإنسان ، وينفى عنه الثبات .

يقول القرآن الكريم إن الله خلق آدم وأن آدم كان على علم : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾(١) . فتكون الوحدانية ومعرفة

---

(١) البقرة ٣٠ — ٣٣ .

الله هي الطور الأول من الأدوار التي مرت بها عقائد الشعوب حسب ما يقرره القرآن المجيد .

كان آدم على علم بالله بل كان أكثر البشر معرفة به ، فقد جرى بينه وبين خالقه حوار مباشر دون وساطة حجب : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ۞ وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ۞ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾(٢) .

ولم تنقطع صلة آدم بالله عقب هبوطه إلى الأرض بل اصطفاه ربه ليبلغ بنيه حقيقة الحق ، فلم يعرفوا إلا إلها واحدا لا شريك له ولم يتخذوا أربابا بالعشرات كما يزعم علماء المقابلة بين الأديان الذين يدحض نظريتهم واقع التاريخ .

فلو كانت نظرية النمو الديني صحيحة لبدأت العبادة بعبادة أرباب متفرقين ، ثم بانتصار رب من الأرباب وبدء دور التمييز والترجيح ، ثم ترتقى البشرية وتشيع المعرفة ويتعذر على العقل قبول الخرافات ، ويأتي عصر النور الإلهي ولا تكون ردة بعده أبدا . ولكن الدارس للتاريخ الديني للبشرية يجد أن هذا التسلسل الذى يحاول أن يمنطقه علماء الأديان لم يكن له مكان فى تاريخ البشرية الطويل ، فلو أننا تركنا مسألة خلق آدم كان على علم ، ولو لم نعترف بأن إدريس الحفيد

---

(٢) البقرة ٣٤ — ٣٦ .

السابع لآدم قد نادى بالتوحيد ، وأنكرنا رسالة نوح مع المنكرين ، وسلمنا بأن إبراهيم الخليل لم يدع إلى الإسلام ولم يعرف الله الواحد القهار ولم يدع إلى عبادته وحده ، ولم نعترف مثلهم إلا بما نقش على الحجر أو وجد مكتوبا على ورق البردى ، وتوغلنا معا فى جوف الزمن حتى نصل إلى فجر الضمير الذى تكون فى مصر فى زمن الفراعين ، فإننا نجد أن أخناتون قد عرف التوحيد ، فما إن تولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى ما يتبعه الكهنة من أساليب ، وأعلن فى شجاعة أن ديانة المصريين وثنية وأنكر الآلهة جميعا إلا إلها واحدا لا شريك له هو « آتون » ، وهو خالق حرارة الشمس ومغذيها ، وأن كل ما فى الشمس من مجد ملتهب إن هو إلا رمز للقدرة الغائبة التى لا تراها العيون .

وحرم أخناتون رسم صور للإله « آتون » فهو يرى أن إلهه الحق لا صورة له . وراح يناجى ربه قائلا :

— ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !
أى « آتون » الحى .. مبدأ الحياة .
فإذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى .
ملأت الأرض كلها بجمالك .
إنك جميل.. عظيم .. براق .. عال فوق كل الرءوس !
أشعتك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت !
وإنك تربطها جميعا برباط حبك !
ومهما بعدت فإن نورك يغمر الأرض !
ومهما علوت فإن آثار قدميك هى النهار !

ما أبهى الأرض حين تشرق فى الأفق .

هذا هو أخناتون وهذا هو توحيده منذ فجر التاريخ ، فلو كانت نظرية ارتقاء الإنسان في العقائد كارتقائه فـي العلـوم والصناعـات صحيحة ، ولو كان قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب حتى وصلت إلى دور التوحيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لحق على البشرية ألا ترتد إلى عبادة أرباب متفرقين بعد أن اهتدت إلى الإله الواحد . ولكن الواقع التاريخي يكذب هذه المزاعم كلها ، فقد كانت البشرية تعرف التوحيد ثم تعود إلـى الشرك . ثـم التوحيـد فالشرك . والقرآن الكريم يوضح هذا التذبذب بين التوحيد والشرك أبين توضيح : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾(١) ، ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون . وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكن أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ﴾(٢) ، ﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ﴾(٣) ، ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من

---

(١) الحديد ١٦ .

(٢) القصص ٤٣ — ٤٥ . (٣) طه ٨٦ .

الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون * أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصحبون * بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون * قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يُنذَرون ﴾(١) .

فالقرآن الكريم يكذب نظرية ترقى الإنسان فى العقائد ترقيه فى العلوم ، ويؤكد أن القائلين بمرور البشرية بأطوار ثلاثة هى التعدد والتميز والترجيح والوحدانية قد جافاهم التوفيق ، فالأصل التوحيد ثم طول الأمد فقسوة القلوب فإرسال رسول يوحى إليه أنه لا إله إلا الله فيدعو قومه إلى التوحيد ويقضى على الخرافات والأساطير ، فيطول على الناس العهد فيتخذون آلهة فى الأرض وفى السماء ويشركون برب العالمين ، فيأتيهم ذكر من ربهم فيعودون إلى الإيمان بإله واحد فى السماء والأرض المستعان على ما يصفون .

إنها فى نظر الإسلام دورة : وحدانية فشرك بالله ، سواء أكان ذلك الشرك تعدد الأرباب أو ثنائية فى الاعتقاد بوجود إله للخير وإله للشر ، فإرسال رسول إلى الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم لينير صدورهم بنور التوحيد ، فطول العهد ، فردة إلى الشرك المقيت ، فإرسال رسول بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم .

وتاريخ البشرية سواء أكان التاريخ الدينى الذى جاء فى الكتب

---

(١) الأنبياء ٤٢ — ٤٥ .

السماوية ، أو التاريخ الذى نقش على الحجارة أو كتب بالخط المسمارى على الطين ثم جفف ، أو دون على ورق البردى أو الرقاق أو سعف النخيل ، يؤيد الحقيقة القرآنية كل التأييد ويسخر من الزعم الذى وصل إليه من عرفوا بعلماء المقارنة بين الأديان من أن البشرية قد مرت بأطوار ثلاثة قبل أن تبلغ نضج التوحيد .

يقرر القرآن أن آدم كان على علم وأن الله اصطفاه ليبين لبنيه أن الله واحد لا شريك له ، فلما طال على بنيه العهد ألفوا المحسوس وركنوا إليه وظنوا أنه لا عالم سوى ما هم فيه من مطعم شهى ومنظر بهى ولا عالم وراء هذا المحسوس ، فقست قلوبهم فأرسل إليهم إدريس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وكانت رسالة إدريس أول خطوة على الطريق الطويل الذى ستقطعه الرسالات لتأكيد وحدانية الله على مر العصور .

وعرف الناس التوحيد والبعث والخلود ثم ارتدوا إلى الظلمات بعد النور ، فأرسل الله رسله ليزيل الغشاوات التى رانت على القلوب لتنبلج فى الصدور أنوار الحقيقة : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن إنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن

الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون * وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾(١) .

وقد عرف الناس الإيمان والإلحاد منذ بدء الخليقة ، عرفوا الكمال والحرام والحلال والعرش والملائكة واللوح والقلم والجنة والنار ، ثم لما طال عليهم الأمد قالوا إن أنهار الجنة وطيورها وثمارها إن هي إلا ترغيبات للعوام بما يميل إليه طباعهم ، وإن سلاسل النار وأغلالها إن هي إلا خزى ونكال وترهيبات للعوام بما ينزجر عنه طباعهم .

وقد عرف الصابئة الأولى عاذيمون وهرمس وهما شيث وإدريس عليهما السلام، فلما طال عليهم الأمد قالوا بحدود وأحكام عقلية أخذوا أصولها وقوانينها من مؤيد بالوحي ، ثم أنكروا الوحي والرسالة فقالوا إن الأنبياء أمثالنا فى النوع وأشكالنا فى الصورة ويشاركوننا فى المادة ويأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ، أناس بشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم ؟ وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم ؟ ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴾(٢) .

وقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطون فى الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال ، يستمدون القوة من الحضرة القدسية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية .

فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها وهى هياكلها ؛ فلكل روحانى هيكل ، ولكل هيكل فلك ، ونسبة الروحانى إلى ذلك

---

(١) إبراهيم ٩ — ١٢ .   (٢) المؤمنون ٣٤ .

الهيكل — الذى اختص به ، نسبة الروح إلى الجسد ، فهو ربه ومدبره ومديره .

وسموا الهيكل أربابا ، وربما سموها آباء والعناصر أمهات . ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات فى الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات فى المركبات ، فيتبعها قوى جسمانية ، وتركب عليها نفوس روحانية مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان .

ثم قد تكون التأثيرات الكلية صادرة عن « روحانى كلى » ، وقد تكون جزئية صادرة عن « روحانى جزئى » ، فمع جنس المطر مَلك ومع كل قطرة ملك .

ومنها مدبرات « الآثار العلوية » الظاهرة فى الجو : مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، ومما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب ، ومما يحدث فى الجو من الرعد والبرق والسحاب والضباب وقوس قزح وذوات الأذناب والهالة والمجرة ، ومما يحدث فى الأرض مثل الزلازل والمياه والأبخرة .

ومنها « متوسطات القوى » السارية فى جميع الموجودات ومدبرات الهداية الشائعة فى جميع الكائنات ، حتى لا نرى موجودا ما خاليا من قوة وهداية إذا كان قابلا لهما .

بمثل هذا التفكير تحول الإنسان الأول من عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة الملائكة والكواكب والأجرام السماوية وبعض ظواهر الطبيعة ، بعد أن خدع نفسه بقوله إن الواجب الإقرار بالعجز عن الوصول إلى جلال الله ، وإنما يقترب إليه بالمتوسطات المقربين لديه

وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرا وفعلا وحالة .

وقد انقسم أهل الأهواء والنحل منذ بدء التاريخ إلى طبيعيين دهريين قد ألفوا المحسوس وركنوا إليه وظنوا أنه لا عالم سوى ما هم فيه ، وإلى فلاسفة إلهيين ترقوا بالتحصيل عن المحسوس وأثبتوا المعقول ولكنهم لا يقولون بحدود وأحكام وشرائع ويؤمنون بأن الشرائع والحلال والحرام مسائل وضعية فيها مصلحة الناس ، وإلى صابئة يقولون بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام ولا يقولون بالشريعة التي أتى بها رسل الله وأنبياؤه .

كانت رسالة إدريس دعوة إلى عبادة الله ، إلى العودة إلى الصراط المستقيم ، إلى الوحدانية بعد الشرك بالله ، فلما طال على الناس العهد عبدوا الملائكة والكواكب واتخذوا لها أصناما ترمز إليهم ، فأرسل الله إليهم نوحا : ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال يا قوم إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .. ﴾(١) ، ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين * إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾(٢) ، ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين

---

(١) نوح ١ — ٤ .

(٢) المؤمنون ٢٣ — ٢٥ .

كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون * ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكّرون * ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ﴾(١) .

دعوة إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده قبل أن تقوم مملكة آشور ومملكة بابل فى بلاد ما بين النهرين ، وقبل أن يزعم الملوك أن الملكية قد نزلت من السماء ، وقبل أن يجلس الملوك على العرش تشبها بالله وعرش الله ! دعوة مبكرة إلى الوحدانية تدحض مزاعم القائلين بترقى الإنسان فى العبادة ترقية فى العلوم والصناعات وتكذب زعم علماء المقابلة بين الأديان الذين حسبوا أن الحضارة البشرية مد مطرد لا تعتوره نكسات ، فقالوا إن البشرية قد مرت بأطوار النمو الدينى حتى بلغت رشد الإيمان بإله واحد قهار .

وطال على الناس العهد فقست قلوبهم فعادوا إلى عبادة الملائكة والكواكب والنجوم واتخذوا من دون الله أربابا ، فأرسل الله إليهم أخاهم هودا ليعيدهم إلى الصراط المستقيم : ﴿ وإلى عاد أخاهم

---

(١) هود ٢٥ — ٣١ .

هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾(١)

وعرفت البشرية التوحيد مرة أخرى ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم فارتدوا إلى الشرك وعبادة الأصنام التى اتخذوها رموزا للملائكة أو الكواكب السيارة أو الظواهر الطبيعية التى كانت تنزل الرعب فى قلوبهم أو يأملون منها الخير العميم .

ولما كانت سنة الله سبحانه وتعالى أن يرسل الرسل إلى عباده بعد أن تقسو قلوبهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فقد أرسل صالحا إلى قومه : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾(٢) .

كانت الدعوات كلها تستهدف عودة البشرية إلى عبادة الله وحده ، وقد كادت أن تكون عبارات الدعوة واحدة ، فنوح عليه السلام يقول

---

(١) الأعراف ٦٥ — ٦٩

(٢) الأعراف ٧٣ — ٧٤ .

لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وهود يقول لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وكذلك كانت دعوة صالح . ولم يتخذ أحد منهم اسما للدين الذى يدعو إليه لأن البشرية لم تكن قد تفرقت فى الدين إلى مذاهب ، ولم يتخذ المشركون لأديانهم أسماء يميزون دياناتهم بها فقد كانوا يؤمنون أنهم يتقربون إلى الله بالمتوسطات المقربين إليه . أما فى زمن إبراهيم الخليل فقد أطلق على أديان الكفر أسماء فعرفت عبادة نانا وهى عبادة القمر ، وعبادة مردوخ وهى عبادة كوكب المشترى ، وعبادة شماش وهى عبادة الشمس ، ثم أطلقت أسماء على عبادات الشرك فكان لا بد من إطلاق اسم على دين الله ، فكان الإسلام ذلك الاسم منذ رسالة إبراهيم عليه السلام ، وقد أطلق بعد ذلك على كل عبادة تدعو إلى التوحيد : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾(١) .

وكانت دعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يقيمان القواعد من البيت أن يجعلهما الله مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾(٢) .

وأكد القرآن الكريم أن من يرغب عن ملة إبراهيم إنما يسفه نفسه ،

---

(١) الحج ٧٨ .

(٢) البقرة ١٢٨ .

وأن بنيه ويعقوب (إسرائيل) كانوا مسلمين : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾[1] .

وعبدت الشمس قبل إبراهيم الخليل وعبدت من بعده في بلاد ما بين النهرين وفى مصر وفى اليمن وفى كل بقاع الأرض التى كانت مأهولة بالسكان فى ذلك الزمان ، وهذه حقيقة لا تتفق مع ما يقول به علماء المقابلة بين الأديان من أن أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة فى جميع الأمم ولا فى جميع الأديان ، وأن عقيدة الأرواح لم تفارق أطوارها الأولى ، وأن عبادة الأسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان إلى دنياه حتى التمس لها علة فى السماء فكانت الشمس هى أكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ، ثم أصبحت الشمس رمزا للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره إلى ما هوا أعظم منها وأعلى ، فهى القنطرة الأخيرة بين العدوتين : عدوة التعديد وعدوة التوحيد .

ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزا للقوة الكونية إلا قبول التوحيد الصحيح ، فتعلمه الإنسان من الديانات شيئا فشيئا حتى بلغ بالقوة

---

(١) البقرة ١٣٠ — ١٣٣

الإلهية نهاية التنزيه .

وكان الله باللغة الآرامية « الإيل » فسمى إبراهيم ابنه البكر إسماعيل أى من سمع الله لك فيه ، وسمى حفيده إسرائيل ، ونسبت مدينة بابل إليه باب إيل . ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن الله : « ويبدو لنا هذا الترقى الدينى من ترقى العقل فى تفسير كلمة الإله ... فكلمة « إيل » بالآرامية مرادفة لمعنى القوى أو البطل ، ثم أصبحت كلمة الإيل بالتعريف مرادفة لبطل الأبطال أو للبطولة المطلقة ، كما نميز عالما بكلمة العالم مع التعريف ، لنقول إنه العالم دون سواه » .

أخذ الأستاذ العقاد بنظرية الترقى الدينى عن علماء المقابلة بين الأديان ، وإن الدارس لتاريخ البشرية الدينى ليجد فى يسر أن هذه النظرية محض خيال ، فقد ارتدت البشرية عن الوحدانية بعد إبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم ونسوا الإسلام الذى دعا إليه كل الرسل والأنبياء من بعد خليل الرحمن عليه السلام ، فيوسف الصديق يسأل ربه أن يتوفاه مسلما ويلحقه بالصالحين : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾(١) .

وعادت البشرية إلى الشرك بالله ودور تعدد الآلهة والأرباب بعد التوحيد ، حتى بنو إسرائيل ورثة العلم والتوحيد عبدوا العجل وما كان يعبد المصريون ، فأرسل الله إليهم موسى عليه السلام ليعيد الإسلام

---

(١) يوسف ١٠١ .

ناصعا كما كان أيام إبراهيم الخليل أبى المسلمين : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾(١) .

ولم يطق بنو إسرائيل التوحيد طويلا ، فقد طلبوا أن يرتدوا إلى الشرك والتعدد وموسى كليم الله فيهم ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ . ولم يكتفوا بالتمنى بل عبدوا العجل لما ذهب موسى لميقات ربه : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ﴾(٢) . ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ﴾(٣) .

وترك موسى عليه السلام التوراة فإذا بينى إسرائيل يختلفون فيها وينقسمون إلى شيع وأحزاب كل طائفة تكفر الأخرى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب ﴾(٤) .

وبعث الله داود إلى بنى إسرائيل وآتاه زبورا ليعيد بنى إسرائيل إلى الإسلام دين الله منذ بدء الخليقة الذى لم يعرف الترقى ولا التبديل والتغيير . دين الفطرة الذى كانت رسالته على الدوام أن لا إله إلا الله . وورث سليمان داود واستمر فى الدعوة إلى التوحيد وإلى الإسلام : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين ﴾(٥) .

---

(١) هود ٩٦ — ٩٧ .
(٢) الأعراف ١٤٨ .
(٣) الأعراف ١٥٠ .
(٤) هود ١١٠ .
(٥) النمل ٣٠ — ٣١ .

﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾(١) .

وعرفت اليهودية كدين بعد داود وسليمان فلم يكن لها ذكر قبل ذلك ، فداود وسليمان كانا من نسل يهوذا الابن الرابع ليعقوب (إسرائيل) . فلما آل إليهما ملك بنى إسرائيل رأى رهط يهوذا أن ينتهزوا هذه الفرصة وأن يخلدوا حدث اعتلاء اليهوديين عرش بنى إسرائيل لأول مرة ، فنفوا عن داود وسليمان الرسالة وثبتوا لهما الملك فقالوا داود الملك وسليمان الملك ثم أطلقوا اليهودية على ما ابتدعوا من دين .

وإن الواقع التاريخي يؤيد هذه الحقيقة . وقد جاء فى القرآن الكريم : ﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾(٢) .

وقد عقد كل من هنرى برستيد فى كتابه فجر الضمير وأرثر ويجال فى كتابه حياة إخناتون مقارنة بين صلوات إخناتون وأحد مزامير داود فاتفقت المعانى بينهما اتفاقا لا ينسب إلى توارد الخواطر ، وقد خلصا من ذلك أن المزامير قد أخذت معانيها عن ابتهالات إخناتون .

---

(١) النمل ٤٤ (٢)آل عمران ٦٥ — ٦٧ .

وقد يكون ذلك الاستنتاج صحيحا ولكنه لا يطعن فى رسالة داود ، فإن اليهود فى منفاهم فى بابل قد أعادوا كتابة التوراة متأثرين بالديانة البابلية والديانة المصرية ، ولم يجعلوا داود نبيا بل ملكا له خطايا قد يترفع عنها سواد البشر . إن القرآن الكريم يقرر أن الله قد آتى داود زبورا كما آتى موسى فرقانا ولم يثبت أن المزامير الواردة فى توراة بابل هى الزبور الذى ذكره الله فى قرآنه .

وألف « فرويد » كتابا سماه « موسى والوحدانية » عقد فيه مقارنة بين عقائد إختانون والعقائد العبرية ، وانتهى من مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لديه : وهو أن موسى عليه السلام تربى فى مصر فى كنف الوحدانية ونشأ فى أعقاب المعركة بين آتون وآمون واستعد للنبوة فى هذه البيئة الموحدة فعلم بنى إسرائيل كيف يوحدون الله ويعظمون صفاته وآلاءه . وكان خروج بنى إسرائيل — فى رأيه — فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، أى فى الجيل التالى لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية .. واسترسل فرويد فى تقديراته — وهو من بنى إسرائيل — حتى ظن أن موسى عليه السلام من دم مصرى وليس من اللاويين كما جاء فى التوراة .

وقد رأى المنكرون للرسالات من رجال هذا العصر فى قول بريستد وويجال وفرويد ما يؤيد إلحادهم ، واطمأنوا إلى هذه الاستنتاجات كأنما كانت حقيقة لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من خلفها ولا عن يمينها ولا عن يسارها . ولكن حفريات البحر الميت ألقت الضوء على رأى جديد يقول إن موسى كان فى عهد تحتمس الثالث وأن حتشبسوت هى التى التقطته من اليم ، أى قبل عهد الصراع بين آمون

وآتون وقبل أن يولد أخناتون ، فزعزع ذلك الاكتشاف جبال الأوهام التى أقامها فى الهواء بريستد وويجال وفرويد .

وطال على بنى إسرائيل الأمد فقست قلوبهم ونسوا الإسلام الذى جاءهم به موسى ، فوصفوا الله بالصفات البشرية ونسبوا القرابة الإنسانية إليه ، فأطلقوا على أبنائهم عمائيل (من العمومة) أو إيل أب من الأبوة ، وغير ذلك من أواصر الأسرة البشرية .

ونسبوا إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته ، فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب . وأنه دفن موسى حيثما مات فى مؤاب ! ثم اتخذوا التماثيل رمزا للإله وسرعان ما عبدوها . وقد جاء فى الإصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الثانى أن حزقيا ملك يهوذا : « .. أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع الصوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها » .

وغزا نبوخذ نصر (بختنصر) إسرائيل وحمل بنى إسرائيل أسرى إلى بابل ، وفى أرض المنفى تأثر بنو إسرائيل بعقائد البابليين ونسوا الجنة والنار وما جاءهم به موسى بعد أن حرق بختنصر كل نسخ التوراة . وفى أرض السبى أعاد أنبياء بنى إسرائيل كتابة التوراة فدسوا فيها أساطير الشعوب ووصموا أنبياء الله بكل نقيصة . ولما كان البابليون لا يؤمنون بالبعث ويقولون إن الموتى يذهبون إلى الأرض التى لا رجعة منها فقد خلت التوراة التى كتبت فى بابل من ذكر البعث واليوم الآخر . فالأرض السفلى أو الجب أو شيول هى الهاوية التى تأوى إليها الأيتام بعد الموت ولا نجاة منها لميت ... « وإن الذى ينزل

إلى الهاوية لا يصعد » .

كان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث والحساب قبل أن تكتب التوراة فى بابل بآلاف السنين ، فما رأى السادة علماء المقابلة بين الأديان القائلين بالترقى فى الديانات على مر العصور ؟ ألم يكن الفراعين الأولون أكثر رقيا فى العقيدة من بنى إسرائيل فى المنفى ؟

وفى ذلك الوقت قام فى فارس زرادشت يدعو إلى عبادة أهورامزدا إله النور ، وعرفت فارس التوحيد واعتنق الناس ديانة زرادشت ، وسرعان ما عادوا إلى عبادة النار ومزجوا الأساطير بالدين القيم فإذا بأهورامزدا يصبح على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة .

وعرف المجوس الثنائية فى العبادة فقالوا إن أهورامزدا إله النور والخير وأهريمان إله الظلام والشر . وقد عرف الثنائية قبلهم قدماء المصريين فقالوا إن أزوريس إله الخير وست إله الشر . وقد كانت الثنائية معروفة منذ فجر التاريخ وهذا يدحض زعم علماء المقابلة بين الأديان بأن الثنائية تأتى غالبا بعد التوحيد وأنها ليست نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدما من الأدنى إلى الأعلى ، لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان فى أطوار العبادة .

وعاد بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وقد تأثرت ديانتهم بديانة البابليين وأساطيرهم ، وضاقت آفاقهم الدينية فقالوا إن الإله هو رب إسرائيل وحدهم وزعموا أنهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، وقالوا إن الذى يعيش فى بيت المقدس فهو يعيش مع الله ، ووصفوا « يهوه » إلههم بأنه غيور شديد البطش متعطش إلى الدماء

سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه ، وزعموا أن الرسالة فيهم وحدهم فهم شعب الله المختار .

يزعم بنو إسرائيل أن الله اصطفاهم وأن الرسالة والنبوة فيهم . ويزعم بعض علماء الأديان أن الرسالة والنبوة انحصرت في الشرق الأوسط ويسوقون لذلك تفسيرات يحاولون أن يلبسوها ثوب العلم واليقين . ولكن الباحث في ديانات الهند وفارس والممالك التي كانت معروفة في زمن الرسالات يجد فيها آثار ديانات سماوية طمستها الأساطير لما طال على الناس العهد.وإن القرآن الكريم يقرر : ﴿ إن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾(١) . ﴿ ولكل أمة رسول ﴾(٢) .

ويذكر الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » أن اليونان عرفت النبوة وأن حكماءهم تأثروا بها ، وأن تاليس الملطي الذي كان أول من تفلسف في ملطية وثال : إن للعالم مبدعا لا تدرك صفته العقول من جهة هويته إنما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذي لا يعرف اسمه فضلا عن هويته إلا من نحو أفاعيله وإبداعه وتكوينه الأشياء . فلسنا ندرك له اسما من نحو ذاته إنما من نحو ذاتنا . إنما تلقى مذهبه من مشكاة النبوة ، فتاليس يقول إن المبدع الأول هو الماء . وفي السفر الأول من التوراة : « إن مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى ، ثم نظر إليه نظرة إلهية فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السماوات ، وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجبال » .

---

(١) فاطر ٢٤ (٢) يونس ٤٧

ويقول أنكسيمانس الملطى : « إن البارى تعالى أزلى لا أول له ولا آخر ، هو مبدأ الأشياء ولا بدء له ، هو المُدرك من خلقه أنه هو فقط وأنه لا هوية تشبهه وكل هوية فمُبدعَة منه ، هو الواحد ليس كواحد الأعداد ، لأن واحد الأعداد يتكثر وهو لا يتكثر ... أبدع بوحدانية صورة العنصر ، ثم صورة العقل انبعثت عنها ببدعة البارى تعالى » .

ويقرر الشهر ستانى فى نهاية حديثه عن فلسفة أنكسيمانس : « هو أيضا من مشكاة النبوة اقتبس ، وبعبارات القوم التبس » .

أما عن رأى أنبادُ قليس فيقول الشهر ستانى : « وهو من الكبار عند الجماعة ، دقيق النظر فى العلوم رقيق الحال فى الأعمال . وكان فى زمن داود النبى — عليه السلام — مضى إليه وتلقى منه العلم واختلف إلى لقمان الحكيم واقتبس منه الحكمة ، ثم عاد إلى يونان وأفاد .

قال : إن البارى تعالى لم تزل هويته فقط وهو هو العلم المحض ، وهو الإرادة المحضة ، وهو الجود والعزة والقدرة والعدل والخير والحق ... لا أن هناك قوى مسماة بهذه الأسماء ، بل هى هو وهو هذه كلها .

ويستمر الشهر ستانى فى سرد مذاهب الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة ، ويبدءون بتاليس الملطى وينتهون بأفلاطون ، مؤكدا أنهم قد أخذوا الحكمة من معدن النبوة ، فيقول إن فيثاغورس الذى ادعى أنه شاهد العوالم بحسه وحدسه وبلغ فى الرياضة إلى أن سمع حفيف الفلك ووصل إلى مقام الملك وقال : ما سمعت شيئا قط ألذ من حركاتها ، ولا رأيت شيئا أبهى من صورها وهيئاتها . وقال إن البارى تعالى واحد لا كالآحاد ، ولا يدخل فى العدد ولا يدرك من جهة العقل

ولا من جهة النفس ، فلا الفكر العقلي يدركه ولا المنطق النفسي يصفه ، فهو فوق الصفات الروحانية غير مدرك من نحو ذاته ، وإنما يدرك بآثاره وصنائعه وأفعاله . فيثاغورس هذا كان في زمان سليمان النبي ابن داود عليهما السلام .

وسقراط اقتبس الحكمة من فيثاغورس واقتصر من أصنافها على الإلهيات والأخلاقيات ، واشتهر بالزهد ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق وأعرض عن ملاذ الدنيا واعتزل إلى الجبل وأقام فى أعلاه . ونهى الرؤساء الذين كانوا فى زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان فثوّروا عليه الغاغة وألجئوا ملكهم إلى قتله ، فحبسه الملك ثم سقاه السم .

قال سقراط : إن البارى تعالى لم يزل هوية فقط وهو جوهر فقط . وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه وحقيقته وتسميته وإدراكه ، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره ، فهو المدرك حقا والواصف لكل شيء وصفا والمسمّى لكل موجود اسما ، فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما ، وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفا ؟!. فنرجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله ، وهى أسماء وصفات إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المخبرة عن حقيقته ، وذلك مثل قولنا : إله أى واضع كل شيء ، وخالق أى مقدر كل شيء ، وعزيز أى ممتنع أن يضام ، وحكيم أى محكم أفعاله على النظام ، وكذلك سائر الصفات .

ثم إن مذهب « سقراط » أن أخص ما يوصف به البارى تعالى هو كونه حيّا قيوما ، لأن العلم والقدرة والجود والحكمة ... تندرج تحت كونه حيا ، والحياة صفة جامعة للكل ، والبقاء والسرمد والدوام

وحفظ النظام فى العالم تندرج تحت كونه قيوما ، والقيومية صفة جامعة للكل .

وربما يقول : هو حي ناطق من جوهر أى من ذاته ، وحياتنا ونطقنا لا من جوهرنا ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدثور والفساد ، ولا يتطرق إلى حياته ونطقه — تعالى وتقدس .

ومن مذهب سقراط أن النفوس الإنسانية كانت موجودة قبل وجود الأبدان على نحو من أنحاء الوجود إما متصلة بكلها وإما متميزة بذواتها وخواصها ، فاتصلت بالأبدان استكمالا واستدامة ، والأبدان قوالبها وآلاتها فتبطل الأبدان وترجع النفوس إلى كليتها .

وقال الشهرستانى عند الحديث عن رأى أفلاطون الإلهى إنه آخر المقدمين الأوائل الأساطين معروف « بالتوحيد » والحكمة ، ولد فى زمن أردشير بن دارا فى سنة ست عشرة من ملكه ، ولما اغتيل سقراط بالسم ومات قام مقامه وجلس على كرسيه ، وقد أخذ العلم من سقراط وطيماوس وضم إليه العلوم الطبيعية والرياضة .

وحكى عنه قومه ممن شاهده وتتلمذ له مثل : أرسطاطاليس أنه قال : إن للعالم محدثا مبدعا أزليا واجبا بذاته ، عالما بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية ، كان فى الأزل ولم يكن فى الوجود رسم ولا طَلل إلا مثالا عند البارى تعالى ، ربما يعبر عنه بالهيولى وربما يعبر عنه بالعنصر ولعله يشير إلى صور المعلومات فى علمه تعالى .

قالَ : فأبدع العقل الأول ويتوسطه النفس الكلية ، وقد انبعثت عن العقل انبعاث الصورة فى المرآة ويتوسطها العنصر .

وقال : والعالم عالمان : عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور

الروحانية ، وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجسمانية ، كالمرآة المجلوة التى تنطبع فيها صور المحسوسات . فإن الصور فيها مثل الأشخاص ، وكذلك العنصر — فى ذلك العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها ، غير أن الفرق أن المنطبع فى المرآة الحسية صور خيالية يرى أنها موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس فى الحقيقة كذلك ، وأن المتمثل فى المرآة العقلية صور حقيقية روحانية هى موجودة بالفعل تحرك الأشخاص ولا تتحرك ، فنسبة الأشخاص إليها كنسبة الصور فى المرآة إلى الأشخاص فلها الوجود الدائم ولها الثبات القائم ، وهى تتمايز فى حقائقها تمايز الأشخاص فى ذواتها .

وقال : وإنما كانت هذه الصور موجودة كلية دائمة باقية ، لأن كل مبدَع ظهرتِ صورته فى حد الإبداع فقد كلنت صوزته فى عالم الأول الحق والصور عنده بلا نهاية ، ولو لم تكن الصور معه — فى أزليته — فى علمه لم تكن لتبقى ، ولو لم تكن دائمة بدوامها لكانت تدثر بدثور « الهيولى » ، ولو كانت تدثر مع دثور الهيولى لما كانت على رجاء ولا خوف ولكن لما صارت الصور الحسية على رجاء وخوف استدل به على بقائها ، وإنما تبقى إذا كانت لها صور عقلية فى ذلك العالم ترجو اللحاق بها وتخاف التخلف عنها .

قال : وإذا اتفقت العقلاء على أن هناك حسا ومحسوسا وعقلا ومعقولا ، وشاهدنا بالحس جميع المحسوسات وهى محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ، فيجب أن نشاهد بالعقل جميع المعقولات وهى غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ، فتكون

مثلا عقلية .

أخذ الحكماء السبعة حكمتهم من مشكاة النبوة ، فلما طال على الناس العهد تشبعت آراء الفلاسفة وحكمهم . وقد تفلسف أهل الكتاب الأول والعلم الأول بعد أن أفسدوا التوراة فى أرض المنفى ، وكان أقدم فلاسفة اليهود الذين أسسوا قنطرة الاتصال بين الدين والفلسفة فيلون السكندرى الذى ولد فى السنة العشرين قبل الميلاد وتوفى بعد ذلك بنحو سبعين سنة .

تقدم اليهود فى الزمن وتقدموا فى دراسة الفلسفة اليونانية ، وبلغ اختلاطهم بمذاهب الفلسفة أتمه فى مدينة الإسكندرية قبيل الميلاد لأنها أصبحت مركز الثقافة فى العالم المتحضر بعد انتهاء عصر الفلسفة من أثينا وسائر بلاد الإغريق .

تعلم فيلون من دينه أن الله ذات ، وتعلم من الفلسفة اليونانية أن الله عقل مطلق مجرد من ملابسات المادة ، فلم يستطع أن يقبل الصفات والأنباء التى أسندت إلى الله فى كتب اليهود بدلالتها الحرفية ونصوصها الظاهرة ، ولم يستطع أن يجارى الفلاسفة فى عزلهم بين الله ومخلوقاته ورفعهم عناية الله عن الاشتغال بأحوال هذه المخلوقات .

إلا أنه كان على اقتناع مكين بتنزيه الله عن صفات التشبيه والتجسيم ، وكان يرى أن عقل الإنسان لن يستثبت من صفات الله شيئا ، غير أنه موجود ولكنه فى وجوده الكامل المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول .

فكيف يتأتى الاتصال بين هذا الخالق وبين مخلوقاته فى هذه الصور المادية ؟ وكيف يفهم الصفات والأنباء التى أسندت إليه فى كتب أنبياء

اليهود ؟

أما كتب الأنبياء فهو لا يرفضها ولكنه يقبلها على الرمز والمجاز ، ويقول إنها تنطوى على حقيقة أعمق من الحروف والنصوص يفهمها المستعدون لها على درجات ، وأما الاتصال بين الخالق والمادة فإنما يكون بوسيلة العقل أو الكلمة ، فالعقل يصدر عن الله والمادة تنقاد للعقل فتتحرك وتنتظم وتتعدد فيها طبقات المخلوقات .

وكان فيلون يرفض أقوال الرواقيين التى تشبه القول بوحدة الوجود وتجعل الله من العالم والعالم من الله ، ولكنه كذلك كان يرفض مذهب أرسطو فى تجريده الله عن العمل فى المخلوقات وزعمه أن كمال الله يقتضى هذا التجريد . قال : إن بعضهم ممن فاق إعجابهم بالعالم إعجابهم بصانعه يقولون إن العالم أبدى بغير بداية ، وينسبون إلى الله نسبة خلت من التقوى والحق إذ يجردونه من العمل وكان أحرى بهم أن يقفوا موقف الروعة أمام قدرته : قدرة الصانع والأب ، ولا يتجاوزوا الحد فى تعظيم العالم وتمجيده . وقد كان موسى الذى بلغ الذروة فى الفلسفة واهتدى بوحى الله إلى أعمق أسرار الطبيعة يعلم أن الضرورة أوجبت أن يوجد فى الكون سبب محرك ومادة لا حراك بها ، وأن السبب المحرك هو العقل أو هو عقل الكون الطهور الذى يعلو على الفضيلة والعلم ، ويعلو على الخير نفسه وعلى الجمال نفسه .. أما المادة التى لا حراك بها فليست لها روح ولا طاقة لها بالحركة من عند ذاتها، ولكنها متى تحركت بالعقل واستمدت منه روح الحياة صارت إلى هذا الصنع المحكم العجيب المتجلى لنا فى هذا العالم ، وإن أولئك الذين يحسبون العالم بلا بداية لا يبصرون أنهم يقطعون بذلك الحسبان

ألزم عنصر من مقومات الدين وهو الإيمان بالعناية الإلهية ، لأن العقل ينبئنا أن الأب الخالق يعنى بما خلق ... » .

ورفض فيلون زعم الزاعمين أن الله يحتويه مكان أو زمان لأنه محيط بكل مكان وزمان ، ويرفض زعم الزاعمين أن الله لا يستجيب للصلاة لأن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين الإنسان والله ، وعنده أن الله يستجيب دعاء « الكلمة » لهذه الموجودات الأرضية ، وأن موسى عليه السلام هو « الكلمة » الذى استجاب الله دعاءه فى سيناء ، وهو الذى خلص من شوائب المادة فلحق بالطبيعة الإلهية »[1] .

قال : إن الله أحد ، ولكنه بقدرته خير حاكم . فبالخير صنع العالم وبالحكم يدبره ، وثمة شيء ثالث يجمع بين القدرتين وهو الكلمة ، لأن الله — بالكلمة — يجود ويحكم .. والكلمة كانت فى عقل الله قبل جميع الأشياء .. وهى متجلية فى جميع الأشياء » .

وكان مذهب فيلون مبدأ ثورة دينية فى بنى إسرائيل ، فتابعه أناس فى التأويل والتفسير ، وأحجم الناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث القديم ، وانتهى الخلاف إلى انشقاق حاسم بين القرائين وهم الملتزمون بالنصوص وبين الربانيين الذيـن يجيـزون تفسيرهـا والتوفيق بينها وبين مقررات العلم ومذاهب الحكمة .

أفسد اليهود التوراة فى أرض بابل وكتبوها بأيديهم وأضافوا إليها سير من قاموا بخدمات لشعب بنى إسرائيل ، فانحرفت من كتاب منزل من السماء إلى كتاب أدب وتاريخ يسجل أعمال البارزين فى التاريخ

---

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ العقاد .

اليهودى ، واعتنق بعض مفكرى اليهود المذاهب الفلسفية التى انتشرت فى ذلك الوقت فإذا بالقلوب تقسو وإذا بشطحات الفكر تقود إلى الكفر والشرك بالله ، وإذا بالزمان يصبح فى حاجة إلى رسول من عند الله ليزيل الأساطير التى رانت على الضمائر ويعيد إلى الأرض الإسلام دين الله . فأرسل الله إلى بنى إسرائيل المسيح عليه السلام . ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾(١)

ودعا المسيح عليه السلام إلى الإسلام وآمن له الحواريون : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾(٢) .

ولم يطل مكث الإسلام الذى جاء به المسيح فى الأرض فقد قام بولس بمزج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ولا سيما فلسفة الحلول ، وراح يقول إن المسيح جالس علي يمين الله ويدعو لمن يطلب لهم الخبز « أن تسكن فيهم كلمته » ، ويسأل لهم الغفران منه ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض .

وأشار إلى المسيح عليه السلام فى صلواته : ﴿ باسم ربنا يسوع المسيح ﴾ . وسمى نفسه باسم ﴿ رسول يسوع المسيح بحسب أمر

---

(١) الحديد ٢٦ — ٢٧ .

(٢) المائدة ١١١ .

الله مخلصنا وربنا يسوع المسيح ﴾ . وإن كان القرآن الكريم يؤكد أن الله قد تاب على آدم بعد خطيئته : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾(١) إلا أن بولس استمر يؤكد أن أبناء آدم قد توارثوا خطيئته وسماها « الخطيئة الموروثة » ، وقال إن المسيح إنما صلب ليطهر البشرية من تلك الخطيئة .

وكان لنظرية بولس أعمق الأثر في إلحاد من ألحدوا من منكرى المسيحية وفلاسفتها ، فنظرية الخطيئة الموروثة لا تستقيم مع عدل الله الذى يقرره فى كل دياناته السماوية : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾(٢) . ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾(٣) .

فاضت كتب رجال الدين وآباء الكنيسة وبسكال وبوسويه وماسيون وغيرهم من الناطقين باسم التقليد المسيحى بفكرة أن الإنسان فى نظر هؤلاء جميعا مخلوق وضيع لا يملك أية طهارة ولا يتمتع بأية فضيلة ولا تنطوى نفسه على أية براءة ! إنه عند أصحاب نظرية الخطيئة الأولى « مخلوق ساقط بهيمى تعميه شهوته الدنيئة بحيث إنه لولا خوفه من نار جهنم أو لولا احترامه لسلطة المجتمع لأقدم على ارتكاب أدنى الموبقات ، ولما تورع عن إتيان أحط الجرائم !(٤) .

احتدم الخلاف بين المجامع والكنائس لما اعتنق أباطرة الرومان الدين المسيحى كما جاءهم به بولس ، واشتد الجدل حول تفسير كلمات الأب والابن والروح القدس والكلمة ، واختلفوا فى أقانيم الثالوث : هل الابن مساو للأب ؟ وهل هو ذو طبيعة واحدة أو ذو

---

(١) البقرة ٣٧ . (٢) فاطر ١٨ . (٣) النجم ٣٩

(٤) مشكلة الإنسان : الدكتور زكريا إبراهيم

طبيعتين إلهية وإنسانية ؟ وهل هو إله أو إنسان مفضل على سائر البشر ؟ وهل يصدر الروح القدس من الأب وحده أو من الأب والابن معا ؟ وهل المسيح هو الكلمة أو هو الابن فقط أو أن الكلمة والابن مترادفان ؟ أو أن الكلمة هى الأب والإله ؟

ظل شبح « الخطيئة الموروثة » يطارد أفكار المفكرين والفلاسفة حتى بعد القول بأن الصلب كان كفارة عنها ، وذلك يظهر بوضوح فى فلسفة نيتشه فهو يقول :

« إن كان من شأن فكرة الله أن تسقط ضلال الخطيئة على براءة الأرض ، فإنه لا بد للمؤمنين بالحس الأرضى مع أن يهووا بمعاولهم على تلك الفكرة » .

وراح نيتشه ينادى : « طوبى لأتقياء القلب لأنهم لا يعاينون الله .. لقد صرنا بشرا ولهذا فإننا لا نريد إلا ملكوت الأرض .. إلى أين مضى الله ؟ سأقول لكم إلى أين مضى ! لقد قتلناه ، أنتم وأنا ، أجل نحن الذين قتلناه . نحن جميعا قاتلوه ! ألا تشمون رائحة العفن الإلهى ؟.. إن الآلهة أيضا تتعفن ! لقد مات الله وسيظل ميتا » .

وكتب نيتشه يقول : « إن فكرة الله قد بقيت حتى الآن أقوى اعتراض ضد الوجود ... ونحن جميعا ننكر الله وننكر مسئولية الله فإننا عن هذا الطريق إنما ننقذ العالم » .

ويردد سارتر عبارات نيتشه فيقول : « إن الله قد مات ولكن هذا لا يعنى أنه غير موجود أو أنه لم يعد موجودا ، بل إن الله قد مات بمعنى أنه كان يحدثنا فى صمت فلم نعد نستطيع أن نلمس منه الآن إلا جثة هامدة ، إن الله قد مات ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن الإنسان قد

أصبح ملحدا ، فإن صمت المتعالى ، مضافا إليه استمرار قيام الحاجة الدينية لدى الإنسان الحديث ، إنما هو فى صميمه مشكلة كبرى ، وهذه المشكلة التى ثارت بالأمس كما تثور اليوم إنما هى المشكلة التى لا زالت تؤرق نيتشه وهيدجر ويسبرز » .

أرقت فكرة « الخطيئة الأولى » رجال الفكر مذ قال بها بولس ، فهى فكرة إن دلت فإنما تدل على ظلم الإله الذى ينبغى أن ينزه عن كل نقيصة ، وقد دارت حولها مناقشات على مر العصور حتى دفعت بعض الفلاسفة فى العصر الحديث إلى أن يقولوا إن الله قد مات .

ثارت المشكلات اللاهوتية وشغلت عقول الباحثين بين المسيحيين ، وذهب الدين المسيحى شيعا مختلفة لكل شيعة قوانين تناقض نفسها ، وصار بعض العقائد لا يتفق فى شىء مع ما جاء به المسيح عليه السلام على الرغم من قرب العهد ، فمن قائلين إن التثليث يشمل الأب والابن وروح القدس إله واحد ، كما يتكون الإنسان من جسم وروح وعقل باطنى ، ومن قائلين إن المسيح ابن الله ولكنه منفصل عنه وأقل منه ، ومن قائلين إن للمسيح طبيعتين مختلفتين إلهية وإنسانية وأن مريم إن هى إلا أمه وإنه لمن الكفر أن تدعى أم الإله . ومن قائلين إن عيسى هو الله قبل التجسد وبشر أثناء التجسد . ومن شيعة من النساء يعبدن مريم العذراء . ومن مريميين يقدسون التثليث ، فالله الأب والله الابن والله الأم مريم .

وضاع الإسلام الذى جاء به السيد المسيح فى ركام الفلسفة والأساطير ، وظهر الفساد فى البر والبحر وبدا أن شجرة الحضارة قد دب فيها الفساد حتى اللباب . وفى ذلك الوقت أرسل الله محمد بن

عبد الله ليدعو الناس كافة إلى الإسلام .

إن النظرية الإسلامية تقرر أن الأصل التوحيد ثم الشرك كلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، ثم التوحيد فالشرك . وإن الواقع التاريخي يؤيد ما جاء في القرآن الكريم وينكر كل الإنكار ما زعمه علماء المقابلة بين الأديان من أن الإنسان قد ترقى في العقائد كما ترقى في العلوم .

وكان الإسلام منذ بدء الخليقة هو دين الله ، دعا إليه كل الرسل والأنبياء لم يعرف الترقي . ويؤيد ذلك قول الله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(١) . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾(٢) .

وقد أنزل الله على رسله كتبا لهداية البشر فاندثرت أو حرفت أو كتبت بأيدي الناس ثم قالوا : هذا من عند الله . ولما كان الله سبحانه وتعالى قد جعل رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات فقد كتب على نفسه حفظ كتابه الكريم .

فقال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٣) . وإن كل يوم يمر والقرآن بين الناس ليزيد هذه الحقيقة تأكيدا .

ويقول الأستاذ العقاد في كتابه « الله » : فلما ظهر الإسلام في الجزيرة العربية كان عليه أن يصحح أفكارا كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الإلهية ، وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتنازعين على تأويل الديانات

---

(١) آل عمران ١٩ .	(٢) آل عمران ٨٥ .	(٣) الحجر ٩ .

الكتابية .

فإذا كانت رسالة المسيحية أنها أول دين أقام العبادة على « الضمير الإنساني » وبشر الناس برحمة السماء ــ فرسالة الإسلام التى لا التباس فيها أنها أول دين تمم الفكرة الإلهية وصححها مما عرض لها فى أطوار الديانات الغابرة .

فالفكرة الإلهية فى الإسلام « فكرة تامة » لا يتغلب فيها جانب على جانب ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير ، بل له المثل الأعلى وليس كمثله شىء .

فالله وحده لا شريك له ﴿ ولم يكن له شريك فى الملك ﴾(١) .. ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾(٢) .. ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(٣) .. والمسلمون هم الذين يقولون : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله ﴾(٤) .. ﴿ ولن نشرك بربنا أحدا ﴾(٥) .. ويرفض الإسلام الأصنام على كل وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب .

ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء وله الأسماء الحسنى ، فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة ، ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة ، فهو قادر على كل شىء وهو عزيز ذو انتقام . وهو كذلك رحمان رحيم غفور كريم .. قد وسعت رحمته كل شىء و « يختص برحمته من

---

(١) الفرقان ٢ .　　(٢) الأعراف ١٩٠ .　　(٣) يونس ١٨ .

(٤) يوسف ٣٨ .　　(٥) الجن ٢ .

يشاء ﴾[١]

وهو الخلاق دون غيره و ﴿ هل من خالق غير الله ؟ ﴾[٢] .

فليس الإله فى الإسلام مصدر النظام وكفى ، ولا مصدر الحركة الأول وكفى ، ولكن ﴿ الله خالق كل شىء ﴾[٣] .. و ﴿ خلق كل شىء فقدره ﴾[٤] .. و ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾[٥] .. ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾[٦] .

ومن صفات الله فى الإسلام ما يعتبر ردا على « فكرة الله » فى الفلسفة الأرسطية ، كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل فى الأديان الكتابية وغير الكتابية ، فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ، ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب فى رأيه والله كمال لا يطلب غير ذاته ويجل عن علم الكليات والجزئيات لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه .

ولكن الله فى الإسلام ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾[٧] و ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾[٨] ... ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾[٩] .. ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾[١٠] ... ﴿ وسع كل شىء علما ﴾[١١] ... ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[١٢] ... ﴿ عليم بما فى الصدور ﴾[١٣] .

---

(١) البقرة ١٠٥ . (٢) فاطر ٣ . (٣) الزمر ٦٢ .
(٤) الفرقان ٢ . (٥) يونس ٤ . (٦) الأنعام ١٠١ .
(٧) الأنعام ٧٣ . (٨) سبأ ٣ . (٩) يس ٧٩ .
(١٠) المؤمنون ١٧ (١١) طه ٩٨ (١٢) الأعراف ٥٤ (١٣) الشورى ٢٤

هذا هو رأى الأستاذ العقاد وهو فى كل ما يقرر متأثر بفكرة ترقى الإنسان فى العقائد ترقيه فى العلوم والصناعات ، وإنى أرى أن الأستاذ العقاد قد قارن بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية بعد أن اعتورهما التبديل والتحوير لما طال على الناس الأمد فقست قلوبهم ، ولكن الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أن الإسلام الذى دعا إليه جميع الرسل والأنبياء لا يختلف عن الإسلام الذى دعا إليه محمد ﷺ ، فالفكرة الإلهية فى كل من دعوة موسى عليه السلام ودعوة عيسى عليه السلام لا تختلف عن الفكرة الإلهية التى دعا إليها رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، فهى فكرة تامة فى كل الديانات السماوية . فإن كانت عوارض قد عرضت للديانات الغابرة فما ذلك من عند الله ولكنه من عند الناس ، وإن كان الإسلام الذى دعا إليه محمد عليه السلام أكد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فجميع الديانات السماوية قد أكدت نفس الدعوة وأكدت علمه وأنه عالم الغيب والشهادة وأنه الخلاق دون سواه .

إن دين الله لم يعرف الترقى منذ آدم ، إنه ثابت لا يتغير وكل ما كان يعتوره من تبديل إنما بفعل البشر كلما طال عليهم العهد . ﴿ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾(١) .. ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ﴾(٢) ... ﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾(٣) . ﴿ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ﴾(٤) .

---

(١) طه ٨٦ (٢) الأنبياء ٤٤ (٣) الحديد ١٦ (٤) القصص ٤٥

واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية أو أصل الباعث عليها ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾(١) . فالله قد فطر البشر على أنه لا إله إلا هو : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾(٢) . وقال رسول الله ﷺ : (كل مولود على الفطرة) فالله سبحانه وتعالى يخلق عباده حنفاء والآباء يفسدون الفطرة بما يلقنون الأبناء من خرافات وأساطير .

ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتي بعد دور التعدد ودور التمييز والترجيح ودور الوحدانية ودور الثنائية ، توفيقا بين النقائض والضرورات وإثباتا لوجود الله من طريق ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان . ووحدة الوجود باختصار هي القول بأن الله سبحانه وتعالى هو جميع هذه الموجودات ، وأنها ليست فيه على سبيل التجزئة والتفرقة ولكنها تكمن فيه كما يكمن الربع والنصف في الواحد ، فليس هو كله وليس هو منفصلا عنه وليس هو موجودا على التحقيق ولكنه موجود بالإضافة إلى وجود الله ، أو أن وجوده كوجود الفرد بالنسبة إلى حقيقة النوع ، فهو ليس بمعدوم ولكنه لا يزيد تلك الحقيقة ولا ينفصل عنها .

أرادت الفلسفة أن تجد تفسيرا للوجود فقالت إن هذا الوجود إنما

---

(١) الأعراف ١٧٢ — ١٧٣ . (٢) الروم ٣٠ .

هو تعبير عن الموجود وتعريف به حين أراد أن يعبر عن نفسه ليعرف .
والإسلام فى هذه القضية واضح كل الوضوح ، فهو يقرر إذعان الإنسان لخالقه والإقرار بالعبودية لله وحده دون سواه وقدرة الموجد وحكمته وجلاله وعظمته ، فكل موجود قد أوجدته القدرة الإلهية وهو مقهور لهذه القدرة مسير بأمرها ويؤدى ما يجب للمعبود على العباد من طاعة وشكر : ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقد عرف بعض متصوفة الإسلام وحدة الوجود ، ويقول لسان الدين بن الخطيب فى مفهوم هذه الوحدة عند الصوفيين الموغلين فى التصوف : « إن الزمان والمكان والغيبة والظهور والألم واللذة والوجود إنما هى عندهم أوهام راجعة إلى إخبار الضمير وليس فى الخارج شىء .. فإذا سقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما حوله واحدا .. ذلك أن الواحد هو الحق وإنما الحق مؤلف من طرفى حق وباطل ، فإذا سقط الباطل — وهو اللازم — بالأوهام ، لم يبق إلا الحق !؟

والتعبد عندهم عبارة عن التزام الأوهام الواقع بها التعدد والتعدد باطل ! وقالوا : العالم لا يصح أن يقال فيه قديم ومحدث ، إذ ذلك مبنى على الزمان .. والزمان وهم إذ هو مقدار الحركة .. والحركة وهم .. وما ثم إلا حيز مجرد .. لا شىء منه فى الخارج » .

وهذا التصوير يكاد يكون نقلا عن الفلسفة الرواقية التى تنكر

---

(١) الحشر ١ .

معطيات الحواس وتذهب إلى دفع كل ما تجيء به من أنباء عن عالم الحس وعدها كل ذلك من عمل الوهم والخداع .

ويقول ابن خلدون فى فلسفة الوحدة عن بعض المتصوفة الذين يؤمنون بأن وحدة الوجود لا تقوم على الشك فى معطيات الحواس وإنما تستند إلى نشأة الوجود وإلى الصلة بين الخالق وما خلق : « وأول مراتب التجليات عندهم تجلى الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بإضافة الإيجاد والظهور لقوله سبحانه فى الحديث القدسى الذى يتناقلونه : « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفونى » .

وهذا الكمال المتنزه فى الوجود وتفصيل الحقائق هو عندهم عالم المعانى والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية ، وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمّل من أهل الملة المحمدية ، وهذا كله تفصيل للحقيقة المحمدية .. وتصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى فى الحضرة الهبائية وهى مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسى ثم الأفلاك ثم العناصر ثم عالم التركيب .. هذا فى عالم الرتق ، فإذا تجلت فهى فى عالم الفتق .. ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلى والمظاهر والحضرات .. وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه » .

ويقول ديبور فى كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية : « غير أن الغلاة من أهل التصوف زادوا على هذا بأن قالوا : بأنه لا موجود فى كل شيء إلا الله ، ومن هذا المنزع الأخير نشأ مذهب فى وحدة الوجود خالف مذهب جمهور المسلمين وكان من شأنه أن جعل العالم خيالا

لا حقيقة ، كما وجد بين الإنسان وذات الله .

وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية — أى نفى الصفات عن الله وأنه عين صفاته — قال المتصوفة بوحدة شاملة لكل شيء . وبعد أن كان الأولون — أى الجبرية من المعتزلة — يقولون بفعل الله فى كل شيء قال الآخرون — المتصوفة — بوجود الله فى كل شيء » .

وفى أقوال القائلين بوحدة الوجود من المتصوفة خروج على مقررات الشريعة ومفاهيمها خروجا واضحا ، بل عودة إلى الشرك وعبادة غير الله ، فالجبلى أحد شيوخ المتصوفة يقول : « إن الحق من حيث ذاته يقتضى ألا يظهر فى شيء وإلا ويعبد ذلك الشيء . وقد ظهر — أى الحق — « الله » . فى ذات الوجود ، فحق أن تعبد هذه الذوات وليس شيء منها أولى من شيء بتلك العبادة » .

طال على الناس الأمد فقست قلوبهم وما كان الله ليبعث رسولا بعد محمد عليه السلام ، فكتاب الله بين أيدى الناس يرجعون إليه وينهلون من مناهل الحق وقد كتب الله على نفسه أن يحفظه .

ولقد عرفنا آراء بعض الفلاسفة والمفكرين على مر العصور فى ذات الله ، وإن خير ما نختتم به هذا التذييل سرد خطبة للإمام على بن أبى طالب ربيب النبوة يتحدث فيها عن الله :

« الحمد لله الذى لا يبلغ مِدْحَته القائلون ، ولا يُحصى نعماءه العادُّون . ولا يؤدى حقه المجتهدون ، الذى لا يدركه بُعد الهمم . ولا يناله غوص الفطن . الذى ليس لصفته حدٌّ محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود ، فطر الخلائق بقدرته ،

ونشر الرياح برحمته ، ووطد بالصخور ميدان أرضه .

أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده فقد عده ، ومن قال : « فيم » فقد ضمنه ، ومن قال : « علام فقد أخلى به [1] .

كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزاولة . فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه . متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها . ولا همامة نفس اضطرب فيها . أحال الأشياء لأوقاتها ، ولاءم بين مختلفاتها ، وغرز غرائزها ، وألزمها أشباحها ، عالما بها قبل ابتدائها ، محيطا بحدودها وانتهائها ، عارفا بقرائنها وأحنائها » .

---

(١) من تصور أنه على الكرسى أو العرش فقد أخلى منه غير ذلك الموضع .

المراجـع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى — للحافظ ابن كثير

عمدة التفسير

تاريخ الطبرى

شرح نهج البلاغة — لابن أبى الحديد

السيرة النبوية — لابن هشام

مشكلة الإنسان — للدكتور زكريا إبراهيم

مشكلة الحرية — للدكتور زكريا إبراهيم

الأغانى — لأبى الفرج الأصفهانى

الملل والنحل — للشهرستانى

الله .. ذاتا وموضوعا — لعبد الكريم الخطيب

الله — لعباس محمود العقاد

أسباب النزول — للنيسابورى

Moses and Monotheism — لفرويد

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — للنويرى

السيرة الحلبية — لعلى برهان الدين الحلبى

للمؤلف

		الطبعة الأولى
احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨

الطبعة الأولى

وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	أكتوبر سنة ١٩٧٢

* * *

أعمال كتبها المؤلف ، ونشرت بعد وفاته

هذه حياتى

ذكريات سينمائية

كشك الموسيقى

خفقات قلب

صور وذكريات

الإسراء والمعراج

عدو البشر

النمر

أبطال الجزيرة الخضراء

الله أكبر

ثلاثة رجال فى حياتها

مسجد الرسول

عشيقة الحى

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ جزءا
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

وَالَّذِينَ مَعَهُ

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه
فى ٢٠ جزءا

١	ـ إبراهيم أبو الأنبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢	ـ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ـ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ـ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ـ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ـ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧	ـ اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨	ـ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ـ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ـ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١	ـ الهجرة	ستمبر ١٩٦٨
١٢	ـ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ـ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ـ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ـ صلح الحديبية	يونيه ١٩٦٩
١٦	ـ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ـ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨	ـ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ـ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ـ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠